

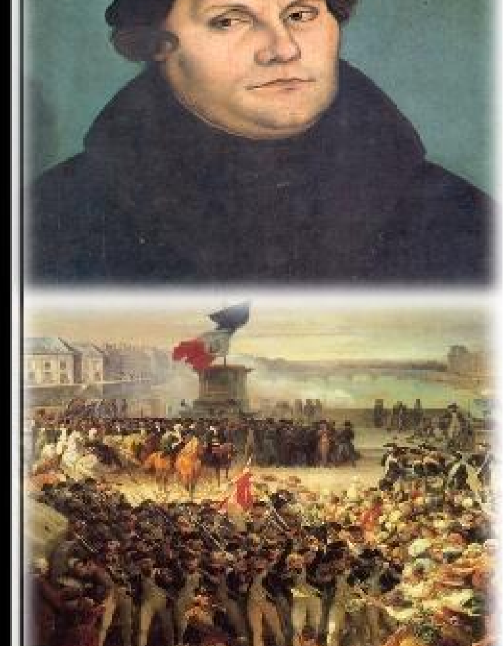


أشرف صالح محمد سيد



أصول التاريخ الأوربي الحديث

Les actifs de l'histoire européenne moderne



السبق الإيطالي في قيام النهضة الأوربية
مظاهر النهضة في إيطاليا-إنجلترا-فرنسا
حركة الكشوف الجغرافية
مارتن لوثر والإصلاح الديني البروتستنتي





دار ناشري للنشر الإلكتروني
www.nashiri.net
الطبعة الإلكترونية الأولى
الكويت ٢٠٠٩

أصول التاريخ الأوربي الحديث

Les actifs de l'histoire européenne moderne

يصدر هذا الكتاب في ذكرى مرور أكثر من ٤ قرون

على احتجاجات مارتن لوثر ضد صكوك الغفران

١٥١٧ – ٢٠٠٩



حقوق النشر الإلكتروني والبث على شبكة الإنترنت ©محفوظة لدار ناشري

دار ناشري للنشر الإلكتروني

رقم التسجيل في المكتبة الوطنية الكويتية: ٢٠٠٨/٣٠٦

أول دار نشر ومكتبة إلكترونية عربية مجانية للقارئ العربي

www.nashiri.net

info@nashiri.net

الفهرسة أثناء النشر

٩٤٠,٢١ صالح ، أشرف

أصول التاريخ الأوربي الحديث/ أشرف صالح محمد سيد.- ط ١.- الكويت: دار ناشري للنشر الإلكتروني ، ٢٠٠٩.

١٩٦ ص ؛ (سلسلة المؤرخ الصغير ؛ ٦).

- الناشر: دار ناشري للنشر الإلكتروني (الكويت)

www.nashiri.net

١-العنوان ٢- أوربا –تاريخ – عصر النهضة

٣- أوربا –الإصلاح الديني ٤- الكشوف الجغرافية – أوربا

الطبعة الإلكترونية الأولى

الكويت ٢٠٠٩

محفوظة جميع الحقوق

- عند اقتباس أي جزء من هذا الكتاب يتعين الإشارة إلى المصدر حفاظاً على حقوق الملكية الفكرية للمؤلف.
- الآراء الواردة بهذا الكتاب تعبر عن وجهة نظر المؤلف ولا تعبر بالضرورة عن توجهات دار ناشري للنشر الإلكتروني.

Publisher:

Nashiri Non-profit E-Publishing House (Kuwait)

www.nashiri.net

info@nashiri.net



أصول التاريخ الأوربي الحديث

Les actifs de l'histoire européenne moderne

بحث وإعداد

أشرف صالح محمد سيد

رئيس تحرير دورية كان التاريخية

عضو إتحاد كتاب الإنترنت العرب

الطبعة الإلكترونية الأولى

١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م



دار ناشـــري للنشـــر الإلكترونـــي

Nashiri Non-profit E-Publishing House

"الأمـم الشـرقية والغربيـة جميعهـا دائنـة ومدينـة في تـراث الحضـارة الإنسـانية،

وأنه ما من أمة لها تاريخ إلا وقد أعطت كما أخذت من ذلك التراث"

عباس محمود العقاد

فهرس



الإهداء

إلى أستاذي أ.د. جاد محمد طه؛
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر والعميد
الأسبق لكلية الآداب جامعة عين شمس،
وفاءً لأستاذي الذي تعلمت على يديه أولى
خطوات البحث في تاريخ أوربا الحديث



مُقدمة

تجمع روايات الباحثين على أن اسم القارة الأوربية مشتق من اسم الأميرة الفينيقية يوروبا أبنة الملك الفنيقي آجينور "ملك بلاد كنعان وفلسطين" والتي رآها زيوس كبير آلهة اليونان هي وزميلاتها على شاطئ مدينة صور فأعجب بجمالها وأحبها، واتخذ لنفسه جسم ثور جميل ناصع البياض ذي قرون ذهبية مزينة بحجارة كريمة، وحين اقتربت منه يوروبا وامتطته راح يجري بها مسرعاً نحو الغرب حتى اختفى، وحسب الميثولوجيا اليونانية فإن زيوس أخذها إلى جزيرة كريت. ومن بعد حادثة الخطف سُميت اليونان باسم يوروبا وبحلول العام ٥٠٠ ق.م امتد المقصود من الكلمة ليشمل الأراضي الواقعة شمال اليونان.

الواقع أن؛ موضوع التاريخ الأوروبي من الموضوعات الحيوية المهمة بالنسبة للقارئ العربي والطالب الجامعي على وجه الخصوص نظراً للعلاقة الوطيدة بين العرب وما حصل في أوروبا من تطورات وتزامن مع ظهور النهضة وما قبلها أيضاً مروراً بالفترات التالية من تكوين أوروبا الحديث والمعاصر.

على هذا الأساس كانت فكرة هذا الكتاب دراسة التطورات في القارة الأوربية منذ مطلع العصور الحديثة وحتى الثورة الإنجليزية المجيدة، لما حوته هذه الحقبة التاريخية من أحداث وتطورات كان لها تأثير في أوروبا من الناحية السياسية والاقتصادية والعلمية والفكرية والأدبية. وحيث أن الانتقال من عصر إلى عصر لا يحدث طفرة، بل هو عملية بطيئة تحدث تدريجياً، لذلك يصعب تعيين تاريخ محدد لنهاية العصور الوسطى في أوربا وبداية العصور الحديثة بها.

إلا أنه عندما حل عام ١٥٠٠م بات واضحاً أن مرحلة تاريخية انتهت وحلت محلها مرحلة تاريخية جديدة لها سماتها الإنسانية والحضارية والفكرية والاجتماعية، فقد انتهت في تلك الفترة ما كان يعرف بالعصور الوسطى وبداية ما عُرف بالعصور الحديثة، ولكن

خلفت تلك الفترة التاريخية عهداً اتسم بالغنى التراثي والفكري والمؤسساتي، فكانت نظمه السائدة كالكنيسة المسيحية والحكومة النموذجية، والنظام الرأسمالي، والجامعة، وبعض أفكاره الأكثر حيوية بما فيها الفكر الرومانسي والفكر العقلاني، والوطنية، والمنهج العلمي، فضلاً عن الطبيعة المركبة المتناقضة للإنسان ذاته.

الجدير بالذكر؛ أن فترة الانتقال من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة في أوربا يطلق عليها عصر النهضة أي "المولد الجديد" أو "البعث الجديد"، وهي تغطي فترة زمنية تمتد من القرن الرابع عشر وحتى القرن السابع عشر تقريباً. وتستمر ذيول النهضة في حركة الكشوف الجغرافية، وفي صورة الإصلاح الديني، والصراع المذهبي بين الكاثوليكية والبروتستنتية.

وتحاول صفحات الكتاب من خلال ثمانية مباحث موجزة توضيح ملامح التاريخ الأوربي الحديث، بدايةً من عصر النهضة وأسباب السبق الإيطالي في قيام النهضة الأوربية، مع إلقاء الضوء على مظاهر النهضة في إيطاليا وفرنسا وإنجلترا. مروراً بحركة الكشوف الجغرافية وفكرة البحث عن خطوط الملاحة الجديدة التي ألغت دور البحر المتوسط في التجارة وأنعشت من جهة ثانيةً اقتصاد بعض الدول، فساهمت عموماً في تبدل أوضاع المجتمع وتحديداً في انتعاش الطبقة البورجوازية التي امتهنت التجارة فيما وراء البحار.

ووصولاً إلى الحركة الدينية وقضايا اللاهوت ومشاكله، وظهور مارتن لوثر وثورة الإصلاح الديني البروتستنتي، حيث تحولت إنجلترا من المذهب الكاثوليكي إلى المذهب البروتستنتي وقامت الكنيسة الإنجليكانية. ثم اندلاع حرب الثلاثين عاماً التي استمرت من عام ١٦١٨ وحتى عام ١٦٤٨ هذه الحرب التي بدأت كحرب دينية وسرعان ما تحولت إلى حرب أوروبية واسعة النطاق، شاركت فيها كل من النمسا وأسبانيا وفرنسا والسويد والدنمارك إلى جانب الدويلات الألمانية المختلفة.

وانتهاءً بظهور الأتراك العثمانيون في العالم الأوربي المسيحي عقب فتح القسطنطينية سنة ١٤٥٣م كبداية للتواجد الإسلامي ونهاية للتواجد البيزنطي المسيحي في المنطقة، وبيان الموقف الأوربي من نمو الإمبراطورية العثمانية. ثم إطلالة سريعة على حكم أسرة التيودور في انجلترا (١٤٨٥ - ١٦٠٣)، وقراءة في أوراق الثورة المجيدة ١٦٨٨م من واقع ما كتبه المؤرخ البريطاني ول ديورانت في كتابه الموسوعي قصة الحضارة.

في الحقيقة؛ إن هذه المباحث ذات الموضوعات المختلفة تكاد تظهر وكأنها مستقلة عن بعضها البعض، إلا أن ما يجمع بينها كونها تشكل مفاصل أساسية لدراسة التاريخ الأوروبي الحديث. قصدنا فيها البحث عن ما يتعلق بموضوع الدراسة على شبكة الإنترنت فوجدنا أن المحتوى العربي ضعيف في هذا الشأن، لذا فضلنا أن نجمع كل ما وصلت له يدنا في مؤلف واحد يخدم القارئ عوضاً عن السباحة في الفضاء الرقمي.

هذا الكتاب محاولة رقمية من سلسلة المؤرخ الصغير لتوضيح الفترة الحديثة للتاريخ الأوربي- سبقتها قراءة في تاريخ وحضارة أوربا العصور الوسطى- بهدف دعم الباحث التاريخي في هذا الشأن بقراءات مركزة موجزة نأمل أن يصدق فيها قول القائل "بعض الكلمات أدل من طوال المجلدات".

ويسعدني بعد أن انتهيت من هذا الكتاب بعون الله وتوفيقه، أن أقدم امتناني وتقديري إلى السيدة الفاضلة حياة الياقوت مؤسِسة ورئيسة تحرير دار ناشري، وإلى السادة فريق العمل بدار ناشري للنشر الإلكتروني(الكويت)، على جهودهم المبذولة في نشر المقالات والدراسات ومتابعة الأخبار الثقافية، ونشر الكتب والمجلات الإلكترونية على موقع الدار بشبكة الإنترنت، بهذا الشكل المواكب لعصر تكنولوجيا المعلومات والداعم للمحتوى العربي الرقمي.

كما أتقدم بخالص الشكر وعظيم التقدير إلى الكاتب الدكتور محمد سعيد الملاح لتفضله بالإطلاع على الكتاب قبل تقديمه لقراء اليوم " قراء الإنترنت"، حيث أبدى إعجابه بالكتاب وهو تشريفاً وتكريماً لمؤلفه ورأي له أكبر الأثر في النفس لإنجاز مزيد من الأعمال.

لقد استغرق إعداد هذا الكتاب أكثر من عام، توقفت رحلة البحث فيه مرة ومرات لكن الدافع وراء إنجازه كان تقديم كتاب عن تاريخ أوربا الحديث إلى المكتبة العربية الإلكترونية، ونتركه اليوم للقارئ بقول الرسول ﷺ"مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ، أَلْجَمَهُ اللَّهُ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ" .

أشرف صالح محمد سيد
رئيس تحرير دورية كان التاريخية
mr.ashraf.salih@gmail.com

فوليا- أسطنبول
٣ يناير ٢٠٠٨



السبق الإيطالي في قيام النهضة الأوربية

اتجهت أوربا في العصور الوسطى إلى الزهد في الدنيا ، والتبتل إلى الآخرة ، وذلك نتيجة هيمنة رجال الكنيسة على مختلف شؤون الحياة ، باعتبارهم علماء في الدين وفلاسفة في القانون الروماني ، فحاربوا المفكرين ، وحاكموهم بقسوة ، واحتكروا زعامة المجتمع ، فتفشت فيه الخرافات وعم الجهل ،فلم ينتفع الجمهور باللغة اللاتينية ،لأنها كانت محتكرة لدى طائفة من رجال الكنيسة ولم تكن صناعة الورق ، أو فن الطباعة معروفين في أوروبا ،ولهذا كان المجتمع الأوروبي متخلفاً ويئن تحت وطأة الإقطاع ، ويعاني من ويلات الحروب الإقطاعية والتجزئة السياسية. عصر النهضة مصطلح يطلق على فترة الانتقال من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة وهي القرون ١٤ -١٦ ويؤرخ لها بسقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣م حيث نزح العلماء إلى إيطاليا حاملين معهم تراث اليونان والرومان. كما يدل مصطلح عصر النهضة على التيارات الثقافية و الفكرية التي بدأت في البلاد الإيطالية في القرن ١٤ ، حيث بلغت أوج ازدهارها في القرنين ١٥ و ١٦ ، ومن إيطاليا انتشرت النهضة إلى فرنسا وإسبانيا وألمانيا وهولندا وانكلترا وإلى سائر أوروبا. أزدهر شأن النهضة الإيطالية إذ وجدت لها أنصاراً يصرفون عليها المال الوفير ، مثل أسرة ميديشي في فلورنسا وسوفرزا في ميلانو والبابوات في روما. بلغت البندقية ذروة عظمتها الثقافية في أواخر القرن ١٦. من أعظم شخصيات النهضة في المجال الفني ليوناردو دافنشي و مايكل أنجلو ومكيافيللي ، وغيرهم كان لهذه الحقبة تأثير واسع في الفن والعمارة وتكوين العقل الحديث وعودة واعية للمثل العليا والأنماط الكلاسيكية. في هذه الفترة تم اكتشاف أراضي وشعوب جديدة حيث أتسمت هذه الفترة بظهور طائفة كبيرة من الرحالة والمستكشفين والملاحين منهم الأمير هنري الملاح و كريستوفر كولومبس و فاسكو ديجاما.

السبق الإيطالي في قيام النهضة الأوربية

الموقع الجغرافي وطبيعة الشعب الإيطالي – الحكومات المستبدة المستنيرة والرخاء الاقتصادي – المكتبات والمخطوطات – الأكاديميات (المجامع العلمية) – مقر البابوية – خصائص النهضة الأوربية – أثر الثقافة العربية في النهضة الأوربية – حضارة العرب في صقلية وأثرها في النهضة الأوروبية – تلمّس ابن خلدون للنهضة الأوروبية – أثر الإسراء والمعراج في النهضة الأوروبية

إن فترة الانتقال من العصور الوسيطة إلى العصور الحديثة يطلق عليها عصر النهضة [١]، وقد تميزت هذه الفترة الممتدة من القرن الرابع عشر إلى السادس عشر الميلادي بقيام حركة واسعة من أجل إحياء العلوم والمعارف على أساس الرجوع إلى مخلفات الآثار الإغريقية والرومانية القديمة ودراستها، وقد بدأت النهضة الأوربية في مدن شبه الجزيرة الإيطالية وازدهرت فيها ثم انتقلت إلى الدول الأوربية، وتعد حركة الكشوف الجغرافية والإصلاح الديني والصراع المذهبي نتائج للنهضة الأوربية.

خلال عصر النهضة قام عدد كبير من العلماء والفنانين الأوروبيين ـ في إيطاليا خاصة ـ بدراسة علوم بلاد اليونان وروما القديمة وفنونهما. أراد هؤلاء بعث روح الثقافتين الإغريقية والرومانية في أعمالهم الفنية والأدبية والفلسفية. وكانت الثقافتان اليونانية والرومانية القديمتان تعرفان غالبًا بالتراث الكلاسيكي .وكان العرب قد أولوا اهتمامًا بالعصور الإغريقية والرومانية، وبخاصة في مجال العلوم، وكانت مثل هذه المعارف قد أصبحت مفقودة في أوروبا؛ لذلك كان الإسهام العربي الكبير في نقل أغلب إنجازات الإغريق والرومان وما أضافوه من المخترعات والعلوم هو الأساس الذي فجر النهضة في أوروبا، وكان عصر النهضة بعثًا لهذه الثقافات، ولذلك يعرف أيضًا بأنه إحياء العصور القديمة أو إحياء المعرفة.

تداخل عصر النهضة مع نهاية حقبة في التاريخ الأوروبي تعرف بالعصور الوسطى، بدأت في القرن الخامس الميلادي. رفض قادة عصر النهضة عددًا كبيرًا من مواقف العصور الوسطى

(١) عصْر النَّهْضة: حركة ثقافية كبرى بدأت في إيطاليا أوائل القرن الرابع عشر الميلادي، ثم انتشرت في كل من إنجلترا وفرنسا وألمانيا وهولندا وأسبانيا، وبلاد أخرى، في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي. وسرعان ما انتهى عصر النهضة تدريجيًا في القرن السابع عشر الميلادي.

وأفكارها. فقد اعتقد مفكرو أوروبا في العصور الوسطى، على سبيل المثال، بأن الواجب الرئيسي للناس هو الصلاة والاهتمام بخلاص أرواحهم، وأن المجتمع مملوء بالمغريات الشريرة. لكن مفكري عصر النهضة ركزوا، من ناحية أخرى، على مسؤوليات الناس وواجباتهم تجاه المجتمع الذي يعيشون فيه، واعتقدوا أن المجتمع يستطيع أن يجعل الناس متحضرين أكثر مما يجعلهم أشرارًا.

كانت دراسة اللاهوت في العصور الوسطى أكثر فروع المعرفة أهمية.[٢] لكن عددًا كبيرًا من مفكري عصر النهضة أعاروا اهتمامًا أكبر للدراسات الإنسانية. ومحَّصوا الإنجازات الكبرى للثقافات المختلفة، وبخاصة ثقافتي اليونان وروما القديمة، وتأملوا طويلاً مؤلفات العرب وشروحهم على ما نقلوه.

رسم فنانو العصور الوسطى أشكالاً إنسانية كانت تبدو متجهمة وغير واقعية، وغالبًا ما تخدم أهدافًا دينية رمزية. لكن فناني عصر النهضة ركّزوا على جمال الجسم الإنساني. وحاولوا أن يجذبوا الانتباه إلى سمو الكائنات الإنسانية وعظمتها في رسومات ومنحوتات نابضة بالحياة.

جرت المتغيرات التي أحدثها عصر النهضة تدريجيًا دون أن تحدث تأثيرًا مباشرًا على معظم الأوروبيين. فعندما وصلت هذه الحركة إلى أوجها، ما بين أواخر القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر الميلاديين، لم تكن الأفكار الجديدة التي جاءت بها مقبولة إلا من عدد قليل من الناس. وقد ثبت أن تأثير عصر النهضة في الأجيال التالية، كان كبيرًا جدًا، في ميادين عديدة، بدءًا من الفن والأدب إلى التربية والعلوم السياسية والتاريخ. وبناء على هذه الحقيقة وافق معظم العلماء ـ منذ مئات السنين ـ على أن الحقبة الحديثة من التاريخ الإنساني بدأت مع عصر النهضة.



إيطاليا في عصر النهضة كانت تشتمل على حوالي ٢٥٠ دويلة، معظمها كان يخضع لحكم مدينة واحدة. بدأ عصر النهضة خلال القرن الرابع عشر الميلادي في الدول ـ المدن الواقعة في شمالي إيطاليا. ضمت مراكز عصر النهضة الأولى مدن فلورنسا وميلانو والبندقية .

(٢) لمزيد من التفاصيل عن اللاهوت في العصور الوسطى راجع:

G.R. Evans, Law and Theology in the Middle Ages.-London: Taylor & Francis, 2001.(272 pages).

Charles Augustus Briggs, History of The Study of Theology.-New York: charles scribner's sons, 1916.(2 volume)

الموقع الجغرافي وطبيعة الشعب الإيطالي

حيث كانت مدن إيطاليا الشمالية حلقة الاتصال بين غرب أوروبا والشرق، فهذا الموقع جعل إيطاليا تتصل بحضارة الشرق، وقد نقلت إيطاليا نتيجة هذا الاتصال كثيراً من مظاهر الحضارات الشرقية، و أيضاً جعل الموقع ايطاليا على مقربة من القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية[٣] فاستفادت من الأساتذة الزائرين من الإغريق، كما أن طلاب العلم الإيطاليون نزحوا إلى القسطنطينية للتعمق في دراسة اللغة الإغريقية وفنونها وآدابها ثم يعودون أدراجهم لبلادهم.

وقد اشتهر الشعب الإيطالي بميل طبيعي للحياة الفنية بكل صورها وظهر ذلك في شغفه بإمتاع العين والأذن والنفس بالجمال الحسي والمعنوي، كما فتن بالموسيقى والرقص والأغاني والتصوير والنحت والعمارة. أما الحياة العسكرية والحربية، فقد باعد الشعب الإيطالي بينه وبينها وعهدَ بها إلى جنود مرتزقة من الألمان والسويسريين. وقد أدى ذلك الميل الفني في الشعب الإيطالي ثم عمقته العوامل السابقة من رخاء اقتصادي وحياة مرحة في قصور الأمراء وحكام المدن وجمال المناظر الطبيعية الخلابة، بالإضافة إلى المجد القديم الذي عاش في ظلاله ايطاليو عصر النهضة، إلى تفجير طاقات عقلية وفنية فبرز الموهوبون الخلاقون المبدعون الذين عاشوا وأنتجوا في مجتمع حساس مرهف، فبلغت الحياة الفنية في إيطاليا مستوى رفيعاً لم تبلغه في غيرها من البلاد الأوروبية.

الجدير بالذكر؛ أن إيطاليا كانت المهد الأول للحضارة الرومانية فيوجد بها مخلفات التراث الخالد من مبان وتماثيل ومخطوطات ونقوش، وقد وجد أصحاب حركة النهضة من الأدباء والعلماء والفنانين في ايطاليا نماذج حية فدرسوها وحاكوها واجتهدوا في بعثها. وقد تمتعت إيطاليا بهدوء نسبي بعد النصف الثاني من القرن الخامس عشر الميلادي وحتى الغزو الفرنسي لها، وهذا الهدوء ساعد على نمو حركة النهضة.

(٣) عاصمة الإمبراطورية الرومانية خلال الفترة (٣٣٠ – ٣٩٥) وعاصمة الدولة البيزنطية (٣٩٥ – ١٤٥٣)، وتعد القسطنطينية من أهم المدن العالمية، وقد أسست في عام ٣٣٠م على يد الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الأول، وقد كان لها موقع عالمي فريد حتى قيل عنها:" لو كانت الدنيا مملكة واحدة لكانت القسطنطينية أصلح المدن لتكون عاصمة لها"، راجع:

أشرف صالح، مقال بعنوان"القسطنطينية:عاصمة الإمبراطورية الرومانية وعاصمة الدولة البيزنطية"، مجلة العرب (الكترونية – أسبوعية – شاملة)، دراسات وبحوث، بتاريخ ٢٨/ ٤/ ٢٠٠٨، متاح على الرابط: http://arabmag.blogspot.com/search/label/Edu

الحكومات المستبدة المستنيرة والرخاء الاقتصادي

كانت إيطاليا في القرن الخامس عشر الميلادي مقسمة لعدة إمارات ولم تكن قد عرفت الوحدة السياسية، وكان الحكم الغالب في هذه الإمارات هو حكم الطغاة المستبدون من إمارة معينة، فميلان تحت حكم أسرة فيسكونتي Visconti وفلورنسا تحت حكم أسرة مدتيشي Medici وقد قبضت أسرة بورجيا بيد من حديد على الولايات البابوية. وعلى الرغم من هذا فقد تميز هؤلاء الطغاة بتشجيعهم للعلماء والأدباء والفنانين وتقدير النبوغ والرغبة في الاحتفاظ بسمعة طيبة بين الرعية ومكانة مرموقة للإمارة.

وقد تمتعت المدن الإيطالية برخاء اقتصادي نتيجة لاحتكارها التجارة الشرقية مثل البندقية وجنوة وميلان، وازدادت ثروة أهالي تلك المدن واستفادوا بما اقتبسوا من حضارات أمم كانت أعرق منهم مدنية، كما كانت تلك الثروة عاملاً لتشجيع العلماء واقتناء الكتب النادرة واللوحات.

المكتبات والمتاحف والمخطوطات

تنافست المدن الإيطالية في إنشاء المكتبات واقتناء أنفس الكتب وأبرز المخطوطات وأبدع الصور، ومن الذين اهتموا بإنشاء المكتبات كوزمودى مديتشي Cosmo de Medici الذي قام في عام ١٤٢٣م بتشييد مكتبة سان جورجو San Giorgio في البندقية، وفي عام ١٤٤١م أصلح وأكمل مكتبة سان ماركو في فلورنسا. وقد أهتم البابا نيقولا الخامس (١٣٩٧ – ١٤٥٥)[٤] بمكتبة الفاتيكان وأقتنى لها كتب نادرة فأصبحت على عهده تضم (١٢) ألف مجلد.

(٤)ولد نقولا ببلدة سارزانا بالقرب من مدينة لاسبيزيا بإيطاليا. وكان اسمه واسم عائلته توماسو باريتو تشيللي. انتُخِب بابا عام ١٤٤٧م. وكان نقولا أول باباوات عصر النهضة الحقيقيين. فقد جعلته التطورات الفكرية في فلورنسا التي كانت المركز الرئيسي للحركة الإنسانية بإيطاليا، أن ينفق أموالاً طائلة لاقتناء مجموعة مهمة من المخطوطات الإغريقية القديمة والرومانية ومخطوطات من عصر الكنيسة المبكرة، وأصبحت هذه المخطوطات بمثابة العمود الفقري لمكتبة الفاتيكان. كما رعى نقولا عددًا كبيرًا من الإنسانيين (أصحاب النزعة الإنسانية) في روما الذين قاموا بترجمة الكتب الإغريقية إلى اللغة اللاتينية، إذ كان يرى أن الدور البابوي ليس مجرد رئاسة الكنيسة، وإنما زعامة الحضارة الغربية أيضًا.

وكان هدف نقولا إعادة روما مرة ثانية عاصمة للعالم النصراني. فأعلن أن عام ١٤٥٠م هو عام اليوبيل مما اجتذب عددًا كبيرًا من الزائرين إلى روما. كما قام بإعادة بناء منشآت كثيرة بالمدينة، مستخدمًا مشاهير الحرفيين والفنانين، ومن بينهم الرسام فرا أنجيليكو، لزخرفة هذه المباني. وبالإضافة إلى ذلك، كانت لديه خطط طموحة لإعادة بناء كنيسة القديس بطرس ولكنه لم يستطع سوى إعادة بناء الفاتيكان.

ومن المؤكد أن مكتبات الكنائس والأديرة قامت بدور رئيسي كحافظة على الأعمال الفنية في العصور الوسطى فكانت تضم مجموعات من الكتب والآواني والصور المقدسة تحفظ في الكنائس المسيحية المبكرة.ويمكن اعتبار القديس بندكت Benedict[٥]راعي المكتبات في أوروبا ممن ساهموا في نشأة المتاحف التاريخية، واهتم اهتماما كبيرا بالمجموعات المتحفية ايمانا منه بأهميتها وقدرتها على التنمية الروحية، وقد عمل القديس أوغسطين St. Augustine على محاربة هذه البدعة وظل ينادي بأن المعبد المقدس للرب هو عمل رائع ليس بأعمدته، ورخامه وسقوفه المغشاة ومقتنياته، ولكن بالحق والعدالة التي يعلمها للإنسان ويغرسها في وجدانه[٦].

ولكن رغم ذلك استمرت الأشياء الثمينة والغريبة تتراكم في خزائن الأديرة وفي غرف كنوز الكاتدرائيات وخاصة الفاتيكان، مع تذكارات انتصار شارلمان في حربه مع دولة الأندلس، إلى كنوز سانت لويس ومن سانت شابل في باريس إلى سانت مارك في فينسيا. وقد وضع المؤرخ أبوت شوجر A. Choagar قائمة بكنوز الكنيسة الملكية في القرن الثالث عشر وطالب بعرض محتوياتها لإرضاء القوة العليا للجلالة المقدسة. وفي كنيسة وتنبرج التي علق مارتن لوثر[٧]رسالته عليها كان يُعرض ضلعان لحوت قيل أنهما من الأراضي المقدسة، ولكن في الحقيقة أخذا من حوت قذفت به أمواج البحر على شاطئ البلطيق. ومثال آخر؛ نجد غوريلا أحضرها الملاح هانو من الساحل الغربي لأفريقيا وعلقت على معبد في قرطاجة. ويعد كتاب هايلتوم Heiltumsbuch في ١٥١٠ م عن المعادن الثمينة والجواهر والكنوز البديعة التي كانت في كنيسة سانت مارك في فينيسا خير الأدلة لهذه التحف والمتروكات وهكذا أصبحت مجموعات مكتبات الاديرة والكنائس من الآثار الدينية جزءاً من التحف النادرة المختلفة.

في الحقيقة؛ إن الانتقال من حجرة كنوز العصور الوسطى إلى عصر النهضة كان ثورة متحفية، تهدف للتعبير عن تفكير هواة جمع الأثريات في الخلود وليس لتوضيح الأعمال الفنية في التاريخ الماضي. فإن النهضة جعلت من الممكن تقدير الأعمال الفنية لذاتها وليست

---

(٥) في القرن السادس الميلادي تطورت فكرة الرهبنة إلى ما يعرف بالديرية البندكتية نسبة إلى القديس بندكت الذي وضع قانوناً للرهبنة أساسه إنساني وروحي معاً يقوم على التبتل والطهارة، ونكران الذات والطاعة العمياء، ولم يغفل الناحية العلمية فكانت أديرته منبعاً للعلم. أنظر:

ج.ج. كولستون، عالم العصور الوسطى/ ترجمة جوزيف نسيم.- الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٨٣. ص ١٧١.

(٦) يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط.- القاهرة: دار المعارف،١٩٦٥. ص ١٥ - ٤٦.

(٧) مصلح ديني مسيحي ألماني ثار على الكنيسة الكاثوليكية وهو مؤسس البروتستانتية. راجع:

عبد الفتاح مصطفى غنيمة، نحو فلسفة السياسة: النظم والنظريات والمذاهب السياسية: أصولها وتطورها التاريخي.- ١٩٨٩. ص ١٦٢.

كإنعكاسات للعم المقدس. ومن ثم كان التطور في المجموعات العظيمة للنهضة مثل مجموعة المديتشي في فلورنسا، ومجموعة مونتفلترو في فرنسا.

وفي روما كان يوجد ارتباط ملحوظ وواضح بين عصر النهضة، وبين مصادره الكلاسيكية (العصور الوسطى) للإلهام. أما في الأماكن الأخرى كان التناقض بين هذين الاتجاهين العصور الوسطى والنهضة بالنسبة للماضي واضحاً. فاتجاه النهضة نحو الأعمال الفنية والأنماط العلمية أدخل عنصراً حاسماً في تطوير المتحف الحديث، وصارت الوظيفة الجديدة للمجموعات المتحفية هي فهم للواقع التاريخي وهذه نظرة لم تكن موجودة.[(٨)]

فخلال فترة عصر النهضة خرجت المتاحف عن المفهوم المتوارث لمعنى وهدف المتحف إلى أهداف أكبر قليلاً، وهي نشر الثقافة والمعرفة من خلال ما يتم عرضه من مقتنيات مختلفة، فقد استطاع الأوروبيون من خلال التطورات في مجال العلم والمعرفة التي حدثت في تلك الحقبة التاريخية، وأيضاً حبهم وشغفهم للاطلاع على مخلفات الحضارات السابقة، وربما بشكل خاص الحضارات الرومانية واليونانية إلى تخطي ما كان سائداً من تخلف خلال العصور الوسطى، وأصبح المتحف أحد المراكز المهمة لفهم الثقافات القديمة والاستفادة منها في ميادين عدة كالعلوم والفنون واللغات وغيرها.[(٩)]



"Musei Wormiani Historia", the frontispiece from the Museum Wormianum depicting Ole Worm's cabinet of curiosities. 1655 (http://www.sil.si.edu/Exhibitions)
Ole Worm (1588-1654), a doctor and professor of natural philosophy in Copenhagen, used his collection to teach students.

(٨) عبد الفتاح مصطفى غنيمة، المتاحف والمعارض والقصور: وسائل تعليمية.- المنوفية: كلية الآداب – جامعة المنوفية، ١٩٩٠. ص ٧٤- ٧٦، (سلسلة المعرفة الحضارية، ٢).

(٩) مقال بعنوان "المفهوم المتحفي في العالم العربي"، مجلة الثقافة العربية، مجلة شهرية - العدد (٣٨٧) إبريل ٢٠٠٩ م، متاح على الرابط:(http://www.arabicmagazine.com/ArtDetails.aspx?id=468)

أما بالنسبة للمخطوطات القديمة[١٠] (المخطوطات اللاتينية) فقد كانت المصدر الأول في حركة الدراسات القديمة، فكان البحث عن المخطوطات في إيطاليا والكثير من بقاع أوروبا فبوجيو - من كبار الإنسانيين - زار المراكز الدينية في سويسرا وسوابيا للبحث عنها، و قد عثر هناك على مخطوطات هامة.

وفي ١٤٢٥م عثر لاندياني على الرسائل الخطابية لشيشرون[١١]، ومَثل عام ١٥٠٨م أكبر استكشاف في تاريخ المخطوطات في عصر النهضة، فقد أكتشف العالم الحديث الكتب الستة الأولى من حوليات المؤرخ الشهير تاكيتوس.[١٢]

أما المخطوطات اليونانية؛ فقد كان البحث عنها أكثر حماساً فقد اشترك فيها طلاب العلم والهيئات غير المشتغلة بالبحث المعلي، فالبيوت الكبيرة في فلورنسا مثل بيت ميدتشي كان ينفق الكثير من المال للحصول على هذه المخطوطات اليونانية. وقد اشترك في هذه المنافسة الأمراء والباباوات وأصبح الحصول عليها البدعة السائدة في أوائل عصر النهضة في إيطاليا. ونتيجة لذلك الاهتمام للحصول عليها نشأت تجارة واسعة فيها وكانت القسطنطينية مركز هذه التجارة.

الأكاديميات "المجامع العلمية"

عملت الأكاديميات[١٣] على نشر الدراسات القديمة وعن طريقها انتشرت الحركة الإنسانية انتشاراً واسعاً وكان النصف الثاني من القرن الخامس عشر عصر الأكاديميات. وفيها كان يجتمع الطلبة حول الأساتذة للاستماع والدراسة، وانتشرت في مختلف المدن الإيطالية ولكنها كانت أكثر انتشاراً في فلورنسا مركز الحركة الإنسانية. وفي ١٤٣٨م استطاع جمستون بيتون Gemiston Piethon – أحد الإنسانيين – أن يقنع كوز موميدتش بإنشاء أكاديمية خاصة

(١٠) المخطوطة: مصطلح لأي وثيقة مكتوبة باليد أو بآلة مثل آلة الطباعة أو الحاسوب الخاص. وتستعمل الكلمة للتفريق بين النسخة الأصلية لعمل كاتب ما والنسخة المطبوعة. كما يشير المصطلح لأي وثيقة تاريخية مكتوبة باليد منذ العصور القديمة حتى ظهور الطباعة في القرن الخامس عشر الميلادي.

(١١) شَيْشَرُون، ماركوس توليوس(١٠٦ - ٤٣ ق.م). خطيب روماني ورجل دولة جعلته خطبه المكتوبة ومقالاته الفلسفية والدينية من أكثر الكتاب تأثيرًا في الأدب اللاتيني. قام في كتاباته بترجمة أفكار ومصطلحات علمية من اللغة اليونانية إلى اللغة اللاتينية، وطوّر بذلك اللغة اللاتينية حتى أصبحت تُستخدم لغة عالية للاتصال الفكري على مدى قرون عديدة.

(١٢) تاكيتوس (٥٥- ١٢٠م). أحد أشهر المؤرخين في العالم. وأكثر أعماله أهمية التواريخ الذي يسرد فترات الحكم القصيرة للأباطرة: جالبا، وأوثو، وفتليس، والحوليات، الذي يصف التاريخ الروماني من أوجستس إلى نيرو.

(١٣) الأكاديمية الاسم العام الذي يُطلق على مجموعة من الناس أو منظمة تقوم بترقية الفنون أو الآداب أو العلوم أو أيِّ مجال آخر من مجالات المعرفة. تسمّى بعض المدارس أيضًا أكاديميات.

لدراسة أفلاطون وهي أكاديمية فلورنسا، وكانت لدراسة الفلسفة ولكنها اهتمت أيضاً برجال الفن أمثال ليو ألبرتي[١٤] ومايكل آنجلو.[١٥] Michel Angelo وكان مورسيليو فينتشو Morsilo Ficino من أقطاب هذه الأكاديمية.

وبالنسبة لأكاديمية روما؛ فقد أسست على يد جيوليوس لايتوس Julius Loetus عام ١٤٦٠م وكان شديد التحمس للدراسات اللاتينية، وكانت لدراسة الآثار وقد أغلقها البابا بول الثاني فترة ثم فتحها سكستوس الرابع Sixtus IV وعاشت حتى عهد البابا ليو العاشر، وكان من أقطابها جوفيوس. وفي عام ١٤٤٢م أسست أكاديمية نابلي على يد الفونس الخامس صاحب أراجوان وكان حاكماً في نابلي، وكانت لدراسة الآداب. وقد اختفت هذه الأكاديمية بعد وفاته عام ١٤٥٨م ثم ظهرت على يد جوفياني بونتان Jovianus pontanus .

أما أكاديمية البندقية فقد أسسها ألدو مانوتزيو عام١٥٠٠م وأطلق عليها الأكاديمية الجديدة Meacademia وكانت للدراسات الإغريقية وجمع المخطوطات واختيار الكتب الكلاسيكية للطبع، وكان جون لاسكارس John Lascaris من أبرز أعضائها.

مقر البابوية

على الرغم من أن روما فقدت مركزها السياسي الرفيع كعاصمة للإمبراطورية الرومانية الغربية منذ سنة ٤٧٦م حين سقطت على يد أودواكر Odoacer فهذا السقوط جعل من البابوية القوة الوحيدة القائمة التي التف حولها المسيحيون في الغرب. وكان لشبه الجزيرة الإيطالية مكانة لم تتوافر لغيرها من البلاد الأوروبية، وكانت الزعامة الدينية للبابا عاملاً هاماً أكسب الإيطاليين شعوراً بالسيطرة على بقية أنحاء أوروبا. وكان وجود مقر البابوية في بلادهم قد عاد عليهم بنتيجة مادية حيث كانوا يظفرون بمعظم وظائف الكنيسة ويتقاضون مرتبات ضخمة منها.

ولكن كيف لم يكن مقر البابوية في روما معوقاً يحول دون ازدهار النهضة بالرغم من أن الكنسية كانت تفرض قيوداً شديدة على حرية الفكر والرأي والتعبير؟! في الواقع أنها تحولت في نهاية العصور الوسطى إلى ما يمكن تسميته "إمارة علمانية" ذات أطماع سياسة واسعة تعتمد

---

(١٤) كان رسام وموسيقياً.

(١٥) مايكل أنجلو (١٤٧٥-١٥٦٤م) واحد من أكثر الرسامين شهرة في التاريخ، وأحد أبرز رواد النهضة الإيطالية. انصبَّ اهتمامه على نحت تماثيل رخامية ضخمة، وإن كانت طاقاته الإبداعية الهائلة قد جعلت منه رسامًا شهيرًا، ومعماريًا بارزًا، وشاعرًا دؤوبًا. وعنه راجع:
Tolnay, Charles de. The Art and Thought of Michelangelo.- New York: Pantheon Books, 1964. (5 vols)

على الغدر والنفاق. وكان البابا وهو رأس الكنيسة المسيحية الغربية له أقاليم يحكمها بواسطة أجهزة حكومية دب فيها الفساد، وله بلاط به موظفين تفوح منه رائحة المجون والفسق. وبالرغم من كل هذا الانحدار الأخلاقي كان الإيطاليون ينظرون له على أنه أمر عادي. فكل ما يهمهم في الأمر بقاء المقر البابوي في روما.

وقد استمرار تدفق الأموال على بلادهم، وكان الباباوات ينفقون بعض هذه الأموال في النهوض بالعلم ونشر المعرفة وإنشاء المكتبات وشراء المخطوطات واقتناء الكتب وإقامة الأكاديميات , بالإضافة إلى جمع الكنوز الفنية وتجميل مدينة روما نفسها. وقد أخذ الباباوات في منافسة الأمراء الإيطاليين في تشجيع الآداب ورعاية الفنون، وكان يطلق على هؤلاء الباباوات في التاريخ الأوربي الحديث اسم"باباوات النهضة" ومن هؤلاء البابا نيقولا الخامس الذي أنشأ مكتبة الفاتيكان(١٦)، والبابا ليو العشر(١٧) Leon X الذي شرع في تشييد كنسية القديس بطرس(١٨) وكان من أسرة مدتشي.

---

(١٦) مكتبة الفاتيكان مكتبة الكنيسة الرومانية الكاثوليكية، ومقرها في مدينة الفاتيكان بروما-إيطاليا. تعد هذه المكتبة واحدة من أهم المكتبات في العالم؛ فهي تضم مقتنيات مهمة ونادرة من المخطوطات والكتب القديمة. وأسسها البابا نيكولاس الخامس، في الفترة بين ١٤٤٧م - ١٤٥٥م لتكون مكتبة للمخطوطات اليدوية. ومازالت مكتبة الفاتيكان مكتبة مخطوطات بالدرجة الأولى، وذلك بالرغم من أنها تحتوي على نحو مليون من الكتب المطبوعة. ويزيد عدد المخطوطات في هذه المكتبة على ٧٠,٠٠٠ مخطوطة ، منها ما يربو على ٣١,٠٠٠ من المخطوطات اللاتينية القديمة النادرة، وذلك بالإضافة إلى ما يقرب من ٤,٠٠٠ مخطوطة إغريقية وشرقية. وجميع مقتنيات هذه المكتبة متاحة للدارسين.

(١٧) ليو العاشر(١٤٧٥-١٥٢١) كان البابا خلال فترة أوج النهضة في روما، ولكنه واجه أيضًا بدايات الإصلاح البروتستانتي. وقد انتُخب ليو للبابوية عام ١٥١٣م، وكان محبًا للذات، ومناصرًا للفنون والآداب. وقد أنفق بسخاء على العلماء ومؤلفي الموسيقى والفنانين مثل مايكل أنجلو ورفائيل.

وُلد ليو في فلورنسا بإيطاليا، وكان اسمه واسم عائلته جيوفاني آل مديتشي، وكان أبوه الزعيم الفلورنسي القوي لورنزو آل مديتشي، وكان يُطلق عليه أيضًا لورنزو العظيم. وخلال عهده دخلت فرنسا وأسبانيا في نزاع طويل للسيادة على إيطاليا. وقد حاول ليو الحفاظ على السلطة الزمنية الدنيوية للبابا، كما حاول الحفاظ على استقلال فلورنسا وعلى زيادة مصالح أسرته. بدأ الإصلاح عام ١٥١٧م غير أن ليو كان مشغولاً بالحياة الثقافية في روما والسياسة الإيطالية، والقوة المتعاظمة للعثمانيين في البحر المتوسط، وبانتخاب إمبراطور روماني مقدس في ألمانيا. وكان بطيئًا في إدراك مدى خطورة التحدي الديني البروتستانتي، وكانت إدانته للزعيم البروتستانتي مارتن لوثر عام ١٥٢٠م متأخرة جدًا لإحداث أي تأثير، وأصبح انشقاق البروتستانت عن روما وضعًا دائمًا.

(١٨) كنيسة القديس بطرس: تعرف بالإيطالية باسم "Basilica di San Pietro"، تصنف ثانية من بين خمسة الكنائس الكبرى في مدينة روما، والفاتيكان. تعد أكبر كنيسة في المسيحية، حيث تغطي مساحة قدرها ٢٣,٠٠٠ متر مربع. وتعتبر أحد أقدس الأماكن المسيحية، حيث كانت موقع دفن القديس بطرس. بدأ بناء الكنيسة في ١٥٠٦ وانتهى في ١٦٢٦.

خصائص النهضة الأوربية

- علمانية لم تنشأ في رحاب الكنيسة.
- اعتمدت على المدن، وأصبحت وحدات سياسية واقتصادية مستقلة.
- تمتع الفرد بشخصية مستقلة وحرية في الرأي والتصرف.
- لم تظهر في جميع أوروبا في وقت واحد بل ظهرت في مدن إيطاليا ثم تسربت إلى بقية غرب أوروبا.

كانت علمانية ليست عن طريق الكنيسة ولكن عـن طريـق المفكـرين فابتعـدت عـن الكنيسـة، كما جـاءت النهضـة بمفـاهيم جديـدة أحـدثت تغـيرات جذريـة، فالبابـا في رومـا قـال أن الأرض مسطحة ولكن ماجلان أثبت أنها كروية.

برزت النهضة في المـدن الإيطاليـة ولـيس في الريـف فالمـدن نجحـت في أن تصـبح وحـدات سياسـية حـرة واعتمـدوا علـى التجـارة والصـناعة وابتعـدوا عـن سـيطرة النـبلاء. كمـا أن المـدن الإيطالية كان بها ثروات سمحـت بشـراء الكتـب والمخطوطـات ورسـم اللوحـات الزيتيـة. وقـد ظهر الفرد الأوربي فنها متمتعاً بشخصية مستقلة له حرية الرأي والتصـرف ولم يعـد ملـزم بطائفـة أو جماعة ينتمي إليها.

الواقع أن؛ النهضة لم تنشأ في أوربا كلها في وقت واحد بل في ايطاليـا ثـم اسـبانيا ثـم فرنسـا، والنهضة بدأت إنسانية وانعكس ذلك على العلـوم، فظهـر البـارود ثـم اخـتراع آلات بحريـة مثـل البوصة والإسطرلاب، وصناعة السفن واكتشاف قـوة البخـار الـذي أدى لسـرعة السـفن، ونشـأة اللغات القومية الحديثة مثل الإيطالية والفرنسية الإنسانية.

ويتبين مما سبق؛ أنه قد نشأ عن حركة النهضة في ايطاليـا[١٩] فـن جديـد وأدب عظـيم، بينمـا نتج عنه في فرنسا فن جديد له مميزاته الخاصة التي تجعله يختلـف عـن فـن ايطاليـا ولكـن الأسـاس فيهما واحد وهو الرجوع إلى القديم ومحاولة محاكاته. أمـا في ألمانيـا فاتجهـت حركـة النهضـة اتجاهـاً علمياً ودينياً، وكانت النهضة في انجلترا في حقيقتها أدبية وقد تبين ذلـك مـن تخليـد أسـم شكسـبير في انجلترا والعالم كله.

(١٩) انتشرت النهضة في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي، مـن إيطاليـا إلى الـبلاد الأخـرى، كفرنسـا وألمانيـا وإنجلـترا وأسبانيا. دخلـت النهضـة إلى تلـك البلاد مع الزائرين الـذي كـانوا يتوافـدون إلى إيطاليـا، مـن التجـار والصـيارفة والدبلوماسيين، وطلاب العلم الشباب خاصة. وقد اكتسـب العلمـاء مـن الإيطـاليين الأدوات الأساسـية للدراسـات الإنسانية، وهي التاريخ وفقه اللغة.

كان لسلسلة الغزوات، التي تعّرضت لها إيطاليا، دور رئيسي في نشر النهضة في أجـزاء أخـرى من أوروبـا. فمنـذ سـنة ١٤٩٤م إلى أوائل القرن السادس عشر الميلادي، هاجمت إيطـاليا، تباعًـا، جيـوشُ فرنسـا وألمـانيا وأسبانيـا. وافـتتن المغيـرون بجمالية الفن والعمارة الإيطاليـة، وعـادوا إلى أوطانهم متأثرين تأثرًا عميقًا بالثقافـة الإيطاليـة.

أثر الثقافة العربية في النهضة الأوربية

في بحثه عن أثر الثقافة الإسلامية في الغرب المسيحي، يقول الكاتب ت. كولريونج (T. C. Young) "إن الدَّين الثقافيَّ العظيم الذي ندين به للإسلام منذ أن كنا نحن المسيحيين، داخل هذه الألف سنة، نُسافر إلى العواصم الإسلامية، وإلى المعلمين المسلمين ندرس عليهم الفنون والعلوم وفلسفة الحياة الإنسانية، يجب التذكيرُ به دائماً. وفي جملة ذلك تراثنا الكلاسيكي الذي قام الإسلام على رعايته خير قيام، حتى استطاعت أوروبا مرةً أخرى، أن تتفهمه وترعاه. كل هذا يجب أن يمازج الروحَ التي نتجه بها ـ نحن المسيحيين ـ نحو الإسلام، نحمل إليه هدايانا الثقافية الروحية، فلنذهب إليه ـ إذن ـ في شعورٍ بالمساواة نؤدّي إليه الدَّين القديم. ولن نتجاوز حدود العدالة إذا نحن أدّينا ما علينا بربحه. ولكننا سنكون مسيحيين حقاً إذا نحن تناسينا شروط التبادل، وأعطينا في حبّ واعتراف بالجميل".

لقد قامت الثقافة العربية الإسلامية بدورها الطليعي خير قيام في بناء النهضة العلمية العالمية، وقد نقل العلماء العرب والمسلمون التراث الإغريقي وغيره من ألوان التراث العلمي الذي تقدّم عليهم في التاريخ، نقلوه إلى اللغة العربية، التي كانت لغة علم وثقافة، وأثر العلماء العرب والمسلمون في النهضة الأوروبية، وكان طابع الثقافة العربية الإسلامية غالباً وواضحاً ومؤثّراً في عديد من المجالات العلمية والفكرية والثقافية، مثل ابتكار نظام الترقيم والصفر والنظام العشري، ونظرية التطور قبل "داروين" بمئات السنين، والدورة الدموية الصغرى قبل "هارفي" بأربعة قرون، والجاذبية والعلاقة بين الثقل والسرعة والمسافة قبل نيوتن بقرون متطاولة، وقياس سرعة الضوء وتقدير زوايا الانعكاس والانكسار، وتقدير محيط الأرض، وتحديد أبعاد الأجرام السماوية، وابتكار الآلات الفلكية، واكتشاف أعالي البحار، ووضع أسس علم الكيمياء.

ويمكن القول إجمالاً؛ إن الثقافة العربية الإسلامية كانت واسطة العقد بين العلوم والثقافات القديمة وبين النهضة الأوروبية؛ فالفكر العربي الإسلامي، والثقافة العربية الإسلامية، سلسلة متّصلة الحلقات، امتدّت من الحضارات القديمة، من مصرية، وآشورية، وبابلية، وصينية، إلى حضارة الإغريق والإسكندرية، إلى العصر الإسلامي الذي تأثّر علماؤه بمن تقدّمهم، وأثّروا بدورهم فيمن لحقهم من علماء النهضة الأوروبية الذين قرؤوا أعمال العلماء العرب في كتبهم المترجمة إلى اللغة اللاتينية واللغات الأوروبية.

لقد حافظت الثقافة العربية الإسلامية على الثقافة اليونانية من الضياع، إذ لولا المثقفون والعلماء العرب، لما وصلت إلى أيدي الناس مؤلفات يونانية كثيرة مفقودة في أصلها اليوناني ومحفوظة بالعربية. ولقد ظلّ الغرب يشتغل على الثقافة العربية حتى بعد أن تقلّص ظلّها في الأندلس بجيلين أو أكثر حتى وصل إلى العصور الحديثة. وظلت الثقافة العربية الإسلامية تستهوي الكثيرين من أبناء العالم الغربي، إذ لم تتوقف الترجمة عن العربية في عصر النهضة وما بعد عصر النهضة، رغم الاتصال المباشر بالعالم اليوناني والحضارة اليونانية اعتباراً من منتصف القرن الثالث عشر للميلاد عندما بدأت الكتب اليونانية تُنقل رأساً إلى اللاتينية من دون الاستعانة بالترجمات العربية. فالثقافة العربية لها قيمتُها وشخصيتها، فقد أنتجت الكثير مما لم تستطع الثقافة اليونانية إنتاجه في الحقول كافّة : إضافات وتعليقات وابتكارات واكتشافات عربية لم يعرفها اليونان.

إن حركة النقل من الثقافة العربية الإسلامية التي خرجت بها أوروبا من عصورها المتوسطة المظلمة إلى عصورها الحديثة المتنورة، لم تقتصر على " نقل" المعارف القديمة من يونانية وهندية وبابلية ومصرية، من كتب باللغة العربية إلى اللغة اللاتينية فحسب. إن أوروبا المسيحية قد "نقلت" أيضاً معارف عربية خالصة، كما نقلت أنماطاً من الحضارة الإسلامية ومن الإيمان الإسلامي إلى حياتها العامة وحياتها الخاصّة. ولو أن الكنيسة الكاثوليكية لم تضع ثقلها إلى جانب الفِرنجة في معركة تُورَ سنة ١١٤هـ (٧٣٢م)، لعمَّت الحضارةُ الإسلامية والثقافةُ العربية الإسلامية في أوروبا منذ ذلك الزمن الباكر، ولوفَّرت الكنيسة الكاثوليكية على العالم نِزاعاً طويلاً وشقاء مريراً.

لقد انتشرت الثقافة العربية الإسلامية في العالم الغربي، ونهل علماء أوروبا من المصادر العربية الأصلية، ووجدوا أنها تراثٌ علميٌّ عظيمٌ، فاشتغلوا بدراسته وتحليله. ولقد كان العرب والمسلمون يمثّلون العلم الحديث بكل معنى الكلمة، كانوا رواداً في المناهج العلمية الحديثة، وقد اكتسب المثقفون والعلماء في أوروبا من الثقافة العربية الإسلامية، أكثر من مجرد المعلومات، إنهم اكتسبوا العقلية العلمية ذاتَها بكل طابعها التجريبي والاستقرائي، بحيث وجد الأوروبيون في التراث العربي الإسلامي وفي الثقافة العربية الإسلامية ضالتهم المنشودة، فعكفوا على نشره.

إن الانبهار بحجم تأثير الثقافة العربية الإسلامية في النهضة الأوروبية، وفي الثقافة والعلوم الأوربيّيْن، جعل مفكرةً عالمةً ألمانيةً تصدع بهذه الحقيقة بقولها: "إن تلك الحضارة الزاهرة التي غمرت بأشعتها أوروبا عدّة قرون، تجعلنا نعجب أشدّ العجب؛ إذ هي لم تكن امتداداً حضارياً لبقايا حضارات غابرة، أو لهياكل حضارية محلية على قدر من الأهمية، أو أخذاً لنمط حضاري

موجود، أو تقليداً يُنسج على منواله المعهود، كما نعرف في الأقطار الأخرى مهد الحضارات في الشرق. إن العرب بثقافتهم هم الذين أبدعوا هذه الروعة الحضارية إبداعاً".

وبينما كانت أوروبا ترتع في غياهب العصور الوسطى، كانت الحضارة الإسلامية - التي هي محضن الثقافة العربية الإسلامية- في أوج ازدهارها، لقد أسهم الإسلام كثيراً في تقدّم العلم والطب والفلسفة. وقال ويل ديورانت Will Durant في كتابه "عصر الإيمان" (The Age of Faith) : "إن المسلمين قد ساهموا مساهمة فعالة في كل المجالات، وكان ابن سينا من أكبر العلماء في الطب، والرازي أعظم الأطباء، والبيروني أعظم الجغرافيين، وابن الهيثم أكبر علماء البصريات، وابن جبير أشهر الكيميائيين". وكان العرب رواداً في التربية والتعليم.(٢٠)



البيروني



ابن سينا



الرازي

(٢٠) الموضوع نقلا عن: بحث للمدير العام للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيكو): الدكتور عبد العزيز بن عثمان التويجري، قدم إلى ندوة "الثقافة العربية والثقافات الأخرى" في إطار المهرجان الوطني للتراث والثقافة في المملكة العربية السعودية، الذي عقد في الرياض في الفترة ما بين ٤ و ١٩ مارس ١٩٩٨م. وراجع أيضاً:

أحمد محمد الأصبحي، مقال بعنوان "تأثير الثقافة العربية وإنجازاتها على الثقافات الأخرى"، صحيفة ٢٦ سبتمبر، الخميس ٢٣ ديسمبر-كانون الأول ٢٠٠٤، العدد ١١٦٧، ص٦. (صحيفة يمنية، أسبوعية، سياسية، عامة). شوقي ضيف، محاضرة بعنوان " تأثير الثقافة العربية في الثقافة الغربية الحديثة"، ألقيت هذه المحاضرة في الجلسة الثانية لمؤتمر مجمع اللغة العربية في دورته الثامنة والستين مساء يوم الاثنين ١١ من المحرم سنة ١٤٢٣هـ الموافق ٢٥ من مارس (آذار) سنة ٢٠٠٢م. مجموعة باحثين، أثر العرب والإسلام في النهضة الأوربية، دراسة بإشراف مركز تبادل القيم الثقافية بالتعاون مع منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (يونسكو).- القاهرة: الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٩٧٠. (٤٦٦ صفحة)

وقال ديورانت في هذا الشأن أيضاً : "عندما تقدّم روجر بيكو Reger Bacon بنظريته في أوروبا بعد ٥٠٠ عام من ابن جبير، قال إنه مَدينٌ بعلمه إلى المغاربة في إسبانيا الذين أخذوا علمهم من المسلمين في الشرق. وعندما ظهر النوابغ والعلماء في عصر النهضة الأوروبية، فإن نبوغهم وتقدّمهم كانا راجعين إلى أنهم وقفوا على أكتاف العمالقة من العالم الإسلامي".[٢١]

---

(٢١) ومن الأهمية بمكان الإشارة إلى؛ هذا الخبر الذي نشر في أبريل ٢٠٠٨ تحت عنوان " أوروبا لا تدين بتطورها للمسلمين"، في صحيفة "لوموند" الفرنسية حول كتاب جاء عنوانه"وماذا لو كانت أوروبا لا تدين بمعارفها إلى الإسلام" للكاتب الفيلسوف سيلفان جوجنهايم، جدلا واسعا في أوساط المثقفين والمؤرخين الفرنسيين. وأوردت صحيفة"الوطن" السعودية أن المؤرخين والمثقفين نددوا بأفكار جوجنهايم الذاهبة إلى أن أوروبا لا تدين بعلومها إلى العالم الإسلامي العربي، بل إنها استقت هذه المعارف مباشرة من الإغريق. وقام حوالي ٤٠ من هؤلاء المؤرخين والمثقفين بتوقيع مقال نشروه في "لوموند" ينددون بأفكار جوجنهايم التي قارنوها بـ"النظريات الأيديولوجية المغرضة".

وقالوا في ردهم: إن فكرة أن أوروبا لا تدين بشيء إلى العالم العربي المسلم، وإنها وريثة مباشرة ووحيدة للعلوم والفلسفة الإغريقية هراء". ويقول المؤرخ المختص بالقرون الوسطى مدير الأبحاث في معهد الدراسات العليا بفرنسا "آلان دي ليبيرا" "إن الكتاب عبارة عن تمرين لقصة خيالية جديدة بـ "هواة الصليبيين" من شأنها أن تطلق "التعبئة الهانتنغتونية" (نسبة إلى هانتنغتون) لصدام الحضارات. وأضاف دي ليبيرا "خطوة أخرى، وسوف نرى المتطرفين والمتعصبين متفقين على القول إن أوروبا المسيحية، التي ستفتقر إلى النفط قريبا، تمتلك دائما الأفكار والعلوم"، ويتابع "كنت أعتقد أننا، وبفضل تبادل المعلومات والوثائق والتحليل والدراسات وبفضل النظرة النقدية نستطيع، نحن المؤرخين والجامعيين وسكان العالم من رجال ونساء، أن ندعي وأن ننهض كما ادعى الفارابي العربي بحقه "بإرث الإنسانية الكبير". ويبين د.فيصل دراج أن الفكرة الأساسية للكتاب المثير للجدل تقول إن أوروبا الحديثة لا تدين في تطورها الحضاري إلى الإسلام في شيء، وأن كل ما قيل عن دور العلوم الإسلامية في النهضة الأوروبية مجرد نسيج طويل العمر من الأخطاء، لا علاقة له بالمعطيات التاريخية الحقيقية، ولا بالقراءة العلمية المتأنّية.

ويدلل الكتاب علي أن الحاضر الأوروبي منفصل الانفصال كله عن الموروث الحضاري الإسلامي، وأن أوروبا المسيحية كانت ستصل إلى ما وصلت إليه اليوم، سواء ظهر الإسلام أم لم يظهر أبداً. ومن براهينه المفترضة أن العلاقة بين أوروبا العصور الوسطى والعالم اليوناني لم تنقطع أبداً، وأن رجال الدين المسيحيين كانوا يعرفون اليونانية، وأن أناجيلهم كانت باليونانية أيضاً، وأن رجال الدين هؤلاء هم الذين استقدموا الإرث اليوناني إلى أوروبا، من دون أن يحتاجوا إلى جهود إسلامية، كثيرة أو قليلة. ويورد المؤلف أربعة براهين على الأقل: أولها أن العلماء المسلمين، بما في ذلك الفارابي والكندي وابن رشد، لم يكونوا يعرفون عن اليونانية شيئاً، وأن ما تُرجم من اليونانية إلى العربية كان أقل من أن يسمح لهم بمعرفة حقيقية للثقافة اليونانية.

وثاني السببين أن المترجمين العرب كانوا مسيحيين، حال حنين بن اسحاق الملقب بـ "أمير المترجمين". أما السبب الثالث فيراه المؤرخ في الفرق بين جذور اللغة العربية وجذور اللغة اللاتينية، مفترضاً أن العقل الإنساني لا يقبل إلا بلغة قريبة منه. والسبب الرابع، فيتمثّل في الفرق الشاسع بين الإسلام والعالم اليوناني، لا بمعنى أن للإسلام منطقاً خاصاً به، وهو أمر طبيعي، بل بمعنى استحالة اللقاء بين الطرفين، ذلك أن الإسلام -كما يرى المؤرخ- لايعترف باستقلال العقل والبحث العلمي والتأمل السياسي، لأنه يُخضع هذه الأمور كلها إلى النص الديني. ومعروف، لدى نسق طويل من المؤرخين، إن أوروبا العصور المظلمة انعزلت عن الثقافة اليونانية، ولم تستأنف علاقتها بها إلا عن طريق العالم الإسلامي الذي استقبل الموروث اليوناني وحفظه من الضياع، وأعاده إلى أوروبا.

الخبر نقلاً عن: شبكة الإعلام العربية، بتاريخ ٢٦ أبريل ٢٠٠٨ (http://www.moheet.com/show_news.aspx)

حضارة العرب في صقلية وأثرها في النهضة الأوربية

ترجع صلة العرب بصقلية إلى عهد معاوية بن أبي سفيان، فقد أرسل إليها سميّه معاوية بن خديج الكندي، فكان أول عربي غزاها، ثم لم تزل تغزى حتى فتحها الأغالبة، وكان معاوية بن أبي سفيان، كما قال البلاذري، يغزو براً وبحراً، وهو أول من أسس أسطولاً إسلامياً، ووجه إلى صقلية أيضاً عبد الله بن قيس بن مخلد الدزقي فأصاب منها أصنام ذهب وفضة مكللة بالجواهر، ووجه بها معاوية إلى البصرة ثم إلى الهند لتباع هناك، وأغزى جنادة بن أمية الأزدي أيضاً جزيرة رودس ففتحها، وأقام المسلمون بها سبع سنين في حصن اتخذوه لهم. وقد استرد يزيد بن معاوية جيش المسلمين وعادت الجزيرة الكبرى صقلية وما حولها إلى الحكومة البيزنطية. وكان من حسنات معاوية أنه أقام في الجزر التي فتحها جاليات إسلامية، وبنى فيها مساجد، وترك مقرئين يعلمون ويقرئون القرآن، هذا مع أن فتوحه كانت جزئية.

وتوقفت غزوات المسلمين البحرية بعد معاوية، وشغلت الدولة بحروب داخلية مدة كبيرة، ولما هدأت الأحوال بها لم يكن غزوها البحري نشيطاً، وكانت نهاية موسى بن نصير نهاية له وللإسلام وللدولة الإسلامية، ولكن البحريين من المسلمين في الشرق وفي إسبانيا ناوشوا جزر البحر الأبيض وشواطئ أوروبا، ولم تأت أعمالهم بفتوح ذات قيمة تاريخية ولكنهم لفتوا أنظار هذه البلاد إلى قوة العرب.

أما فتح صقلية؛ فكان قد مضى على صقلية ثلاث قرون وهي تحت حكم الدولة البيزنطية، وكانت سنين عجافاً سادها الفقر الفكري، وترتب على سيادة الجهل وجمود الأذهان: تفرق بين السكان، فكان كبار الملاك والتجار يتبادلون المكايد وينشطون في دس الدسائس وبث أسباب العداء، وكان من بين هؤلاء الكبار في المال والصغار في النفس رجل يدى إيو فيموس (Euphemius) وكان مغيظاً من حاكم الجزيرة، فرأى الانتقام منه أن يستعين بالأمير الأغلبي الثالث، وهو زيادة الله، في غزو الجزيرة والقضاء على الحكم البيزنطي كله. وتردد الأمير الأغلبي في بادئ الأمر في غزو بلد مهادن له، وكان على رأسه القاضيان المسنان: ابن الفرات وأبو محرز. وكان ابن الفرات متحمساً لهذا الغزو مستدلاً بالآية القرآنية: {فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ}.

وكان ابن الفرات فقيهاً مالكياً طالت رحلته وتنقلاته في الشرق، وتلقى الفقه المالكي والحنفي، وجعل من مدونتي مالك وابن القاسم وآرائه الخاصة مدونة فقهية باسمه، وكان أيضاً محارباً شجاعاً، ورأى زيادة الله أن يجعله على رأس هذه الحملة، ويظهر أن إخلاصه في الجهاد أضفى على الجيش كله روح التضحية وحب الاستشهاد. ووصل الجمع إلى ميناء مزارا التي في

جنوب الجزيرة، فألقى ابن الفرات فيهم خطبة لم تشر إلى شيء من الحرب والغنائم كما فعل طارق بن زياد عندما نزل جيشه بأرض الأندلس[٢٢]، بل حثهم فقط على التقوى وتحصيل العلوم.

استهل خطبته بالشهادة، وأقسم لجيشه أنه ما كان من آبائه من ولي جيشاً، ثم قال: (فأجهدوا أنفسكم، وأتعبوا أبدانكم في طلب العلم وتدوينه، وكاثروا عليه واصبروا على شدته، فإنكم تنالون به خيري الدنيا والآخرة..) والخطبة بوجه عام توحي بالزهد، وتؤذن بأن الدنيا تخضع لذوي العلم والدين. لم يكن فتح هذه الجزيرة هيناً ولا سريعاً، مع أن الحملة كان بها سبعون سفينة عليها عشرة آلاف مقاتل، وسبعمائة فرس، ولكنها اعتمدت على الحصار، وشقت طريقها إلى باليرمو Palermo، فاتخذها عاصمة، وهي في مستعمرة فينيقية، فجعلوها قاعدة حربية توجه منها الحملات، وأخذت الجزيرة تسقط تدريجياً في أيديهم، ولم يتم فتحها نهائياً إلا في العهد الفاطمي.

صارت صقلية بعد فتحها إمارة أغلبية، يتولى أمرها وال من قبلهم، وكان الأغالبة في نزاع ومناوشات مستمرة مع الدولة الفاطمية[٢٣] التي نشأت بالمغرب، وتريد الزحف نحو الشرق، وكان هناك أقوى بين المذهبين السني والشيعي، وكان ذلك ينعكس على جزيرة صقلية، وكان بين سكانها نزاع بين العرب والبربر من قبل.

ونوجز القول فنقول: إن الفاطميين تغلبوا على بني الأغلب في إفريقية، وحلوا محلهم في مستهل القرن الحادي عشر الميلادي، ثم انتزعوا منهم صقلية، وهي على انقسامها وتفرقها، فاضطروا إلى إعمال الشدة، فشهدت الجزيرة أياماً قاسية سوداً، حتى عين الخليفة المنصور الفاطمي الحسنَ بن علي بن أبي الحسن والياً عليها، فبدأ عهداً جديداً عرف بعهد الكلبيين، والذي امتد قرناً من الزمان، كانت الدولة فيه كلبية فعلاً وإن لم تنقطع عن الفاطميين، ولم يدم هذا العهد طويلاً، ولسنا بسبيل الأسباب التفصيلية لسقوط الكلبيين، غير أن نهاية عهدهم كانت بداية فوضى واضطراب، وتقسمت الجزيرة الصغيرة إلى دويلات وأشتات قبائل وأحزاب، وعادوا جميعاً بعد الإسلام كفاراً يضرب بعضهم رقاب بعضهم. وكان بين رؤوسهم رجل يدعى ابن الثمنة ففعل فعلة أيو فيميوس وطلب تدخل النورمانديين، فوجدوا الجزيرة

---

(٢٢) أنظر: محمود شاكر، مقال بعنوان" المنطلق الأساسي في التاريخ الإسلامي"، خطبة طارق بن زياد، الفسطاط: المجلة التاريخية، متاح بتاريخ ٨ يناير ٢٠٠٩، على الرابط: (http://www.fustat.com/I_hist/muntalaq.shtml)

(٢٣) أنظر: عبد الرحمن كيلاني، مقال بعنوان " لمحة تاريخية عن الدولة العبيدية"، الفسطاط: المجلة التاريخية، متاح بتاريخ ٨ يناير ٢٠٠٩، على الرابط: (http://www.fustat.com/I_hist/ubaidiyah.shtml)

فريسة سهلة، فاستولوا عليها وضموها إلى جنوب إيطاليا، وبذا انتهى العهد الإسلامي في هذه الجزيرة بعد قرنين ونصف قرن أو ما يزيد عن ذلك ببضعة عشر عاماً.

وكان موقف المسلمين في صقلية كموقف المسلمين في إسبانيا، إذ ترقبوا نجدة من الدول الإسلامية، وعلى الأخص بني زيري الذين خلفوا الفاطميين على غرب إفريقية، ولكن لم يمد أحد لهم يد المساعدة، فاضطروا إلى التسليم والاستسلام.

أما بالنسبة لأثر الفتح الإسلامي لصقلية؛ فقد دخل النورمانديون صقلية فأدهشهم ما نقلها المسلمون إليه من رقي وحضارة. لقد بذلوا جهداً في ترقيتها في كل جوانب الحياة حتى بدا الفرق بينها وبين الدول التابعة لبيزنطة بعيداً جداً، شيدوا مبانٍ عظيمة، ونشطوا وسائل التجارة، وعملوا على استصلاح الأراضي وزرعها، وأدخلوا أنواعاً من النباتات ومن الحيوانات لم يكن للأوروبيين بها عهد ولا علم، إلى جانب ذلك كله وجدوا فنوناً راقية وأدباً عالياً، وعديداً من المساجد بها حلقات التعليم، تبدأ بتعليم الكتابة العربية والقرآن الكريم، وتنتهي بدراسات عليا في علوم كثيرة دينية وغير دينية. وهكذا تقدم ورقي في كل شيء. إن الفرق واسع جداً بين ما وجد العرب صقلية عليه بعد خروج البيزنطيين، وبين ما وجدها عليه النورمانديين بعد خروج المسلمين.

كان النورمانديين على حظ من الذكاء، وقد عرفوا به من قبل، لهذا لم يفعلوا بآثار المسلمين ما فعل بها الإسبان. فهناك –وهذا بعد تنصير صقلية بزمن بطويل– أفتى القسس بأن المسلمين رجس وآثارهم نجس لا يطهره إلا إحراقه بالنار، حتى الجدران أفتوا بهدمها وإحراقها، وبهذا تأخرت حضارة إسبانيا ثمانية قرون حقاً، أما هؤلاء فرأوا الإبقاء والمحافظة على حضارة العرب، وحاكوهم واستفادوا من كل ما تركوا إلا الدين الإسلامي، فقد كانت عداوة الإسلام، وعلى الأصح، كانت الصورة التي قرّت في أذهانهم عنه مما يصعب محوه، ولكن حضارة صقلية ظلت في تقدم لمدة طويلة بعد، وظلت مظاهر الحياة العربية بادية عليها، ولو تقبل النورمانديون الإسلام واتخذوه ديناً لكان عهد هذا الازدهار الحضاري أطول زمناً وأبقى.

العهد العربي النورماندي؛ أطلق على هذا العهد اسم "العهد العربي النورماندي" ذلك لأن مظاهر الحياة العربية ظلت بادية على كل شيء فيه حتى على حياة الملوك والحكام، وحتى على كنائس النصارى ومنازلهم، وعلى نسائهم وأطفالهم، واستمر ذلك كله أكثر من قرن ونصف القرن، وحقق ذلك ما قيل من أن المسلمين انتصروا في ميدان العلم والحضارة حين هزموا في ميادين الحرب والأعمال العسكرية.

وقبل أن نوضح جوانب هذا الانتصار، نشعر بسؤال تعجبي يبدوا أمامنا يضطرنا أن نوضح إجابة أولاً: كيف حقق المسلمون ذلك كله وعهدهم كان مليئاً بالنزاع والخلافات المذهبية والعنصرية؟ وقد حكموا مدة لم تكمل ثلاثة قرون بثلاثة أنواع من الحكومات، أو على وجه الدقة بأربعة، وكانت كل حكومة تخالف الأخرى وكل واحدة لها أتباع يتعصبون لها ضد الآخرين؟

هناك أمران جديران بملاحظة كل مؤرخ أو باحث في تاريخ صقلية:

الأمر الأول: أن هذه الجزيرة فتحت باسم الدين الإسلامي، وأول وصاية من أول قائد كانت تدعو إلى العلم وتحصيله، وظل حكامها المختلفون المتنازعون يعملون على التوسع في بناء المساجد وتشجيع الدعوة الإسلامية بمعناها الواسع الكبير، فلم يكن ثمة عائق للحركة العلمية واستمرار الآداب والفنون في ازدهارها، ولم يملوا الإقامة في صقلية إلا في الأيام الأخيرة، وقبيل الغزو النورماندي.

والأمر الثاني: أن المسلمين دخلوا هذه الجزيرة وهم في أوج ازدهارهم ورقيهم الحضاري، وكان المشارقة قد ترجموا من علوم الأمم الأخرى، ودرسوا وابتكروا شيئاً كثيراً، فكانت البلاد الأوروبية التي دخلها المسلمون تتلقى ثماراً ناضجة وعلوماً قد آتت أكلها في جوانب الفكر والحضارة، ولم تكن صقلية منقطعة عن الشرق، كما لم تكن إسبانيا منقطعة، بل كانت رحلات الحج وطلب العلم ولقاء العلماء مما يغذي تيارات الثقافة بها، فظل النشاط الثقافي والحضاري بها مستمراً متجدداً.

وقد أعطانا ابن حوقل الذي زار باليرمو في عهد الكلبيين صورة عما شاهده فيها من كثرة المساجد، فقال:(إنها كانت نيفاً وثلاثمائة مسجداً، وإنه عد في مساجد السنيين ستة وثلاثين صفاً، في كل صف نحو مائتي شخص، وكان بمدارسها العمومية ثلاثمائة مدرس، كانوا يمتازون بالصلاح والتقوى، ومن أعظم الناس رقياً وحسن مظهر). كما ذكر: أنه كان بجوار مسجد الشيخ القفصي – الفقيه المالكي– فرأى على مقدار رمية سهم نحو عشرة مساجد يدركها بصره، وبعضها في مقابلة الآخر لا يفصلها إلا عرض الطريق، وعلم أن القوم لتباهيهم وتفاخرهم كان كل واحد يحب أن يكون له مسجد باسمه، وربما كان أخوان دورهما متلاصقة، ولكل واحد منهما مسجده الخاص به»، وكثرة المساجد استلزمت كثرة الدراسة وسعة التعليم مما جعل بعض الباحثين يؤكد أن صقلية الإسلامية لم يكن فيها شخص أمي لا يقرأ ولا يكتب أو يحفظ حظاً من القرآن، وهذا سر ما نجده من كثرة العلماء وما نقرؤه من أسماء من ينتسبون إلى صقلية.

النورمانديون أنصار الثقافة العربية، فقد ورث النورمانديون هذه الحضارة فلم يسعهم إلا الخضوع لها والاقتباس منها، وبرز بين الحكام أنصار الثقافة العربية "روجر الأول" فاتح الجزيرة، وابنه "روجر الثاني"، وسماهما ابن خلدون في تاريخه باسم "روجار"، والملك "فريدريك الثاني ووليم الثاني".

لم يكن روجر الأول مثقفاً ولكن كان ذا تسامح، ورأى أن يستفيد من المسلمين في كل شيء وجده، فكان في جيشه عدد من المسلمين يكون غالبيته، وكان حوله من المسلمين فلاسفة وأطباء، وكان بلاطه بلاط ملك شرقي، وكان كثير من كبار موظفيه مسلمين. وكان روجر الثاني يلبس ملابس المسلمين، ويطرز رداءه بحروف عربية، وكانت هذه ظاهرة شائعة، ولكن خصومه وصفوه بأنه نصف وثني، يعنون نصف مسلم! وجرى حفيده وليم الثاني على نهج أسلافه، ولكن أسمى ازدهار للحضارة العربية كان أثناء حكم روجر الثاني.

كان الإدريسي، صاحب كتاب "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" يعيش في بلاطه ويحظى برعايته وتشجيعه، وقد سمى كتابه هذا باسم (الروجري). والإدريسي من مشهوري الجغرافيين والرسامين للخرائط، ولا ينافسه أحد في هذا الميدان خلال العصور الوسطى كلها. وقد صنع لروجر كرة سماوية وخريطة للدنيا على شكل كرة، وكلاهما من الفضة.

قام روجر الثاني ببناء كنيسة في باليرمو وزخرفَ سقفها بنقوش كوفيه. وكانت النساء النصرانيات يلبسن الملابس الإسلامية، وكان الصناع العرب والزراع العرب والملاحون العرب يقومون بكل الأعمال التي تتطلبها حال الدولة، ولم يكن عجيباً بعد هذا أن يفد رواد الدراسة الإستشراقية من أوروبا إلى صقلية، وأن تتبوأ هذه الجزيرة زعامة البحر الأبيض، وكل ذلك بفضل العرب فلاسفة وعلماء وعمالاً.

أما فريدريك الثاني – حفيد روجر الثاني – فكان أبرز وأعجب ملوك صقلية. كان وريث عرش ألمانيا من قبل أمه، ووارث الملك في صقلية من قبل أبيه وعن طريق زواجه من الأميرة إيزابيلا ولية عهد أبيها في ملك بيت المقدس – تلك المملكة التي نشأت أثناء الحروب الصليبية- صار أيضاً ملك بيت المقدس، ثم هو شأن النورمانديين جميعاً إمبراطور لإيطاليا، وكان يسمى إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة. وقد شارك في الحروب الصليبية بغية الحكم والسيادة، ولكن اختلاطه بالمسلمين في الشرق جعله يوليهم تقديراً واحتراماً أكثر، وجعلت العادات والمظاهر الشرقية تتأصل فيه وفي دولته.

كان بعد حلمته الصليبية الفاشلة على صلة بخلفاء صلاح الدين، وكان هو والملك الكامل محمد يتبادلان الهدايا، ولم تخل سيرته من غرابة، أهمها: أنه كانت يجمع بين الأعمال الجادة

النافعة والأعمال اللاهية التي لا طائل وراءها غير الأبهة والتباهي. كان في بلاطه عدد من الفلاسفة وفدوا من الشرق، وكانوا ذوي لحى طويلة وملابس فضفاضة، وكان الناس يحاكونهم في زيهم وسائر مظاهر حياتهم، وكان في بيته راقصات يهوديات من الشرق، وكان له مجموعة من الحيوانات النادرة ومن الطيور، وكان كلفاً بها حتى إنه يصطحبها في تنقلاته في أوروبا وحين يرحل من صقلية إلى ألمانيا.

ولكن هذا اللهو لم يخل من وجهة نظر علمية، فقد أحضر من سورية مدربين للصقور التي لديه، ولكنه قام بتجربة علمية إذ ذاك، وهي تغطيته أعين الصقور بغطاء محكم ليرى مدى اهتدائها بحاسة الشم، وكان يقرأ الفلسفة والرياضة والفلك، ولما صادفته مرة مسائل معضلة فيها ولم يستطع حلها، أرسلها إلى السلطان الكامل الأيوبي طالباً للحل أو معجزاً لعلمائه، ولكن بعض العلماء المصريين حلها حلاً شافياً، وأضيف هذا إلى ما أخذ الغرب عن الشرق. وطلب مرة أخرى علماء مصريين ليجربوا تجارب على بيض النعام كي يمكن تفريخه وفقسه على حرارة الشمس، وترجمت له كتب عربية وفارسية في تدريب الصقور، وأخرج هو نفسه كتاباً عنها، كما ترجمت له كتب أرسطو عن الحيوان والنبات، وشروح ابن سينا عليها. وهكذا كان هذا الملك جاداً في لهوه، ولم يكن يعبث فيما يعمل ولا يجعل عمله لمجرد الإمتاع.[٢٤]

كان عصر هذا الإمبراطور يمثل فجر النهضة الأدبية في إيطاليا، وهي بداية النهضة الأوروبية كلها. وكنا نود من هذا الملك الحصيف بعد ما رأى من ثمار التسامح مع المسلمين ألا يحدث منه اضطهاد ينغصهم وينغص سيرته، ولكنه لم يستطع التخلص من التيارات التي كانت تعاصره، ولا من سيطرة الروح الصليبية عليه.

ومهما يكن من أمر صقلية فإنها أسهمت بحظ وافر في نقل العلوم الشرقية إلى الغرب وكانت مركز ترجمة نشيطة، وبحكم موقعها وتاريخها كانت ملتقى أجناس ولغات، وسادت فيها اللغات الحية إذ ذاك الواسعة الانتشار، اليونانية واللاتينية والعربية، وكانت بها يهود مترجمون أيضاً على نحو ما كان في طليطلة. وفي صقلية ترجم المجسطي من اليونانية إلى اللاتينية مباشرة،

(٢٤) كان فردريك على حد تعبير المؤرخ البريطاني ستيفن رانسيمان "يمتلك قدراً عالياً من الفكر والثقافة الواسعة، يعرف ست لغات هي الفرنسية والألمانية والإيطالية واللاتينية واليونانية والعربية. جمع أصول المعرفة في الفنون وصاحب مدرسة في فن النحت.. شاعراً ودبلوماسياً.. ومهندساً معمارياً". لهذا كله لم يكن غريباً أن يحظى فردريك الثاني بلقب "محير العالم" أو "أعجوبة الدنيا" Stupor Mundi الذي أطلقه عليه معاصروه، تعبيراً عن هذه الصفات المتعددة التي اجتمعت في شخصه. راجع:
أشرف صالح محمد سيد، قراءة في تاريخ وحضارة أوربا العصور الوسطى. – الطبعة الالكترونية الأولى . – بيروت: شركة الكتاب الإلكتروني العربي، ٢٠٠٨. ص ٧٧ ، (سلسة المؤرخ الصغير؛ ٤).

وترجم في الأندلس من العربية. وفيها ترجم كتاب البصريات الذي كان بطليموس أخرجه في الإسكندرية، وفيها ترجمت كتب أدبية أخرى. وتوج فريدريك الثاني أعماله الجميلة بتأسيسه جامعة نابل في إيطاليا الجنوبية وأودعها مجموعة كبيرة من كتبه الخاصة، ودرست فيها مؤلفات ابن رشد، وهذا عمل له قيمته، لأن أوروبا عادت فلسفة ابن رشد مدة طويلة، وقيمة جامعة نابل أنها أول جامعة رسمية، وكانت الجامعات الأخرى إلى ما بعد ذلك العهد جامعات أهلية تابعة للأديرة والكنائس، وكانت تقوم على التبرعات والهبات، أما جامعة نابل فقد نشأت ملكية مشمولة برعاية إمبراطور عالم، واستعارت منها بعض الجامعات الأخرى، وعلى الأخص جامعة باريس ما لديها من التراجم التي أمر بها فريدريك، ومن الذين تخرجوا في هذه الجامعة توما الإكويني، وأثره معروف في نشر الفلسفة والثقافة الشرقية في أوروبا.

ويكفي صقلية، وهي جزيرة صغيرة بجانب إسبانيا الواسعة، أن تكون قد أسهمت في نقل الحضارة الشرقية إلى الغرب، وأن يكون لها نصيب غير خفي في إيقاظ أوروبا العصر الوسيط من سباتها العميق، وأن تكون برزخاً في نقل جزء كبير من حضارة الشرق إلى الغرب.

هذا، وأخبار صقلية مبعثرة في مصادر كثيرة عربية، بعضها يكمل بعضاً، أو يوضح ويفصل ما أجمله الآخر، وقد جمع المستشرق الصقلي ميكي أماري أخبارها مستوفاة في مجموعة أسماها "تاريخ مسلمي صقلية"، ويقوم على درس هذه الحقبة من تاريخ هذه الجزيرة الآن الأستاذ أمبرتو ريزيتانو، وتنبئ كتابته وكتابة أماري عن المجهود الجبار الذي بذله كل منهما في قراءة الموسوعات العربية حتى خرجا بهذه المعلومات الدقيقة القيمة، وكل منهما أنصف المسلمين وأنصف أعمالهم النافعة، وما أخذاه على المسلمين نشاركهم أيضاً في مؤاخذتهما به، أخذا عليهم تفرقهم وميلهم إلى الأثرة، وحبهم مصالح أنفسهم أكثر من مصالح أوطانهم، وأخذا عليهم كما أخذ مستشرقون منصفون أنهم بعدوا بسرعة عما لهم القرآن وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو أنهم بوجه عام خالفوا الإسلام الذي بنى نهضتهم وحضارتهم، فسلبوا العزة التي جاءت بسببه، وهو كلام أولى أن يقوله المسلمون.[٢٥]

---

(٢٥) الموضوع نقلاً عن: مقال للدكتور عبد الجليل شلبي بعنوان "حضارة العرب في صقلية وأثرها في النهضة الأوروبية " منشور بمجلة الأمة، العدد ٢٧، ربيع الأول ١٤٠٣هـ ، ومتاح بالفسطاط: المجلة التاريخية بتاريخ ٨ يناير ٢٠٠٩، على الرابط: (http://www.fustat.com/I_hist/sicily.shtml).

تلمّس ابن خلدون للنهضة الأوربية

يعد ابن خلدون (١٣٤٢-١٤٠٦) بمقدمته ومتن تاريخه، مؤرخاً للحضارة وواضعاً لأسس ما يمكن تسميته بعلم الاجتماع البشري، إذ كان موضوعه «العمران البشري والاجتماع الإنساني، وبيان ما يلحقه من العوارض». وقد لخص ابن خلدون، الذي عاش حتى مشارف القرن الخامس عشر، الوجهة الإدراكية العربية عن أوروبا، منطلقاً من النظرة التخيلية العربية نحو أوروبا، التي كرسها الجغرافيون المسلمون، وقسمت المعمور من الأرض إلى سبعة أقاليم، يقع العالم العربي- الإسلامي في موقع المتوسط فيها، أي في الإقليمين الثالث والرابع، ووضع الأمم الأوروبية في الأقاليم التي تشتد فيها البرودة تدريجاً كلما أوغلنا شمالاً، من الإقليم الخامس إلى السادس إلى أن تبلغ أشدها في الإقليم السابع، وتتضاءل بالتالي الشروط الجغرافية – البيئية المساعدة على نشوء العمران والحضارة.

وفي المقابل فكلما أوغلنا جنوباً إلى الإقليم الثاني فالأول ازدادت الحرارة وتضاءلت بالتالي فرص العمران، فهو يقول: «ولما كان الجانبان من الشمال والجنوب متضادين في الحر والبرد، وجب أن تتدرج الكيفية من كليهما إلى الوسط، فيكون معتدلاً. فالإقليم الرابع أعدل العمران من كليهما، والذي حافتاه من الثالث والخامس أقرب إلى الاعتدال، ويليهما الثاني والسادس البعيدان من الاعتدال، والأول والسابع أبعد بكثير.

فلهذا كانت العلوم والصنائع والمباني والملابس والأقوات، والفواكه، بل والحيوانات، وكل ما يتكون في هذه الأقاليم الثلاثة المتوسطة مخصوصة بالاعتدال. وسكانها من البشر أعدل أجساماً وألواناً، وأخلاقاً وأدياناً، حتى النبوءات (= من النبوة) توجد في الأكثر فيها، ولم نقف على خير بعثة (نبوة) في الأقاليم الجنوبية والشمالية».أما أهل الأقاليم المتوسطة فهم «أهل المغرب والشام والحجاز واليمن والعراقين والهند والسند والصين، وكذلك الأندلس ومن قرب منهم من الفرنجة والجلالقة والروم واليونان، ومن كان مع هؤلاء أو قريباً منهم في هذه الأقاليم المعتدلة».

فالبلاد الأوروبية القريبة من الأقاليم المعتدلة ينشأ فيها العمران، وتتوطد معالم الحضارة، وتظهر الديانات الموحى بها، وهو بهذا ينظر إلى انتشار المسيحية في البلاد الأوروبية: الروم، اليونان، الجلالقة، الفرنجة، كأحد معالم الحضارة والعمران.أما الأقاليم الموغلة شمالاً وجنوباً كالأول والثاني، والسادس والسابع «فأهلها أبعد من الاعتدال في جميع الأحوال» ولا يدينون بشريعة سماوية «إلا من قرب منهم من الاعتدال، وهو في الأقل النادر، مثل من دان بالنصرانية

من أمم الصقالبة والإفرنجة والترك من الشمال، فيضع ابن خلدون انتشار المسيحية في بلاد الشمال: الصقالبة، الترك، الإفرنجة، كإحدى علائم العمران والحضارة».

واستمراراً لخط المسعودي، وصاعد الأندلسي، يتفحص ابن خلدون تاريخ الروم واليونان والإفرنجة وتطور أحوالهم، وعملية انتقال المسيحية من فلسطين، بيت المقدس إليهم، وما واجهه المسيحيون الأوائل من اضطهاد من قياصرة الروم، إلى أن انتصرت على يد قسطنطين، ثم توسع الإمبراطورية الرومانية، وانقسامات الكنيسة، ثم نهوض العرب المسلمين وتوسعهم على حساب الروم، ثم انقلاب الزمان عليهم وعودة القوة إلى بلاد الشمال الفرنجية.

فيقدم صورة تبجيلية لتاريخ اليونانيين، والروم اللاتين. أما اللطينيون فهم «أمة أشهر أمم العالم» والملوك القياصرة الروم «من أعظم ملوك العالم وأشهرهم»، كانوا أولاً «على دين المجوسية ثم بعد ظهور الحواريين نشروا دين النصرانية في أرضهم». وبعد أن يتحدث عن بعث المسيح، وعن مصيره، وتشتت الحواريين، يقول: «وكان بطرس كبيرهم فنزل برومة دار ملك القياصرة، ثم كتبوا الإنجيل الذي أنزل على عيسى صلوات الله عليه، في نسخ أربع على اختلاف رواياتهم»، ويشير إلى اختلاف هذه النسخ الأربع وإلى «أنها ليست كلها وحياً صرفاً، بل مشوبة بكلام عيسى عليه السلام وبكلام الحواريين، وكلها مواعظ، وقصص، والأحكام بها قليلة جداً».

ثم يتحدث عن مآل المسيحية في روما، واضطهاد القياصرة لها في البداية، إلى أن اعتنقها قسطنطين، ويذكرنا بالخلافات المذهبية المسيحية، وعن مجمع (نيقية)، وعن المراتب الكنسية، فيقول: «وكان صاحب هذا الدين المقيم لمراسيمه يسمونه البطريرك، وهو رئيس الملة عندهم، وخليفة المسيح فيهم» فيختلط عنده مفهوم البابوية بمركز الخلافة في الإسلام.

ويذكر انقسام المسيحية إلى الملكية واليعقوبية والنسطورية، وأن كل فئة اختصت ببطرك «فبطريرك روما اليوم المسمى بالبابا على رأي الملكية... واختص اسم البابا ببطريرك روما لهذا العهد»، ويلفتنا إلى بروز الإمبراطورية الرومانية المقدسة، وإلى أن «من مذاهب البابا عند الإفرنجة أنه يحضهم على الانقياد إلى ملك واحد يرجعون إليه في اختلافهم واجتماعهم، تحرجاً من اختلاف الكلمة... ويسمونه الانبرذور (الإمبراطور)...». كما سجل ابن خلدون تنامي قوة الإفرنجة من خلال توسعهم ومحاولتهم الاستيلاء على بيت المقدس، وتراجع موقع العرب، إذ يقول: «وضعف ملك العرب فاستفحل الإفرنجة ورجعت لهم، واسترجعوا ما ملكه المسلمون إلا قليلاً بسيف البحر الرومي. واستولوا على جزائر البحر كله... ثم سموا إلى ملك الشام وبيت المقدس».

ولا يتوقف ابن خلدون عند الملاحظة الخارجية لتنامي قوة (الإفرنجة)، إلاّ ليذكر قارئه بأن تنامي تلك القوة لم يأت بالصدفة، فإضافة إلى تراجع قوة العرب، فإن «أمم النصرانية عدة البحر الرومي أقوم الناس عليها لأنها أعرق في العمران الحضري، وأبعد عن البدو وعمرانه...».

ويتابع القول: «إن أمم النصرانية... استكثرت فيها الصنائع واستجلبتها الأمم من عندهم». إلا أن ما يلفت هو إشارة ابن خلدون النابهة إلى بروز مظاهر النهضة الأوروبية، متمثلة برواج التفكير الفلسفي بين ظهرانيها.

فابن خلدون ينطلق من قاعدة تقول: «إن رسوخ الصنائع في الأمصار إنما هو برسوخ الحضارة وطول أمدها»، لأن استمرار العمران يجعله من العوائد، والتي «ترسخ بكثرة التكرار وطول الأمد فتستحكم صبغة ذلك وترسخ»، بل إن هذه الأمم حتى لو تناقض عمرانها «بقيت فيه آثار من هذه الصنائع ليست في غيرها من الأمصار».



ابن خلدون

إلا أن ما تميز به ابن خلدون عن معاصريه من المؤلفين العرب هو إشارته الواضحة إلى بروز مظاهر النهضة الأوروبية، متمثلة برواج التفكير الفلسفي بين ظهرانيها، فهو يحدثنا بعبارة قصيرة ولكنها معبرة عن نهضة الحياة الثقافية في بلاد الإفرنج، حيث يقول: «وبلغنا لهذا العهد، أن هذه العلوم الفلسفية ببلاد الإفرنج من أرض روما وما إليها من العُدوَةِ الشمالية نافقة (= منتشرة) الأسواق، وأن رسومها هناك متجددة، ومجالس تعليمها متعددة، ودواوينها جامعة ومتوافرة، وطلبتها متكثرة، والله أعلم بما هنالك».(٢٦)

(٢٦) الموضوع نقلاً عن: شمس الدين الكيلاني، مقال بعنوان" تلمّس ابن خلدون للنهضة الأوروبية"، موقع مرافىء: خاص بالمجلس العراقي للسلم والتضامن، صفحة دراسات في المجتمع المدني، متاح بتاريخ ديسمبر ٢٠٠٢، على الرابط: (http://www.marafea.org/paper.php?source=akbar&mlf=copy&sid=17677)

أثر الإسراء والمعراج في النهضة الأوربية

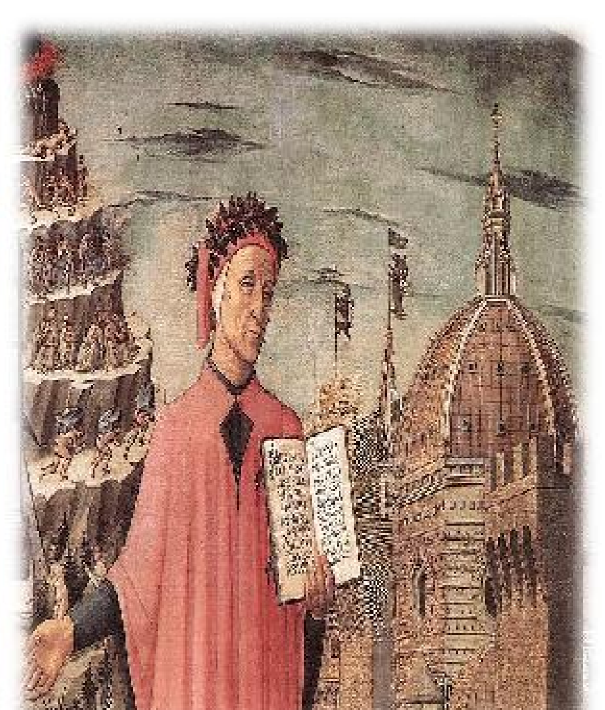
النهضة الأوروبية أو ما يسمى بالرنيسانس التي حصلت في أوروبا بين القرن الرابع عشر والقرن السادس عشر تحولت أوروبا بموجبها من عصر التخلف والعبودية إلى عصر الحرية والمنطق العلمي، فأوروبا قبل النهضة كانت تعيش في عصر القرون الوسطى، وهي مدة مظلمة كان كل شيء بيد الكنيسة والإنسان كان قناً في إقطاعيات الأمراء يباع ويشترى كالحيوانات لا يحق له التفكير أو الاعتراض أو التعبير عن ذاته، حيث أن الكنيسة كانت مرتبطة بالإقطاع ولا يوجد تعليم سوى التعليم الكنائسي، حيث درس الأفكار الساذجة والخرافية وما تقوله الكنيسة حق مقدس يجب إتباعه، وللخلاص من هذا الواقع الحالك السواد كان يعني قيام ثورات فكرية واجتماعية وسياسية ودينية وثقافية كي يتحول الإنسان من حاله السيئة إلى المتخلفة الجامدة إلى حال آخر.

وهذا ما حصل فعلاً في عصر النهضة، فقد حصل الإصلاح الديني على يد مارتن لوثر وكارفن، وحصلت الثورة الاجتماعية على يد الحركة الإنسانية وحصلت الثورة الاقتصادية على يد آدم سمث في الانتقال من عصر الإقطاع إلى عصر الرأسمالية. إذن حصلت ثورات كثيرة عصفت بالمجتمع الأوروبي لمدة ثلاثة قرون وحولت هذه المجتمعات إلى مجتمعات حرة التفكير، حرة الاقتصاد، وحرة الانتماء، ولكن كل هذه التطورات التي حصلت في أوروبا في عصر النهضة ارتكزت على القضاء على مفهوم واحد أو على مرتكز كان الأساس في تخلف وتأخر أوروبا، ألا وهو الخضوع المطلق التام والمقدس لكل ما تقوله الكنيسة أو يقوله البابا، فلم يكن يجرؤ احد على قول يتناقض مع ما تقوله الكنيسة، وإلا سيقتل أو يحرق، ولهذا أصبحت مهمة محاربة سيطرة الكنيسة والبابا تعد البداية الحقيقية لعصر النهضة.

فقد كان دانتي اثقف مثقفي عصره ليس في ايطاليا فقط بل أوروبا كلها، وتجمعت في عقلية هذا المثقف معاناة وضغوط كل الأجيال الأوروبية الطامحة للتغيير، وعبر عن هذه الطموحات من خلال رواية الكوميديا الإلهية، وهي قصة مكونة من ثلاثة أجزاء يذهب فيها دانتي باحثاً عن حبيبته باتريس بورتناري التي ماتت في عمر السادسة عشرة، لذلك ألف القصة وكأنه يتخيل ذهابه إلى العالم الآخر بحثاً عنها، فينتقل من النار إلى الأعراف ثم إلى الجنة، وأثناء تجواله في النار بحثاً عنها يصادف هناك كثير من الباباوات ورجال الكنيسة، ثم ينتقل إلى الأعراف بحثاً عنها ثم يجدها أخيراً في الجنة، وتنتهي القصة بهذه النهاية السعيدة هو لقاؤه بحبيبته باتريس بورتناري، ولذلك سميت هذه القصة بالكوميديا، والكوميديا كلمة تعني الأغنية أو القصة التي تنتهي نهاية سعيدة، وليست كما هو معروف الآن بأنها الضحك والتهريج، والتراجيديا هي كل قصة أو أغنية تنتهي نهاية حزينة.

وبما انه التقى بحبيبته أخيراً فكانت هي كوميديا، ولكن كلمة الإلهية أضيفت إلى القصة بعد سنوات من وفاة دانتي والذي وضعها هم طلاب ومحبو دانتي لأن القصة تجري في جو الهي مقدس ويجهر بذلك هؤلاء الناس في زمن لا يجرؤ احد أن يتلفظ بكلمة بابا، ولهذا كانت قصة دانتي هذه الشرارة الأولى التي حفزت عقول وقلوب الناس لشق عصا الطاعة والخنوع للكنيسة وحفز الناس للتفكير في آراء جديدة مغايرة لما تقوله خرافات الكنيسة والتي نضجت فيما بعد لحصول الإصلاح الديني والاقتصادي والاجتماعي والسياسي.

ولكن الأوروبيين كانوا يتصورون سابقاً أن هذه القصة هي من بنات أفكار دانتي ويرفضون أي حديث على تأثر دانتي في هذه القصة بقصة الإسراء والمعراج للرسول محمد "صلى الله عليه وسلم"، حتى جاء أحد المثقفين الفرنسيين والذي يدعى بلوشيه وكتب مقاله في إحدى المجلات الأدبية وضع فيها تأثر دانتي بقصة الإسراء والمعراج، وقد قامت أوروبا ولم تقعد احتجاجاً على رأي بلوشيه فصدرت الكثير من الكتب والمقالات التي تفند رأي بلوشيه، فالبعض قال أن الإسراء والمعراج كانت مكتوبة بالعربية ولم تترجم في زمن دانتي، ودانتي لا يعرف العربية، ولم بزر البلاد العربية ولم يلتق بمسلم، فكيف تأثر بهذه القصة؟!






Dante Alighieri

ولكن في عام ١٩١٩ جاء احد المثقفين الأسبان وكتب رسالة دكتوراه في جامعة مدريد أكد فيها هذا الكاتب الذي يدعى "آسيوس بلاسيوس" أن دانتي قد تأثر بالإسراء والمعراج، حيث اثبت بلاسيوس أن دانتي كان قد تتلمذ على يد أستاذ فلورنسي ايطالي كان مثقفاً وكان سفيراً لفلورنسا في البلاط الاسباني، وهناك جمعا كثيراً من الكتب عن الحضارة العربية في الأندلس عندما كان العرب موجودين في الأندلس في القرن الرابع عشر. فقد تُرجم كتاب ابن عربي "فتوحات مكية"[٢٧] إلى اللغة اللاتينية والفرنسية، وفي هذا الكتاب فصل خاص عن الإسراء والمعراج، فعندما عاد السفير الفلورنسي إلى فلورنسا حمل معه الترجمة اللاتينية والايطالية لهذا الكتاب، وكان دانتي قد قرأ كل كتب أستاذه الفلورنسي التي جلبها من الأندلس.[٢٨]

(٢٧) يعتبر هذا الكتاب من أهم نصوص التصوف الإسلامي، كما يعد مؤلفه الشيخ محيى الدين ابن العربي (توفي سنة ٦٣٨ هـ) من أكبر شخصياته ، بل يمكن عده من أكبر شخصيات التصوف بصفة عامة. بدأ ابن العربي تأليف الكتاب لأول مرة بمكة وهو يحج سنة ٥٩٨ هـ ، وأكمله بدمشق سنة ٦٢٩ هـ ، ثم أعاد كتابته مرة أخرى في الفترة بين سنة ٦٣٢ هـ إلى ٦٣٦ هـ ، مضيفا تارة ، ومختصرا أخرى ، ومحيلا ثالثة على النسخة الأولى.

يحتوي الكتاب على أكثر من ٤٠٠٠ صفحة قال فيها الشيخ كنت نويت الحج والعمرة فلما وصلت أم القرى أقام الله في خاطري أن اعرف الولي يفنون من المعارف حصلتها في غيبتي وكان الأغلب هذه منها ما فتح الله على ثم طوافى بيته المكرم وقال في الباب الثامن والأربعين واعلم أن ترتيب أبواب الفتوحات لم يكن عن اختيار ولا عن نظر المذوق وانما الحق الله يملى لنا على لسان ملك الإلهام جميع ما نسطره وقد نذكر كلاما بين كلامين لا تعلق له بما قبله ولا بما بعده وذلك شبيه بقوله الله حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى بين آيات طلاق ونكاح وعدة ووفاة وقال واعلم أن جميع ما أتكلم فيه في مجالسي وتصانيفى إنما هو من حضرة القرآن وخزائنه فاني أعطيت مفاتيح الفهم فيه والإمداد منه. وفي أوله مقدمة في فهرسة ذكر فيه خمسمائة وستين بابا والباب التاسع والخمسون وخمسمائة منه باب عظيم جمع فيه أسرار الفتوحات كلها وجد بخطه في آخر الفتوحات من هذا الباب في شهر بنو سنة تسع وعشرين وستمائة. أنظر: موقع كتاب "الفتوحات المكية"على الرابط:

(http://www.onetradition.org/Home.aspx)

(٢٨) الموضوع نقلاً عن مقال للدكتور علي النشمي منشور بجريدة الصباح، أنظر:

علي النشمي، مقال بعنوان "أثر الإسراء والمعراج في النهضة الأوربية"، جريدة الصباح: يومية – سياسية – عامة، (تصدر عن شبكة الإعلام العراقي) متاح بتاريخ ٢٠ أبريل ٢٠٠٩، على الرابط:

(http://www.alsabaah.com/paper.php?source=akbar&mlf=interpage&sid=3175)

وخلاصة القول في أثـر الثقافـة العربيـة في النهضـة الأوربيـة أن؛ العلمـاء العـرب في العصـر الإسلامي قاموا بدورهم في بناء النهضة العلمية العالمية، وقدموا لأوربا زاد نهضـتها، وكـانوا كمـا قال البنديت جواهر لال نهرو في كتابه "لمحات من تاريخ العالم" :" كانوا بحـق آبـاء العلـم الحـديث، وأن بغداد تفوقت على كل العواصم الأوربية – عدا قرطبة – عاصمة أسـبانيا العربيـة، وأنـه كـان لا بد من وجود: ابن الهيثم، وابن سينا، والخـوارزمي، والبيرونـي، لكـي يظهـر: جـاليليو، وكبلـر، وكوبرينق، ونيوتن".[٢٩]

(٢٩) أحمـد علـي المـلا، أثـر العلمـاء المسـلمين في الحضـارة الأوربيـة. – الطبعـة الثانيـة . – مشـق: دار الفكـر، ١٩٨١. ص ١١٥ – ١١٦.

وعن تاريخ العلوم عند العرب منذ بدء النهضة العلمية في أواخر القـرن الثـاني للـهجرة حتـى أواخـر القـرن الثـامن للهجرة، في رحلة عبر العصور عن الشخصيات المشهورة، التي قام علـى جهودهـا الصـرح العلمـي الشـامخ، الـذي أضاءت أنواره العتمة التي كانت تغطي الأذهان في حقول الطب والصـيدلية والكيميـاء والفيزيـاء والحيـل والموسـيقى والرياضيات والفلك والاجتماع، وغير ذلك مما كان لعلماء العرب فيه دور الريادة. راجع:

موقع علماء العرب والمسلمين، على الرابط: (http://muslimscience.8m.com/main.htm)



مظاهر النهضة في إيطاليا – فرنسا - إنجلترا

النهضة بمفهومها الخاص هي حركة إحياء التراث القديم ، أما بمعناها الواسع فهي عبارة عن ذلك التطور القديم في كل من الفنون والآداب والعلوم ، وطرق التعبير ، و الدراسات ، وما صاحب ذلك من تغير في أسس الحياة الاجتماعية و الاقتصادية والدينية والسياسية. عصر النهضة مصطلح يطلق على فترة الانتقال من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة وهي القرون ١٤ -١٦ ويؤرخ لها بسقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣ م حيث نزح العلماء إلى إيطاليا حاملين معهم تراث الإغريق و الرومان . كما يدل مصطلح عصر النهضة على التيارات الثقافية و الفكرية التي بدأت في البلاد الإيطالية في القرن الرابع عشر ، حيث بلغت أوج ازدهارها في القرنين الخامس عشر و السادس عشر ، ومن إيطاليا انتشرت النهضة إلى فرنسا و إسبانيا و ألمانيا و هولندا و انجلترا وإلى سائر أوروبا. كانت من أولى مظاهر النهضة بعث الدراسات الإغريقية واللاتينية ، وإنشاء مؤسسات علمية مثل الأكاديميات والمكتبات ترعى هذه الدراسات ، والاهتمام بدراسة علم الآثار والتاريخ ، ثم النهوض من الفنون الجميلة من نحت وتصوير و غيرهما ، وظهور مخترعات جديدة لتكون في خدمة الإنسان وكان على رأسها الطباعة ، وقد ساعدت على دعم الدراسات الإغريقية واللاتينية ونشرها ، واستكشاف البارود وما نجم عنه من ثورة في النظم الحربية ، والاهتداء إلى عدة آلات نافعة مثل الإسطرلاب والبوصلة أو الإبرة المغناطيسية والدفة المتحركة وغيرها من أدوات كان لها الفضل الأكبر في توسيع نطاق الملاحة وتسهيل سبل البعوث الكشفية الجغرافية ، ونشأة اللغات القومية الحديثة في كثير من دول أوربا مثل اللغة الايطالية واللغة الفرنسية واللغة الاسبانية ، وانتشار المؤلفات بهذه اللغات. ومن مظاهر النهضة أيضاً التغيرات العميقة التي حدثت في المجتمع الأوربي وبخاصةً المجتمع الايطالي من تقديس الجمال والتمتع بملذات الحياة والارتفاع بمركز المرأة والانغماس في حياة المجون والفسق. كما كان من أهم مظاهر النهضة حركة الكشوف الجغرافية وما أسفرت عنه من كشف العالم الجديد وأصقاع أخرى من العالم وتنظيم طرق ملاحية جديدة عبر المحيطات والبحار.

مظاهر النهضة في: إيطاليا– فرنسا – إنجلترا

مظاهر النهضة الأوربية – مظاهر النهضة الإيطالية: [فن التصوير – فن النحت – فن العمارة] – أسلوب النهضة الإيطالية في فلورنسا – مظاهر النهضة في فرنسا: توقف النمو الثقافي في فرنسا – الاتصال بين فرنسا وإيطاليا – الدراسات الكلاسيكية وانتشارها. مظاهر النهضة في إنجلترا – نتائج النهضة الأوربية: أثر النهضة في الأوضاع السياسية في أوربا – تحطيم الحواجز الطائفية – ظهور نظريات سياسية جديدة – نتائج أخرى للنهضة – تراث عصر النهضة.

إن النهضة الأوربية بدأت أولاً في شبه الجزيرة الايطالية فلذلك كانت إيطاليا أسبق الدول الأوروبية في النهضة التي تمثلت في عدة مظاهر هي: إحياء الدراسات القديمة والتي يطلق عليها الحركة الإنسانية L'Humanisme (جمع المخطوطات الإغريقية واللاتينية)، وظهور اللغات الأوربية الحديثة، ودراسة علم الآثار والتاريخ، وإنشاء الأكاديميات والمكتبات، ثم النهوض بالفنون الجميلة من نحت وتصوير وعمارة، وأيضاً ظهرت مخترعات حديثة مثل الطباعة واستكشاف البارود. وكان من خصائص هذه النهضة أنها لم تُنقل إلى البلاد الأوربية إلا بعد أن اكتملت، ثم تسربت لسائر البلاد في غرب أوروبا.

حركة إحياء الدراسات القديمة

يطلق على هذه الحركة الفكرية اسم الدراسات الإنسانية أو الحركة الإنسانية وهي تشكل عنصرين أساسيين هما: الدراسات الإغريقية والدراسات اللاتينية، ولم تكن هذه الدراسات حركة شعبية كما أنها لم تنبثق من داخل الجامعات، بل ظهرت خارجها. وكان هذا الوضع أمراً طبيعياً لأن الجامعات كانت توجه معظم اهتمامها إلى دراسة العلوم العملية وبخاصة الطب والقانون. وقد ظلت الجامعات حقبة طويلة معادية للدراسات الإنسانية، واعتمدت هذه الدراسات على التشجيع المادي والأدبي الذي أضفاه حكام المدن الايطالية على المشتغلين بها.

وقد استهوت الدراسات الإغريقية واللاتينية أفئدة الكثيرين من الأوربيين في ذلك الوقت واعتقدوا أنها أروع وأرقى وأجمل ما يمكن أن تنجه عقول البشر، وأن الفرد لا يمكن أن يتبوأ مكانا عليا في المجتمع ما لم يكن على حظ موفور من هذه الدراسات. ولعل هذا الاهتمام العميق بإحياء الدراسات الإغريقية واللاتينية هو السبب الذي جعل فريقاً من الباحثين يطلقون خطأً

على النهضة اسم حركة "إحياء العلوم" والواقع أن حركة إحياء العلوم لم تكن إلا مظهراً من مظاهر النهضة الأوربية.

قامت هذه الحركة على دراسة المخطوطات القديمة، وكانت الكاتدرائيات والكنائس والأديرة تزخر بعدد وافر من هذه المخطوطات، وكانت على نوعين: المخطوطات الإغريقية والمخطوطات اللاتينية. وقد نشط البحث أولاً عن المخطوطات اللاتينية في شبه الجزيرة الإيطالية وفي سويسرا والولايات الألمانية وغيرها من بقاه أوربا. وقامت الأسرات الحاكمة في المدن الإيطالية بتمويل عمليات البحث عن المخطوطات وشرائها حتى أصبحت هذه الظاهرة سمة بارزة مشتركة بين حكومات المدن الإيطالية انقلبت إلى منافسة حادة بينهما.

أما المخطوطات الإغريقية فقد اتجهت الأنظار بشأنها إلى القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية، ونشأت تجارة واسعة نشطة للمخطوطات، وكانت القسطنطينية قبل سقوطها في يد الأتراك العثمانيين مركز هذه التجارة، وكان يقصدها عملاء من حكومات المدن الإيطالية يقتنون المخطوطات الإغريقية أو دارسون من قبل هذه الحكومات يدرسون اللغة الإغريقية في القسطنطينية ويجمعون أثناء دراستهم عدداً وافراً من المخطوطات، وعن طريق العملاء والدارسين معاً انتقلت مجموعات ضخمة من المخطوطات الإغريقية إلى مدن شبه الجزيرة الايطالية.

وتأسيساً على هذه الوقائع الثابتة تاريخياً يتضح خطأ الرأي الشائع بين جمهرة كبيرة من الباحثين وهو أن فتح الأتراك العثمانيين للقسطنطينية ١٤٥٣ أدى إلى ظهور حركة إحياء الدراسات الإغريقية في شبه الجزيرة الإيطالية بسبب هجرة عدد ضخم من العلماء البيزنطيين من وجه الأتراك العثمانيين والتجائهم إلى إيطاليا حيث استقر بهم المقام وباشروا نشاطاً علمياً واسعاً. والحق أن هذه الحركة – إحياء الدراسات الإغريقية – قد ظهرت في إيطاليا قبل سقوط القسطنطينية بخمسين سنة على الأقل، حيث جذبت طلائع الحركة الفكرية عدداً كبيراً من العلماء البيزنطيين في مطلع القرن الخامس عشر إلى إيطاليا حيث طاب لهم المقام في مدنها لما كان يغمرهم به حكام هذه المدن من رعاية أدبية ومادية. وعلى ذلك فإن سقوط القسطنطينية في يد الأتراك العثمانيين لم يكن السبب الرئيسي في ظهور حركة إحياء الدراسات الإغريقية في شبه الجزيرة الايطالية، بل يمكن القول أن هذا الحادث الحربي لم يكن سوى عامل ساعد على ازدهار هذه الحركة.(١)

(١) جاد طه، محاضرات في تاريخ أوربا الحديث. – الطبعة الأولى. – القاهرة: كلية الآداب – جامعة عين شمس، ١٩٩٧. ص ١٧ – ١٨ ، (غير منشورة)

ومن الحقائق الثابتة أيضاً أنه حدث قبل سقوط القسطنطينية تقارب فكري بين الدولة البيزنطية وبين المدن الإيطالية التي اشتهر حكامها بتشجيع العلوم والفنون والآداب. وتم تبادل الزيارات العلمية بين الجانبين فقام عدد من الدارسين الايطاليين بزيارة القسطنطينية للتخصص في دراسة اللغة الإغريقية على يدر كبار أساتذتها، وكانت العاصمة البيزنطية معقل الدراسات الإغريقية ذات المستوى الرفيع.

وفي نفس الوقت الذي بُذلت فيه الجهود لإحياء الدراسات الإغريقية، كانت حركة إحياء الدراسات اللاتينية تسير هي الأخرى قدماً نحو الازدهار، وكان وراءها عامل هام يدفع بها خطوات واسعة ويميزها عن الدراسات الإغريقية، فقد كان الإيطاليون ينظرون إلى اللغة اللاتينية على أنها لغة الحضارة الرومانية، بها سطرت صفحات المجد والخلود، ولما كانوا يعتبرون أنفسهم حفدة الرومان وورثة حضاراتهم، فقد جاشت في نفوسهم عاطفة وطنية تشابكت وتداخلت مع رغبتهم في الإقبال على الدراسات اللاتينية.


Francesco Petrarca

كان من وراء هذه الدراسات عالم إيطالي هو بترارك Pétrarque (١٣٠٤ – ١٣٤٧) انصرف إلى دراسة اللغة اللاتينية حتى سيطر عليها سيطرة تامة وأجاد الكتابة هبا على نمط الأسلوب اللاتيني القديم، وقد توفر على جمع المخطوطات اللاتينية والنقوش ثم عمل جاهداً على نشر الدراسات الإنسانية وتشجيعها وتنشيطها حتى أطلق عليه "والد الإنسانية" ونجح في تكوين مدرسة فكرية تنتمي إليه وتتكون من مثقفين متحمسين للدراسات الإنسانية.(٢)

(٢) لمزيد من التفاصيل عن فرانسيسكو بترارك راجع:
Bernard Guillemain, Les papes d'Avignon (1309-1376), Éd. du Cerf, Paris, 2000, in *Les papes et la culture*, p. 115.
Pierre de Nolhac , Petrarque et l'humanism, available in 15 April 2009 at: (http://jhir.library.jhu.edu/handle/1774.2/181)

الطباعة

كانت الطباعة خير معين للدراسات الإنسانية على الذيوع والانتشار، فهي أهم اختراع ظهر في عصر النهضة، وإذا كان جوهانس جوتنبرج Johannes Gutenberg (١٣٩٥ – ١٤٦٨)[٣] قد أدخل على الطباعة تحسينات كثيرة قفزت بها إلى الأمام خطوات واسعة، فسرعان ما تلقفها الإيطاليون وأدخلوها بحروف معدنية إلى بلادهم سنة ١٤٦٥، وكانوا في هذا المضمار أسبق من الفرنسيين الذين جاءوا بها إلى باريس سنة ١٤٧٠ ومن الإنجليز سنة ١٥٧٧ وأهل السويد عام ١٤٨٣ والأسبان عام ١٤٩٩.

وفي عصر النهضة كُشف الورق وكان النجاح في صنعه هو الذي مكن الطباعة من أداء رسالتها. وثمة ملاحظة هامة؛ أن صاحب المطبعة كان يجمع بين إلمامه التام بفن الطباعة وبين العلم الغزير والثقافة الواسعة، وكان إخراج الكتب جميلاً ومتقناً ورائعاً، وكما يقول هربرت فيشر "استطاع السيد البندقي وهو ينساب بجندوله في القناة الكبرى أن يتمتع بهوميروس في مجلد صغير أوضح ما يكون طباعةً".

---

(٣) ولد جوتنبرج في ماينتس بألمانيا، وكان واحدًا من أفراد عائلة جنسفليخ الأرستقراطية. وقد استخدم اسم أسرة أمه. ولربما يكون قد تعلم المهارات الأساسية في الأشغال المعدنية من عم له كان معلمًا في دار سك العملة. وكانت ماينتس، في ذلك الوقت مركزًا للصياغ وتجار الجوهرات. وبما أنه كان أرستقراطيًا، فإن جوتنبرج لم يقض فترة تدريب منتظمة. وبسبب انشغال أسرته في النزاعات السياسية المحلية، فإن جوتنبرج قضى عددًا من السنوات في المنفى في ستراسبورج واستمر في تجاربه هناك لتطوير فكرته الثورية حول القالب الصناعي، وأصبح القالب واحدًا من الآلات الدقيقة الأولى. وكان من الممكن صف الحروف في تشكيل من السطور المتساوية، وبعد ذلك يمكن قفل بعضها ببعض بإحكام تحت ضغط أداة تثبيت الأحرف المنضدة ضمن طوقها الحديدي، بغرض تكوين وحدة طباعية. ويمكن وضع عدد من الصفحات المحتوية على آلاف من قطع الحروف على المطبعة ورفعها منها. وبعد الطباعة يمكن فرز الحروف، واستخدامها مرة أخرى لتنفيذ صفحات أخرى. واستخدم جوتنبرج الحبر لمطبعته من مواد كانت معروفة عند الرسامين الفلمنكيين الأوائل.

وقبل زمن جوتنبرج بوقت طويل كان الصينيون والكوريون يطبعون النص والصور المحفورة على كتل خشبية، ولقد اخترعوا حتى النوع المتحرك المصنوع من الخزف الصيني والمعدن، ولكن لغتهم كانت معقدة وكانت تحتاج لأشكال مختلفة متعددة لدرجة أنهم لم يتمكنوا من الاستفادة العملية من الطريقة. وظلت الفكرة مفقودة إلى أن طبقها جوتنبرج بنجاح على الحروف الهجائية. وكان آخرون يكافحون لحل المشكلة. وكان واحد منهم على الأقل وهو عامل طباعة هولندي، قد قطع شوطًا على طريق التوصل إلى الطباعة الناجحة لكن جوتنبرج وزميليه جوهانس فست وبيتر سشوفر حسنوها. ويوضح كتابهم المقدس ذو الاثنين والأربعين سطرًا المعروف بكتاب مزرين المقدس وكتاب جوتنبرج المقدس أن رواد الطباعة هؤلاء أتقنوا كل التفاصيل الفنية. أنظر:

Wallau, Heinrich. "Johann Gutenberg." The Catholic Encyclopedia. Vol. 7. New York: Robert Appleton Company, 1910. 18 Apr. 2009 (http://www.newadvent.org/cathen/07090a.htm)

ظهور اللغات الأوربية الحديثة

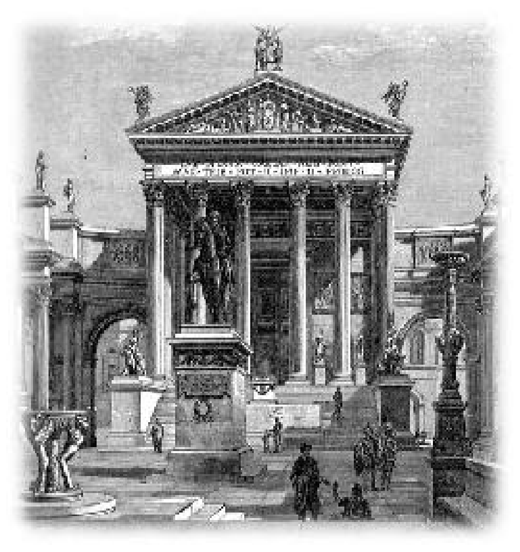
كانت اللغة اللاتينية هي لغة العلم والكتابة في العصور الوسطى دون بها العلماء ثمرات قرائحهم، ثم تضاءل استخدامها حتى أصبحت مقصورة على رجال الكنيسة، فقد عمد بعض الكتاب والأدباء المتحررين من قيود العصور الوسطى إلى الكتابة بلغة شعوبهم، فنشأت في شبه الجزيرة الإيطالية وفرنسا وأسبانيا لهجات مستقلة تعتمد على الأصل اللاتيني. وظهرت في شمال أوربا لهجات أخرى ترجع إلى أصل تيوتوني (سكان جرمانيا الشمالية)، وعمد علماء كل لغة إلى نحت كلمات وعبارات جديدة والارتقاء بمستواها حتى أصبحت هذه اللغات الوليدة صالحة لتدوين العلوم والآداب بها، وأصبح الاهتمام بهذه اللغات القومية مظهراً من مظاهر النزعة القومية وعاملاً هاماً على نشر الأفكار الجديدة التي أتت بها النهضة.

الآثار

شهد عصر النهضة اهتماماً كبيراً بالمحافظة على الآثار الرومانية وتقديراً عميقاً لقيمتها الفنية، وكان كثير من هذه الآثار قد تعرض للتلف والضياع بسبب عبث النبلاء وغيرهم من طبقات الشعب بها في العصور الوسطى، إذ كانوا ينزعون الرخام والأعمدة وغير ذلك من بعض الآثار، واستعملوا بعض المخلفات الرومانية كأنها ملك خاص لهم.

فلما جاء عصر النهضة أفاق الناس للقيمة الفنية الرائعة لهذه الآثار واعتبروها صفحة مجد وفخار، وأنطلق العلماء ينقبون عن الآثار وبدأت دراسة علمية منظمة للآثار الرومانية تجلت في ظهور عدد من المؤلفات والموسوعات تناولت تاريخ الآثار الرومانية وتخطيط روما القديمة وعادات الرومان القدماء.


Ancient Rome - The Appian


Ancient Rome - Temple of Pallas

علم التاريخ

ظفر علم التاريخ بعناية فائقة من رجال النهضة في شبه الجزيرة الإيطالية، وبدأت الدراسات التاريخية تستقى مادتها العلمية من مصادر لا يرقى إليها الشك بعد أن كان المؤرخون يعتمدون على السماع أو أقوال الرواة، وتطورت مناهج البحث التاريخي وظهرت مدرسة جديدة في النقد التاريخي كان من أهم مظاهرها البحث الذي وضعه أحد الإيطاليين، وهو لورنزو فالا عن هبة قسطنطين Donation de Constantin وهي وثيقة استند إليها الباباوات في العصور الوسطى في صراعهم مع الأباطرة حول حقهم في السلطة الزمنية.(٤)

وقد خلص هذا البحث إلى نتيجة هامة هي أن الوثيقة مزورة، وبذلك تتهاوى جميع إدعاءات الباباوات وتصير إلى هباء. وجاء في أعقاب هذا البحث حادث له دلالته، وهو أن البابا نيقولا الخامس – وكان يتبوأ كرسي البابوية وقتذاك – أعجب بالبحث وأبدى تقديره لمؤلفه فعينه موظفاً في الحكومة البابوية، فكان هذا التعيين دليلاً على أن البابوية أصبحت نصيرة لحركة الدراسات الإنسانية.

وقد تكونت مدرسة تاريخية في فلورنسا أخرجت عديداً من الكتب في موضوعات شتى، وكان لهذه الأبحاث طابع مميز، هو حرية الرأي وحرية التعبير وعدم التقيد بالموضوعات الدينية والتحرر من التقاليد البالية والبعد عن الخرافات والتزام الموضوعية مما جعل هذه البحوث باكورة طيبة للدراسات التاريخية الحديثة.

---

(٤) قسطنطين هو حاكم الغرب ثم الشرق، ففي عام ٣١٣م عندما انتصر على خصمه ماكسينتيوس في الغرب واشتد به المرض العضال وفشل أطبائه في علاجه، نصحه البعض بأن يستدعي بابا روما سلفستر ليباركه، وبالفعل حضر البابا وباركه وشُفى من المرض، وكافئ قسطنطين البابا فتنازل له عن حكم النصف الغربي أي روما والولايات، وأتى هو للشرق ووضع عاصمته الجديدة القسطنطينية.

الواقع أن؛ النظرية كانت نكسة للبابوية أكثر منها تدعيم، لأن قسطنطين لا يملك الإمبراطورية لكي يتنازل عنها لشخص آخر فهو يحكم ولا يملك، فمسألة التنازل غير شرعية – إذا كانت تمت بالفعل كما تقول الرواية – فالإمبراطورية ليست إقطاع ومن لا يملك "قسطنطين" منح من لا يستحق "البابا"، أضف إلى ذلك أن البابا ليس له سلطاناً سياسياً بل روحياً. وخلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد، اكتشفت البابوية أن الإمبراطور هو الذي منح البابا حكم الغرب ومن حقه أن يجرد البابا من هذا الحكم، فمن يمنح هو الأعلى والإمبراطور هو السيد المانح، ولذلك أسقطت البابوية هذه النظرية التي كانت أول النظريات التي تمارس النفوذ السياسي على الأباطرة.

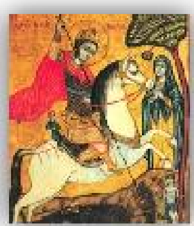
أنظر: أشرف صالح، قراءة في تاريخ وحضارة أوربا العصور الوسطى.- ص ٥٥ – ٥٦. ولمزيد من التفاصيل:

رأفت عبد الحميد،"السمو البابوي بين النظرية والتطبيق"، بحث منشور في مجلة ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط، المجلد الثالث، القاهرة ١٩٨٥. رأفت عبد الحميد ،الفكر السياسي الأوربي في العصور الوسطى.- الطبعة الأولى.- القاهرة: دار قباء للطباعة والنشر ٢٠٠١.

مظاهر النهضة الإيطالية

الفنون الجميلة هي الميدان الذي نبغ فيه الإيطاليون وقاموا بإحياء الفنون التي كانت مزدهرة في العصور القديمة، وأيضاً نقبوا عن جمال الآثار القديمة وعملوا على محاكاتها. وهم أصحاب الفضل الأول في بعث الدراسات الأدبية القديمة ونشأة الدراسات الأدبية الحديثة، وابتكار الفن الحديث. وبعد أن كانت الفنون تتجه لخدمة الكنيسة والأغراض الدينية، وذلك يتبين في العصور الوسطى في رسم صور الشهداء والقديسين (المسيحية الجامدة)، فأصبحت الفنون لها الروح العلمانية ومهتمة بالمناظر الطبيعية وبجمال الوجه البشري وسائر أجزاء الجسم، كما ارتفعوا بمستوى الفنون الجميلة إلى درجات الكمال وخاصةً في فني التصوير والنحت.




فن التصوير

وهو الفن الأول لعصر النهضة في شبه الجزيرة الايطالية، فقد تميزت الفنون بالتحرر من قيود الروح الدينية فأخرجوا صوراً تنبض بالحياة واستخدموا الأصباغ الزيتية، وكان لكل مدينة مدرستها الخاصة في فن التصوير، وبرزت بوجه خاص مدينة البندقية وفلورنسا، ولكن البندقية تميزت بروح علمانية بعيدة عن تقاليد الكنسية، أما فلورنسا فقد تأثرت إلى حد ما بالروح الدينية.

وقد برع رفائي Raphael Sanzio (١٤٨٣ – ١٥٢٠) في فن التصوير وخلف أثار فنية رائعة، ويتمثل بعض منها في صورة عن أسرة المسيح عليه السلام وسر العشاء الرباني[٥].

(٥) العشاء الرباني عبارة عن (قطع من الخبز وكأس من الخمر) ويعتقد الفرد عند أكله لهذا الخبز أنه يتحول إلى لحم المسيح وإن كان مذاقه خبزاً ، وأن كأس الخمر تتحول إلى دم المسيح وإن كان مذاقها خمراً، وهذا العشاء ليس له وقت محدد فيؤكل يوم الفصح ويؤكل في أوقات أخرى ولكنه يؤكل في الكنيسة ولذلك" يجب تبليغ الناس قبل موعده بأسبوعين "وطائفة البروتستانت لا تقبل بالقول بتحول الخبز والخمر إلى لحم ودم المسيح وإنما تجعله رمزاً لما حل بالمسيح u وذكرى لصلبه من أجل البشر .وقد روى متّى أن عيسى (عليه السلام) كسر خبزاً وأعطى تلاميذه وقال:" خذوا. كلوا، هذا هو جسدي"، وأخذ الكأس وشكر و أعطاهم قائلاً: اشربوا منها كلكم؛ لأن هذا هو دمي الذي للعهد الجديد يسفك من أجل كثيرين لمغفرة الخطايا" متّى (٢٦/ ٢٦ –٢٨). أنظر:
سعود بن عبد العزيز الخلف، دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية.– الطبعة الأولى.– الرياض: مكتبة أضواء السلف، ١٩٩٧. ص ٢٧٠.



ومع بداية القرن الخامس عشر كانت ثمّة محاولات ترمي إلى تجاوز محاكاة الأشخاص في تصوير البورتريهات إلى ما هو أبعد من أن يجتزئ الفنان بتسجيل السمات الشبيهة والرؤوس النمطية الدالة على أشخاصها، إلى إبراز الأمزجة المختلفة التي تفيض بها وجوه أصحابها عند تصويرها، وما يبدو على الوجه من انفعالات عارضة، وابتسامات غير متكلّفة تعكس بحق ما يجيش في النفس لحظتها.



جيرلانديو. العشاء الرباني. متحف أوفتزي

مشهد "العشاء الرباني" خلال القرن الخامس عشر لوحة المصور جيرلانديو التي يرجع تاريخها إلى عام ١٤٨٠، أي قبل لوحة ليوناردو بخمسة عشر عاماً. وتحمل هذه اللوحة جميع عناصر التكوين الفني النمطية القديمة التي لم تغب عن نظر ليوناردو وهو يصوّر لوحته.

أما ليونـارد دي فنشـي Léonard de Vinci (١٤٥٢ – ١٥١٩)؛ فقـد أشـتهر بنشـاطه في فروع شـتى مـن العلـوم والفنـون، كمـا اشـتغل بدراسـة تشـريح الأجسـام البشـرية والحيوانـات والنباتات ولكنه تفوق في فن التصوير[٦]، ومن أشهر صوره الجيوكونـدا وهـي لسـيدة إيطاليـة مـن مواليد نابلي تدعى موناليزا واستطاع أن يرسم لها صورة استغرقت أربع سنوات وأخـرج معجـزة فنية خالدة: مفاتن سيدة وديعة حسناء مثالية، حُرمت مـن متـاع الحيـاة الزوجيـة وهـي مازالـت في ربيع عمرهـا. جلسـت في الصـورة في مكانـاً موحشـا بـين لصـخور وحيـدة، ومياه الغـدير تشـق الصخور وتنساب في الوادي السحيق إلى عالم مجهول كرمز لما يكتنف حياتهـا مـن غمـوض، يعلـو وجهها ابتسامة خفيفة تفيض من عينيها الناعستين.


ليونارد دي فنشي
Léonard de Vinci


ميشيل إنج
Michel Ange


موناليزا جيراردينى
Mona Lise Gherardiini

أما ميشـيل إنـج Michel Ange (١٤٧٥ – ١٥٦٤)، فقـد بـرز في فـن التصـوير واشـتهر بتعدد الجوانب الثقافية، وبـرع في التصـوير والنحـت وهندسـة البنـاء والشـعر الإيطـالي، واشـتهر بوفرة إنتاجه الفني وتعدد الموضوعات التي عالجها والمستوى الرفيع الذي بلغـه في هـذا الإنتـاج.[٧] والواقع أن؛ ميشيل مع رفائيل وليونارد يكونون ثالوث الفن في القـرن السـادس عشـر بمـا حققـوه من أمجاد فنية.

(٦) ولمزيد من التفاصيل عن ليونارد دى فنشي راجع:
Liana Bortolon, The Life and Times of Leonardo.-London:Paul Hamlyn , 1967.
Daniel Arasse, Leonardo da Vinci.- Konecky & Konecky, 1997.
Jack Wasserman, Leonardo da Vinci.- Abrams, 1975.

(٧) ولمزيد من التفاصيل عن ميشيل إنج راجع:
Charles de Tolnay, Michel-Ange, Flammarion, 1970.
Charles Sala, Michel-Ange : Sculpteur, peintre, architecte.- Pierre Terrail, 2001.
Linda Murray, Michel-Ange.-London: Thames & Hudson, 2003.

فن النحت

لقد أتيح لفن النحت عامل هام ساعد على ازدهاره، حيث كانت التماثيل التي خلفها الإغريق والرومان لا تزال قائمة وأعمال التنقيب عن الآثار أسفرت عن تماثيل أخرى. فكان ذلك بمثابة أمثلة يحتذي بها فنانو عصر النهضة في نحت تماثيل جديدة، وهنا يختلف النحت عن التصوير، فالصور التي تركها كبار المصورين الإغريق كانت قد اندثرت وبليت بحث أصبح من الاستحالة أن يرسم فنانو النهضة صوراً على شاكلتها. ومن أشهر أساتذة فن النحت لورنز وجيبرتي، ودوناتللو، وكان يغلب على فن النحت المظهر الوثني لأن فنان النهضة كانا يحرصون على إبراز مفاتن جسم الإنسان دون التقييد بالأخلاقيات.(٨)



Quattro Santi Coronati; niche group from the facade of the Or San Michele, Florence, ca. [1408-1410]



Doubting of Thomas [replica figure group in situ, east facade of the Or San Michele, Florence, original ca. [1465-1483]

(٨)رسم فنانو العصور الوسطى أشكالاً إنسانية كانت تبدو متجهمة وغير واقعية، وغالبًا ما تخدم أهدافًا دينية رمزية. لكن فناني عصر النهضة ركّزوا على جمال الجسم الإنساني. وحاولوا أن يجذبوا الانتباه إلى سمو الكائنات الإنسانية وعظمتها في رسومات ومنحوتات نابضة بالحياة.

فن العمارة

هذا الفن لم يندثر طوال العصور الوسطى، وقد ظهر في شمال أوربا طراز جديد من العمارة وهو الفن القوطي. ويتميز بكثرة الأقبية العالية والدعائم المعلقة، ولقد انتقل هذا الطراز إلى إيطاليا وتمثل في بناء الكنائس والكاتدرائيات، ولما جاء عصر النهضة أدخلت الخصائص والرسومات الهندسية التي كان يتبعها الإغريق في مبانيهم القديمة. وشهدت فلورنسا هذا التطور الكلاسيكي في البناء في النصف الأول من القرن الخامس عشر، ومن المدن التي نافست فلورنسا مدينة البندقية ومدينة روما.

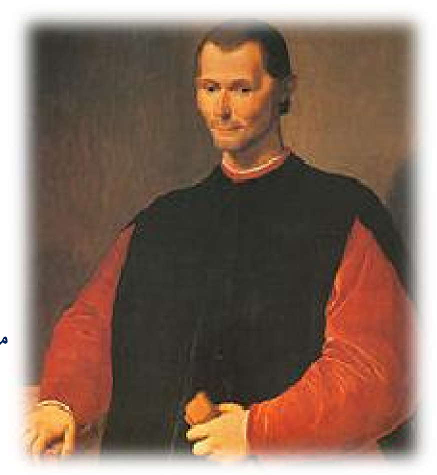
وكان فيليب بربنلسكى من أشهر النوابغ في فن العمارة في مطلع عصر النهضة. أما دانتي فقد وقف بكتاباته عند مفترق الطرق بين العصور الوسيطة والعصور الحديثة، فقد تناول موضوعات العصور الوسيطة وتكلم عن البابوية والإمبراطورية والجحيم، وذلك في كتابيه "الملكية"، "الكوميديا المقدسة"، إلى جانب الموضوعات العاطفية الحديثة.[٩]



قبة كنيسة الدومو بفلورنسا

(٩)ولمزيد من التفاصيل عن حياة دانتي وعصره، وشخصيته ومؤلفاته، راجع مقدمة المترجم للكوميديا الإلهية:
دانتي أليجييرى، الكوميديا الإلهية/ ترجمة وتقديم حسن عثمان. – الطبعة الأولى. – القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١. ص ٨ – ٩٢، (مكتبة الأسرة – أمهات الكتب).

الواقع أن؛ أوربا ورثت عن إيطاليا النهضة فكرتين: الأولى هي عن السياسي المحنك وقد احتواها كتاب "الأمير" لميكيافللي[١٠] الذي كتب عام ١٥١٣. أما الفكرة الثانية؛ فهي عن المهذب الشغوف بالدراسة وقد احتواها كتاب"رجل البلاط" لكاستليونى الذي كُتب في سنة ١٥١٦.



مكيافيلي مؤسس مدرسة التحليل والتنظير السياسي الواقعي
٣مايو١٤٦٩ – ٢١يونيو١٥٢٧
فلورانسا –إيطاليا

وبذلك برزت النهضة في إيطاليا في مجال الفنون الجميلة وكان لها صداها القوي الأثر على بقية البلدان الأوربية التي أخذت من النهضة الإيطالية وزادت عليها وذلك قبل أن تخبو النهضة الإيطالية بداية من ١٤٩٤ إلى أن انطفأت تماماً في ١٥٢٧ بنهب الجيوش الأجنبية لمدينة روما.

أسلوب النهضة الإيطالية في فلورنسا

على حين مضى شمال أوروبا في مسيرته المتأنّية مترسّماً الأساليب الرومانسكية والقوطية، نهجت إيطاليا نهجاً آخر إذ اختلفت فنون التصوير والنحت والعمارة القوطية فيها اختلافاً جوهرياً عن مثيلاتها في شمال أوروبا، فنجدها قد صُمّمت أكثر من غيرها كي تتواءم مع نسب الإنسان، كما نراها أقل غموضاً وإثارة للرعب والرهبة.

ومع أن سمات الفن والفكر القوطي المتداولين في إيطاليا كانت ترهص بالكثير من روح عصر النهضة إلا أنه كانت أيضاً ثمّة مصادر أخرى تعود إلى ماض أبعد مدى، فأطلال الآثار

(١٠) نيكولو دي برناردو دي ماكيافيلّي (بالإيطالية: Niccolò di Bernardo dei Machiavelli)، ولد في فلورنسا ٣ مايو ١٤٦٩، وتوفي في فلورنسا في ٢١ يونيو ١٥٢٧، كان مفكرا وفيلسوفا سياسيا إيطاليا إبان عصر النهضة. أصبح مكيافيلي الشخصية الرئيسية والمؤسس للتنظير السياسي الواقعي، والذي أصبحت فيما بعد عصب دراسات العلم السياسي. أشهر كتبه على الإطلاق، كتاب الأمير، والذي كان عملاً هدف مكيافيلي منه أن كتيب تعليمات للحكام، نُشرَ الكتاب بعد موته، وأيد فيه فكرة أن ماهو مفيد فهو ضروري، والتي كان عبارة عن صورة مبكرة للنفعية والواقعية السياسية. ولقد فُصلت نظريات مكيافيلي في القرن العشرين.

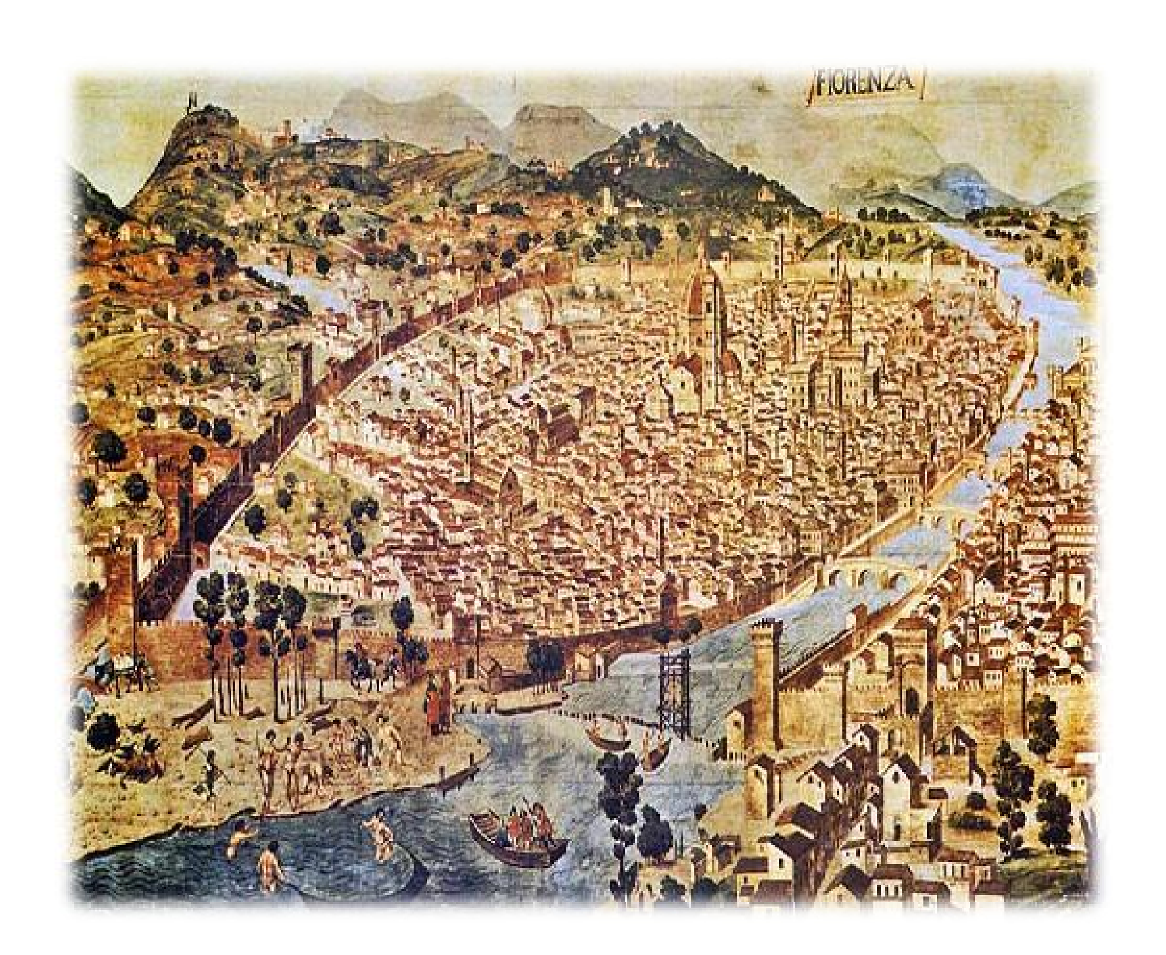
الإغريقية والرومانية ما برحت منتشرة قائمة في طول البلاد وعرضها رغم الغزاة الجرمانيين الذين استقرّ بهم المقام هناك فترة فإذا هم يضيفون بمرور الزمن طاقتهم الدافقة إلى طاقة المواطنين الإيطاليين. هذا إلى أن إيطاليا لم تقطع صلتها قطّ بحضارات البحر المتوسّط وعلى الأخص الحضارتين الإسلامية والبيزنطية، فلم يكفّ التجار عن جلب التحف الفنية بل واصطحاب الفنانين من الشرق.ومن كافة هذه الصلات بالفنون الرفيعة ترعرع عصر النهضة خلال القرن الخامس عشر واكتمل.

ومعنى كلمة "الرينيسانس" Renaissance المتداولة هو البعث أو الإحياء، وكانت جذور فكرة الإحياء بإيطاليا قد تأصّلت منذ عهد جوتو، فعندما كان أفراد الشعب يزجون المديح لشاعر أو فنان ما وصفوا عمله بأنه عظيم عظمة القدامى، وبهذا الوصف نُعِتَ جوتو الذي قاد حركة الإحياء أستاذاً لجيله، وهو ما يعني أن فن هذا الرجل قد بلغ من الروعة والجمال ما بلغه فن العباقرة الذين جاء ذكرهم فيما رواه كتّاب روما واليونان الكلاسيكيون. وشيوع هذه الفكرة في إيطاليا بالذات لا يثير الدهشة، فلم ينس الإيطاليون أن بلادهم في الماضي البعيد وروما عاصمتها كانت مركز العالم المتحضّر، وأن قوّتها قد اضمحلت منذ أغارت القبائل الجرمانية من القوط والوانذال على بلادهم مفكّكة أوصال الإمبراطورية الرومانية، ومن ثم كانت فكرة "البعث" مرتبطة أشدّ الارتباط في أذهان الإيطاليين بفكرة إحياء مجد روما القديم.

وكانت الفترة بين العهد الكلاسيكي الذي يتطلّعون إليه بإعجاب وزهو وبين عهد الإحياء الجديد الذي يتطلعون إليه بمثابة فاصل مظلم كئيب، ومن هنا كانت فكرة البعث أو الإحياء هي المصدر الذي انبثقت عنه الفكرة التي تذهب إلى أن الفترة التي بينهما هي عصر وسيط. وإذ أنحى الإيطاليون باللائمة على القوط لقضائهم على الإمبراطورية الرومانية بدأوا يصفون فن تلك الآونة بأنه فن قوطي، يعنون بذلك أنه فن بربري، على نحو ما يتحدّث الأوربيون عن "الوانذال" إذ قصدوا التعبير عن شهوة تدمير كافة عناصر الجمال في الحياة. وفي الحق إن هذا الزعم من جانب الإيطاليين ليس له ما يبرره، فثمّة سبعمائة عام تفصل بين زحف القوط وبين ظهور الفن الذي ندعوه الآن الفن القوطي.

فلقد استعاد الفن مركزه بعد ظلام العصور الوسطى رويداً رويداً، ولعل مردّ عدم إحساس الإيطاليين بهذا النمو التدريجي – مثلما أحس به أهل الشمال الأوروبي – هو أنهم تخلفوا بعض الشيء خلال فترة من العصور إلى أن برزت أعمال جوتو المتألّقة بوصفها ابتكاراً عظيماً وبعثاً لكل ما هو نبيل وجليل في الفن.

وقد تركّزت النهضة الحقيقية – التي كانت لقاءً غير مألوف بين العبقرية والطاقة والظروف– حول مدينة فلورنسا التوسكانية بإيطاليا، وحول مدينتين من المدن التجارية لا تقلان ثراء ولهما باع طويل في الإقدام والمغامرة هما بروج وجنت بإقليم الفلاندر. وهنا ولأول مرة منذ عصر أثينا الذهبي أثبت الفنانون والساسة والعلماء مجتمعين أنه ما خلى زمنٌ من الأزمان من عجيبة من العجائب، لكن أعجب العجائب كلها هو الإنسان، فإذا كل فنان يتابع اهتماماته الخاصة فيدرس التشريح وقواعد المنظور وعلوم اللون والبصريات والهندسة ومعايير الأوزان والمقاييس. ومع ازدهار المعرفة شاعت الصور المثالية المبتكرة للإنسان الذي كان رمزاً للجسارة والإقدام والهيمنة على ما عداه.وخلال قرن كامل ظهرت موجة من الفنانين اللامعين استحدثوا إيقونوغرافية جديدة يزهو بها عصر النهضة ويختال.(١١)



(١١) ثروت عكاشة، موسوعة فنون عصر النهضة، الفصل الرابع، متاح بتاريخ ٢٥ أكتوبر ٢٠٠٧ على الرابط: (http://www.civilizationstory.com/tharwat)

مظاهر النهضة في فرنسا

قبل أن تختفي النهضة في إيطاليا بعد ازدهارها الكبير بزمن غير قصير، أخذت النهضة تتسرب إلى بقية أوربا عن طريق الألب فظهرت النهضة ومظاهرها في بعض الدول الأخرى في ألمانيا وشبه جزيرة أيبيريا وانجلترا وفي فرنسا. والنهضة في فرنسا وليدة النهضة في ايطاليا وقد كانت أهم نتائج الحروب الإيطالية عندما اجتاحت الجيوش الفرنسية إيطاليا في عهد كل من شارل الثامن، ولويس الثاني عشر، وفرانسوا الأول. فقد بُهت هؤلاء الملوك ومن معهم بما شاهدوا من تقدم حضاري منقطع النظير في نواحي المعرفة المختلفة وفي مختلف الفنون العديدة، فحاولوا جميعاً جاهدين أن ينقلوا هذه الحضارة إلى فرنسا حتى لا تقل عن إيطاليا في التقدم الحضاري.

وحوالي منتصف القرن السادس عشر استقرت الدراسات الكلاسيكية في باريس، فنشأت حركة واسعة لنشر الكتب اليونانية وكانت أول مطبعة يونانية في باريس مطبعة جورمون. وساعد على انتشار الدراسات الإنسانية في باريس تشجيع ملوك فرنسا أنفسهم لها، ومن مظاهر هذا التحمس تقليد الملوك الفرنسيين في بلاطهم لكثير من العادات والتقاليد والأخلاق السائدة في بلاط الأمراء الايطاليين، كما كان من مظاهر هذا التشجيع بناء الأكاديميات ومراكز العلم للدراسات الإنسانية مثل الكلية الملكية التي أنشأها فرانسوا الأول في باريس خصيصاً لتشجيع الدراسات عام ١٥٣٠.

والوقع أن؛ هناك خلافاً بين العقلية الإيطالية والعقلية الفرنسية – في عصر النهضة – فيما يتعلق بموقف كل منهما من القديم، فالعقلية الايطالية استسلمت كليةً ودون تحفظ إلى المخلفات الكلاسيكية، فقد كانت في إيطاليا رغبة قوية في تشرب الروح الكلاسيكية وإخراجها بدقة وأمانة. أما العقلية الفرنسية فقد كانت في موقفها من القديم تحفظ باستقلالها، فقد نظر الفرنسيون إلى أعمال القدماء بتقدير يقترن بالذكاء واقتبسوا ما راقهم من المميزات القديمة وطعموها بخصائصهم الذاتية، فكان إنتاجهم الأدبي والفني شيئاً جديداً يغاير الايطاليين الذي كان نسخة مطابقة للقديم. ويمكن تتبع هذه الحقيقة في البناء والنحت والأدب الفرنسي في عصر النهضة.[١٢]

(١٢) ولمزيد من التفاصيل عن الأدب الفرنسي في عصر النهضة راجع:
Simonin, Michel, ed. Dictionnaire des lettres françaises - Le XVIe siècle. Paris: Fayard, 2001.

توقف النمو الثقافي في فرنسا

بينما ازدهرت النهضة في إيطاليا في النصف الأول من القرن الخامس عشر، كانت في فرنسا تعاني من توقف نموها الثقافي الذي بلغ مرحلة رفيعة في القرن الثالث عشر، وظهرت آثاره في النحت الذي صنع تماثيل كاتدرائية شارتر. ولقد كان توقف هذه الحركة الثقافية يرجع إلى حروب فرنسا مع انجلترا (حرب المائة عام ١٣٣٧ - ١٤٥٣) والتي انتهت بتوحيد فرنسا نفسها، والصراع الداخلي بين الملك لويس الحادي عشر والنبلاء الإقطاعيين، وقد انتهى هذا الصراع بهزيمة عصبة النبلاء.(١٣)

(١٣)حرب المائة عام (١٣٣٧ - ١٤٥٣) استمرت على مدى عهود حكم خمسة ملوك إنجليز وخمسة ملوك فرنسيين تقاتلوا للسيطرة على فرنسا. وقد شمل هذا الصراع بين إنجلترا وفرنسا سلسلة من الحروب المتعاقبة نتيجة خرق اتفاقيات الهدنة والمعاهدات. إذ خسر الإنجليز معركة نُورمَنْديا في فرنسا عام ١٢٠٤م، وهو ما اعتبر سببًا رئيسيًا لقيام الحرب. ولكن كانت هناك أسباب أخرى عديدة أسهمت في اندلاع الحرب؛ إذ إن المحاولات التي قام بها الملوك الفرنسيون للسيطرة على إقليم غاسكونيا في الجنوب الغربي من فرنسا، والذي كان يخضع للسيطرة الإنجليزية، قد أثارت غضب الإنجليز. وقد ساند الفرنسيون الأسكتلنديين ضد إنجلترا، كما حاول الفرنسيون السيطرة على تجارة الصوف التي كان يقوم بها الإنجليز ومواطنو شمال غربي أوروبا هناك. وقد تنازع البحارة والصيادون الإنجليز والفرنسيون حول الحقوق في القناة الإنجليزية. طالب إدوارد الثالث ملك إنجلترا الذي كانت والدته شقيقة لثلاثة ملوك فرنسيين بعرش فرنسا عام ١٣٣٧م بصفة رسمية .وقام إدوارد الثالث بزج جيش في نورمنديا لتبدأ حرب المائة عام.
انتصر الإنجليز في معظم المعارك التي تخللت القتال الذي نشب بعد ذلك، إلا أن الفرنسيين انتصروا في الحرب أخيرًا حيث كان عدد المقاتلين وإمدادات التموين والإمكانات المالية لدى الإنجليز ثلث ماكان لدى فرنسا في ذلك الوقت. وقد أعاقت عدة أحداث مجرى تلك الحرب، ومن بينها تمرّد الفلاحين وعمليات النهب والسلب في فرنسا التي قام بها الجنود العاطلون، وكذلك الموت الأسود أو الطاعون الدُمَّلي في البلدين، إلى جانب ثورة الفلاحين في إنجلترا عام ١٣٨١م. وقد أضعفت الحرب سلطات النبلاء وزادت سلطة الحكومة المركزية في كلا البلدين. كما صاحب الحرب انهيار الإقطاع وظهور الوحدة الفرنسية وظهور تكتيكات عسكرية جديدة ونمو القوة البحرية لإنجلترا. حقق حَمَلَة السهام ورجال سلاح المشاة أعظم نصر حربي في معركة كريسي عام ١٣٤٦م. كما انتصر الإنجليز في معركة بواتييه عام١٣٥٦م، وقد بدأ عهد قصير من السلام بتوقيع معاهدة بريتاني عام ١٣٦٠م، ولكن هنري الخامس ملك إنجلترا جدد القتال وأظهر ابتهاجه بالنصر في معركة أجيت كُورْت عام ١٤١٥م .وقد جعلت معاهدة ترويس عام ١٤٢٠م هنري الخامس وريثًا للعرش الفرنسي. وبعد وفاة هنري الخامس عام ١٤٢٢م، نازع الفرنسيون الإنجليز في مطالبتهم بالعرش واشتعلت الحرب مرة أخرى. وبحلول عام ١٤٢٨م، زحف الإنجليز عبر شمال فرنسا وقاموا بحصار أورليان، ثم قادت جان دارك جيشًا فرنسيًا لرفع الحصار عام ١٤٢٩م، ولكنها وقعت أسيرة لدى الإنجليز الذين أحرقوها على أنّها ساحرة واستمر الفرنسيون في كسب المعارك. وانتهت الحرب بمرور الوقت عام ١٤٥٣م وفقدت إنجلترا كل أراضيها في قارة أوروبا ماعدا كاليه التي استولى الفرنسيون عليها بعد ذلك عام ١٥٥٨م.

الاتصال بين فرنسا وإيطاليا

لقد بدأ الاتصال بين فرنسا وإيطاليا بغزو شارل الثامن لإيطاليا في ١٤٩٤ وأخذت عناصر النهضة الإيطالية تتسرب إلى فرنسا، فقد كانت العلاقة بين فرنسا وإيطاليا وثيقة من القرن السادس عشر، فحركة إحياء الدراسات الجديدة في فرنسا لم تدخل فرنسا فجأة عقب الغزو الفرنسي لإيطاليا، فقد بدأت منذ النصف الثاني من القرن الخامس عشر. ففي عام١٤٨٥ عُين جريجوري تفرناس مدرساً لليونانية في جامعة باريس، ومن هؤلاء الإنسانيين أيضاً جون لاسكارس الذي حاضر في اليونانية في باريس في عهد شارل الثامن.

الدراسات الكلاسيكية وانتشارها

وقد استقرت هذه الدراسات في منتصف القرن السادس عشر في باريس، ونشأت حركة واسعة لنشر الكتب اليونانية، وكانت أول مطبعة يونانية في باريس مطبعة "جورمون " ، ولم يكن أصحاب المطابع رجال أعمال فحسب بل جمعوا بين العلم وحرفة الطباعة، ومن هؤلاء "روبرت اسيتن". وقد ساعد أيضاً على انتشار الدراسات الإنسانية في باريس تشجيع ملوك فرنسا أنفسهم لها، فقد قلد الملوك الفرنسيين في بلاطهم الكثير من العادات والتقاليد السائدة في بلاط الأمراء الإيطاليين. وقد كان من مظاهر هذا التشجيع بناء الأكاديميات ومراكز العلم للدراسات الإنسانية، مثل الكلية الملكية التي أنشأها فرانسوا الأول في باريس عام١٥٣٠.

ويرجع انتشار الكلاسيكيات في فرنسا إلى "جيوم بودية " وهو أعلم العلماء في اليونانية في أوربا في عصره، كذلك في مقدمة كُتاب النهضة الفرنسية " فيليب دي كومين" وكان كاتباً سياسياً وترك مذكرات تاريخية عن قيمة عهدي لويس الحادي عشر وشارل الثامن، ومن الإنسانيين أيضاً " إندرين تيرنب " الذي عاش في فرنسا وعين أستاذاً لليونانية في الكلية الملكية. ولقد تفوق العلماء الفرنسيون في دراسة القانون الروماني القديم(١٤)، وفي مقدمة الفقهاء الفرنسيين "جاك كوجاز" أكبر المفسرين للأصول القانونية الرومانية. أما "بريستون" فقد تميز بدراية واسعة لمصطلحات القانون المدني.

(١٤) أول قانون طرح كان على يد الملك حمورابي الذي سن قواني صارمة ونقشها بحيث يحق لكل فرد أن يقرأها، وبعدها أتى الرومان بأولى مدوناتهم القانونية المعروفة نحو سنة ٤٥٠ ق.م. وسجلت هذه المدونة، التي أطلق عليها اسم القوائم الأثنتي عشرة للقوانين، الأعراف السائدة بشكل مكتوب. وظل القانون الروماني مرنًا واعتمد على تفسيرات لمحامين وقضاة مهرة. وتطورت بمرور السنين، مجموعة شاملة من القواعد التشريعية، طُبِّقت على مختلف الشعوب التي تعيش في ظل الحكم الروماني. وأطلق المحامون الرومان على هذه المجموعة من القواعد التشريعية اسم قانون الأمم، وقد ارتكز قانون الأمم هذا على الأفكار البديهية للعدالة، مع مراعاة التقاليد والأعراف المحلية.

النهضة في إنجلترا

لقد بدأت حركة النهضة في إنجلترا في عهد أسرة اليتودور بعد انتهاء حرب المائة عام وحرب الوردتين الداخلية (١٥)، وقد قامت الحركة الإنسانية فيها على يد فريق من العلماء الذين سافروا إلى إيطاليا فنهلوا من الدراسات القديمة في فلورنسا وروما والبندقية. وكانت نهضة انجلترا الحقيقية أدبية وقد خلد شكسبير أسمه في إنجلترا والعالم كله.

ومن هؤلاء الإنجليز الذين سافروا إلى إيطاليا (وليم جروسون في فلورسنا، توماس لينكار في البندقة وقد ألتحق بالأكاديمية هناك، وليم ليلي في روما ودرس اليونانية) وقد أطلق على هؤلاء الثلاثة مصلحو أكسفورد Oxford Reformers. أما "لارازمس" فقد زار انجلترا وتكون بينه وبين الإنسانين في أكسفورد صداقة وطيدة، وقد عُين سنة ١٥١٩ في منصب الأستاذية لليونانية في الجامعة وخلفه في منصبه السيدة " توماس سمث".

وفي عام ١٥٤١م أنشأ هنري الثامن ملك انجلترا خمسة كراس للأستاذية في اللاهوت والقانون المدني والطبيعة واللغة العبرية واللغة اليونانية، وحصل"سميث" على كرسي القانون المدني، أما كرسي اليونانية فكان من نصيب "جون تشيك". أما مدرسة سانت بول st.paul فقد أسسها كولت وأنشأت خصيصاً للدراسات الإنسانية، وقد دخل التعليم الكلاسيكي المدارس الإنجليزية في النصف الأول من القرن السادس عشر، وقد عُين "وليم ليللي" أو ناظر لهذه المدرسة. وقد أنشأت العديد من المدارس في لندن على نمط مدرسة سانت بول مثل Christ Hospital.

---

(١٥)اسم أطلق على النزاع الذي قام بإنجلترا في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي؛ حيث تقاتل اثنان من العائلة المالكة على العرش الإنجليزي. والرموز التي تبناها كل منهما أعطت الصراع هذا الاسم. فمثلاً بيت يورك استخدم الوردة البيضاء رمزًا له، بينما اتخذ بيت لانكاستر الوردة الحمراء؛ إلا أن المؤرخين لم يتأكدوا متى تم ذلك، فبعضهم يعتقد أن رمز الوردة الحمراء لم يظهر إلا في آخر معركة. وقد بدأت تلك الحروب في عام ١٤٥٥م، في موقعة سانت ألبانز، وانتهت في عام ١٤٨٥م في موقعة بوسورث فيلد.

كان الملك هنري السادس من بيت لانكاستر على العرش عندما بدأت حرب الوردتين .وكان جده هنري الرابع قد استولى على السلطة، في عام ١٣٩٩م. وقد ادَّعى دوق يورك ريتشارد بأنه لاحقّ لهنري السادس أن يكون ملكاً. وقد قُتِل ريتشارد في موقعة ويكفيلد في عام ١٤٦٠م، ولكن ابنه إدوارد قاد قوات يورك في معركة تاوتن، حيث هزم اللانكاستريين في عام ١٤٦١م. وبعدها، أصبح إدوارد ملكاً باسم إدوارد الرابع. لكنه أُجْبِرَ على الخروج من إنجلترا بوساطة اللانكاستريين حيث أعادوا هنري السادس في عام ١٤٧٠م. إلا أن إدوارد استعاد العرش بعد سبعة أشهر وذلك بعد هزيمة القوات اللانكاسترية في موقعتي بارنيه وتويكس بري. وقد حكم بيت يورك حتى خسر ريتشارد الثالث عرشه على يد هنري تودور المنحدر من بيت لانكاستر الذي أصبح ملكًا كهنري السابع في عام ١٤٨٥م . وتزوج هنري السابع من إليزابيث ابنة ريتشارد الرابع. وبذلك وحد بيتي لانكاستر ويورك وأسست سلالة آل تيودور.

الواقع أن؛ الحركة الإنسانية لم تشمل الأدب والفن ولم تتجه اتجاهاً وثنياً كما في فرنسا وإيطاليا، ولكن الحركة في انجلترا اتجهت لخدمة المسيحية فتشمل الدين إلى جانب الأدب والفن. وفي القرن السادس عشر اقتصر عمل الإنسانيين الإنجليز على الكلاسيكيات اليونانية والرومانية وعلى ترجمة كتابات أدباء النهضة الإيطاليين إلى الإنجليزية، ولكن في القرن السابع عشر أضافت شيء جديد للدراسات الإنسانية الأوربية ممثلاً في أشعار وليام شكسبير Shakespeare وجون ميلتون John Milton.[١٦]

(١٦) وِلْيَم شِكْسْبِير (١٥٦٤ – ١٦١٦م). يُعَدّ الشاعر والمسرحي الإنجليزي وليم شكسبير أشهر المسرحيين الذين عرفهم العالم. يرجع الإقبال الشديد الذي قوبلت به أعمال شكسبير إلى أسباب عدة، أهمها فهم الكاتب للطبيعة البشرية. فقد فهم شكسبير طبيعة الإنسان بشكل متميز، لم يتح إلا لقلة من الكُتاب المسرحيين الآخرين، مما مكنه من رسم شخوص ذات معنى تعدى حدود الزمان والمكان اللذين جرت فيهما أحداث مسرحياته. ألف شكسبير ٣٧ مسرحية على الأقل، يكاد يتفق النقاد على تصنيفها في ثلاثة أنواع هي، الملهاة (الكوميديا)، والمأساة (التراجيديا)، والمسرحية التاريخية. كان شكسبير قد قسم وقته بين حياته الخاصة في ستراتفورد وبين حياته العامة في لندن. فكان له بيوت في لندن حتى عام ١٦٠٤م ، وربما حتى عام ١٦١١م، لكن بعض الأحداث العائلية، مثل زواج ابنته سوزانا عام ١٦٠٧م، ووفاة والدته عام ١٦٠٨م، قد استدعت عودته إلى ستراتفورد. ومن المرجَّح أنه كان يقضي معظم وقته بعد عام ١٦١٢م، متنعمًا برفاهية بيته في ستراتفورد. مات شكسبير ، ودفن داخل كنيسة أبرشية ستراتفورد.

جون ميلتون (١٦٠٨ – ١٦٧٤م). شاعر وكاتب سياسي بريطاني، ولد ميلتون في لندن، ودرس في مدرسة القديس بول وكلية المسيح في جامعة كمبردج. وكتب أثناء وجوده في كمبردج قصيدة صباح مولد المسيح (١٦٢٩م)، والقصائد المصاحبة لها لاليجرو والبنسروزو (١٦٣١م). ورغم أن دراسته المبكرة كانت تؤهله لوظيفة كنسيّة، فقد آمن بأن الطغيان قد اجتاح الكنيسة، ولذلك آثر ميلتون أن يكرس نفسه لخدمة الله من خلال الشعر. وبعد تخرجه في كمبردج عام ١٦٣٢م ذهب إلى بلدة أبيه هورتون ليتفرغ للدراسة والكتابة.
ألف الفردوس المفقود (١٦٦٧م)، – روجعت في ١٦٧٤م – التي يعدها الكثيرون أجمل ملاحم اللغة الإنجليزية. ألف أيضًا الفردوس العائد (١٦٧١م) ومصرع شمشون (١٦٧١م). ويعتقد أن ميلتون قد ألف العملين الأولين، وربما الأخير أيضًا، بعد أن كف بصره. كتب ميلتون الفردوس المفقود حتى يُبرز مسالك الرب مع الإنسان. تعيد القصة ذات الاثني عشر كتابًا رواية قصة الإنجيل عن الخلق وسقوط آدم، في موازاة تمرد إبليس على ربه والخروج من الجنة. أما الفردوس العائد فهي ملحمة قصيرة في أربعة كتب مكتوبة بالشعر المُرسل مثل الفردوس المفقود، ويقوم موضوعها على الأناجيل الأربعة وتحكي صمود المسيح ـ عليه السلام ــ إزاء غواية الشيطان. أما مصرع شمشون فتحكي حكاية شمشون الإنجيلية بأسلوب المأساة اليونانية. فتصور القصيدة شمشون وهو يقهر سجانيه على حساب حياته، بعد أن خانته دليلة وأفقده الفلسطينيون القدامى بصره. كان ميلتون على دراية واسعة بأدب الإغريق، واللاتينيين القدامى، وتأثر بهم كثيرًا، لكنه ركز اهتمامه بوصفه بروتستانتيًا على الإنجيل. فقد أراد ميلتون أن يقدم لإنجلترا من خلال شعره ما قدمه عظماء وصفوة عقول أثينا وروما، أو إيطاليا الحديثة لبلادهم، إلى جانب كونه نصرانيًا.

نتائج النهضة الأوربية

إن النهضة الأوربية في مضمونها كانت تعني الانتقال التدريجي من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة، وقد ظهرت النهضة الأوربية أولاً في ايطاليا التي تمتعت بهذه النهضة وازدهرت فيها في عدت مظاهر منها دراسة الآثار والتاريخ والفنون الجميلة، وبعدما اكتملت النهضة بها تسربت لبقية البلدان الأوربية متمثلة في فرنسا وانجلترا وألمانيا وشبه جزيرة أيبيريا. ولقد كانت لهذه النهضة خصائص تميزت بها، منها أنها كانت علمانية والفرد فيها ظهر متمتعاً بشخصية مستقلة، وبعد كل هذه التطورات التي حدثت كان من الحتمي أن تكون لهذه النهضة أثر ونتائج على الأوضاع في أوربا وتغييرها إلى عكس ما كانت عليه.

فلقد أثرت النهضة في الأوضاع السياسية في أوربا، ففي العصور الوسطى واجه الإمبراطور في ألمانيا خصوصاً أشراء هم حكام الإمارات الإقطاعية، وكانت هذه الأمارات يحكمها أسقف أو أمير وكان هؤلاء الحكام يعترفون بالإمبراطور اعترافً شكلي. فلما جاءت النهضة حاول الإمبراطور الاستعانة بالمدن وأفراد الطبقة الوسطى لدعم مركزه تجاه الأمراء ورجال الدين الذين كانوا يسيطرون على الأرض ويحكمون الإمارات، ولكن هؤلاء الحكام كانوا أحرص على الاحتفاظ بإماراتهم من تحقيق وحدة سياسية، فظلت ألمانيا في القرنين الخامس عشر والسادس عشر ممزقة إلى ٣٥٠ وحدة سياسية جمعت بينهم الجرمانية في الجنس واللغة وبذلك لم يكن للنهضة تأثير على الأوضاع السياسية الداخلية في ألمانيا.

أما إيطاليا، فقد كان مجتمعها قبل النهضة يموج بالمتناقضات، ولقد كانت مدنها مهداً لمولد النهضة وكانت فلورنسا عاصمة أوربا في الفنون والإبداع الفكري، ومع ذلك لم تكتسب إيطاليا شيئاً من النهضة ولم تقيم لها حكومة مركزية موحدة، ولكن ظلت موزعة بين وحدات سياسية خضع بعضها للنفوذ الأجنبي، وأصبحت إيطاليا ميداناً لصراع رهيب بين ملكي فرنسا وأسبانيا من أجل السيطرة على أوربا، وقد دخلتها القوات المسلحة الأجنبية ونشرت فيها الخراب والدمار وأصبحت مصرعاً لحروب بشعة يطلق عليها " الحروب الإيطالية" بين الملك فرانسوا الأول والإمبراطور شارل الخامس، وقد انتهت بتوقيع معاهدة كريبي١٥٤٤م.[١٧]

(١٧) ولمزيد من التفاصيل راجع:

Knecht, R.J. Renaissance Warrior and Patron: The Reign of Francis I. Cambridge: Cambridge University Press, 1994.

Seward, Desmond. François I: Prince of the Renaissance. New York: MacMillan Publishing Co., 1973.

أما دول غرب أوربا، فقد نجح ملوك فرنسا وأسبانيا وإنجلترا في إنشاء الحكومة المركزية الموحدة وجاءت النهضة فساعدت على دعم هذه القوى، وقد تلاقت مصلحة الملكيات في غرب أوربا مع مصلحة أفراد الطبقة الوسطى للحد من الحقوق والامتيازات التي كانت تتمتع بها الطبقتان الأخريان وهم النبلاء أمراء الإقطاع وكبار رجال الدين في جبهة، والملك وأفراد الطبقة الوسطى في جبهة، وقد قدم أفراد الطبقة الوسطى الأموال للملكية وقد منحتهم الملكية الكثير من الحقوق لدعم مركزهم في المدن.

الجدير بالذكر؛ أنه في النصف الثاني من القرن الرابع عشر كان اختراع البارود (١٨)وكان هذا سنداً للملكية في النضال ضد الأمراء حيث كان الأمراء يعتمدون على السلاح التقليدي سلاح الفرسان والذي لم يستطيع أن يصمد أمام الأسلحة النارية وبذلك انهار النظام الإقطاعي ونمت الروح القومية واستخدام اللغات القومية وقامت الملكية ذات الحكومة المركزية الواحدة.

في الحقيقة؛ لقد كانت هناك نظرية سائدة طوال العصور الوسطى وهي أن العالم المسيحي يشكل وحدة عامة سياسية ودينية ويخضع لقوتين هما: البابا الرئيس الديني الأعلى، وإمبراطور الدولة الرومانية، ولقد جاءت النهضة وعصفت بهذه النظرية وظهرت نظريات سياسية كانت يمارسها بعض الملوك ممارسة جزئية مثل " لويس الحادي عشر ملك فرنسا " وهذه النظرية هي [استخدام كافة الوسائل الخلقية وغير الخلقية لتحقيق أهداف الحكم] وفيها تحريض على تجاهل تعاليم الأديان السماوية.

ولقد جاء سياسيٌ من فلورنسا هو "مكيافيللي" سجل في كتابة هذه النظرية مطالبٌ بتحقيق هذه السياسية لتنفيذ الوحدة الإيطالية، وتعتبر كتابة مكيافيللي بداية عهد جديد للتفكير السياسي الذي ظل طوال العصور الوسطى ذا طابع ديني مسيحي متأثر بالكنيسة. وقد نادى

(١٨)من المحتمل أن يكون سكان آسيا هم أول الناس الذين توصَّلوا إلى معرفة الخواصّ التفجيرية للملح الحجري والكبريت. ثم انتقلت هذه المعرفة غرباً، عن طريق الاحتكاك بالعرب، لتصل في النهاية إلى أوروبا في القرن الثالث عشر الميلادي. وفي الواقع، كان للبارود تأثيره في التغييرات التي حدثت في النظام الاجتماعي في أوروبا في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين، ذلك لأن النظام الذي كان قائماً والمعروف باسم نظام الإقطاع كان يعتمد جزئياً على القلاع المبنية من الحجر للدفاع عن ضِياع اللوردات والنُّبلاء. ولم تكن تلك القلاع قادرةً على الصُّمود أمام هجمات قذائف المدافع الثقيلة المقذوفة بوساطة البارود .

صنع البارود عديم الدخان في القرن التاسع عشر، حيث كان أحد الأنواع الأولى منه قطن البارود، وهو اختراع يعود إلى الأربعينيات من القرن التاسع عشر. وقد كان هذا النوع ينفجر بقوة لكن تصنيعه كان خطراً. كذلك تم اختراع نوعٍ أفضل من البارود في عام ١٨٦٤م. وفي حوالي عام ١٨٨٧م، اخترع الكيميائي السويدي ألفرد نوبل أول بارود غرواني. واليوم، فإن البارود العديم الدخان هو الأكثر استعمالاً في الذخيرة مقارنةً بالبارود الأسود.

أيضاً سياسي إنجليزي يدعى "توماس مور" [١٩] بنظرية تقول [أن الهدف من قيام الحكومة هو السهر على مصالح المحكومين] أفضل الحكومات أقدرها على أداء الواجب، وقد بسط هذه النظرية في كتابة "علم الكمال ".

وكان من نتائج النهضة تحطيم الحواجز الطائفية، فلقد كان كل فرد في العصور الوسطى ينتمي إلى نقابة أو طائفة سواء كان طبيباً أو تاجراً أو خبازاً، وبازدياد التخصص ازدادت عدد النقابات وشملت جميع المهن والصناعات، وكانت كل نقابة تفرض على العضو الذي ينتمي إليها قيوداً في اتصاله بالمجتمع، وأصبح العضو داخل هذه القيود كالآلة. فلما جاءت النهضة حطمت الحواجز التي كانت تحل دون الاندماج (اندماج الفرد في المجتمع) وأصبح يمارس نشاطه بحرية، كما حقق مزيداً من الربح ووسع دائرة معلوماته.

وقد كان هناك نتائج أخرى للنهضة تمثلت في، القضاء على احتكار الكنسية للعلم وقيام المدارس والجامعات، وتحرر العقل البشري من الخرافات ومن القيود على حرية التفكير والبحث فظهرت مخترعات وكشوف جغرافية، كما أصبحت وسائل التعليم في متناول الكثيرين بعد اختراع الطباعة[٢٠]وكشف الورق، فوجد نوع من الثقافة ووحدة الفكر بين شعوب غرب أوربا.

---

(١٩) ولد توماس مور في إنجلترا، وكرّس حياته لخدمة بلاده. وكسب ثقة الملك هنري الثامن ونفّذ له عددًا من الأعمال المهمة. وفي عام ١٥٢٩م عيَّنه الملك قاضي القضاة، وبذلك جعله في أرفع منصب قضائي في إنجلترا. كرَّس مور نفسه، من خلال منصبه هذا للمبادئ التي نادى بها أرازمس. لقد اعتقد مور- مثل أرازمس– أن المهم هو إلغاء المفاسد وعدم المساواة والشرور التي كانت مقبولة وكأنها أشياء عادية في عصره. أشهر مؤلفات مور هو كتابه اليوطوبيا أي المدينة الفاضلة(١٥١٦م). ويصف فيه مجتمعًا حل فيه الاهتمام العام بصحة كل إنسان وسعادته محل الانقسام إلى أغنياء وفقراء وأقوياء وضعفاء. إن مبادئ مور الثابتة كلفته حياته أخيرًا. فقد اعترض على قرار هنري الثامن بطلاق الملكة كاثرين ملكة أراغون والزواج ثانية. ورفض أن ينازع الملك البابا في سلطته. وفي سنة ١٥٣٥م قُطع رأس مور بتهمة الخيانة العظمى.

(٢٠) ساعد اختراع المطبعة على نشر أفكار النهضة، ظلت الكتب حتى العصر الحديث قليلة ومرتفعة الثمن لا يستطيع اقتناءها إلا الأغنياء. ومع حركة النهضة دعت الضرورة إلى البحث عن طريقة توفر أكبر عدد من الكتب بتكاليف أقل، حيث قبس الأوربيون في البداية الطريقة الصينية للطبع (باستعمال ألواح خشبية و حفر الحروف عليها)، ثم اهتدى الألماني"يوحنا كوتنبرغ"(١٤٠٠-١٤٦٨)م إلى صنع أول آلة طبع خشبية حوالي سنة ١٤٥٥م تعمل باليد، وتستعمل حروفا متنقلة من المعدن. ومن ألمانيا انتشر هذا الاختراع بسرعة، و أسهم بقسط كبير في نشر الكتاب المقدس على أوسع نطاق و تعميم أفكار النهضة. أنظر:
الأستاذ زينو، النهضة الأوربية، متاح بتاريخ ١٠ مارس ٢٠٠٩، على الرابط:
(http://www.madariss.fr/HG/1ere/zino/h2.htm#d)

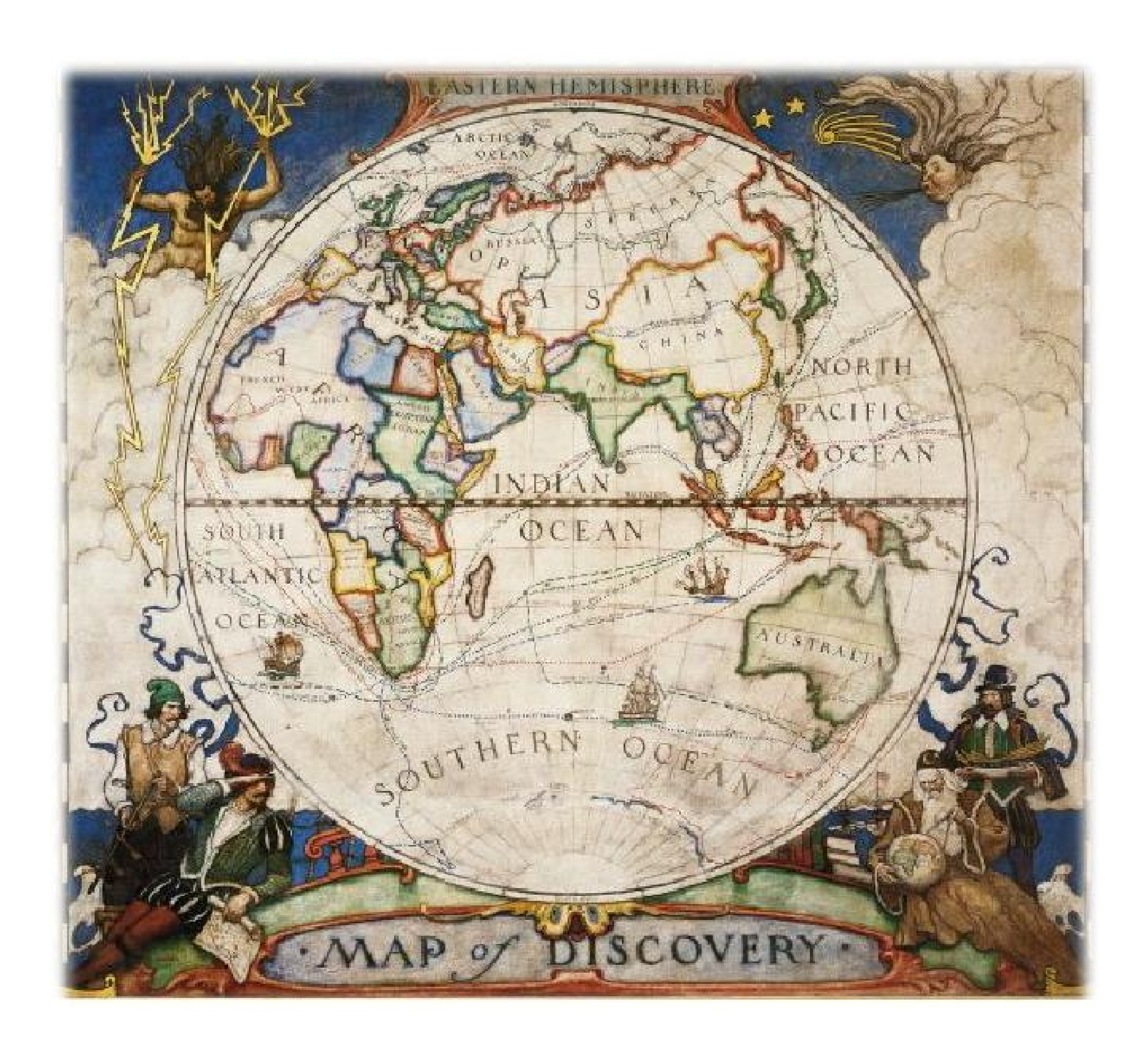
وبذلك شهد عصر النهضة نهاية النظام الاجتماعي والسياسي والاقتصادي الذي عرفته أوربا في العصور الوسطى وبداية تمتع الفرد بحريته وشخصيته، وجاءت النهضة بمفاهيم جديدة وأراء أحدثت تغيرات جذرية تسللت إلى مختلف القطاعات السياسية والدينية والثقافية والفنية والاجتماعية.

ترك عصر النهضة تراثًا فكريًا وفنيًا ما يزال مهمًا إلى يومنا هذا. فمنذ عصر النهضة أخذ العلماء يستخدمون مناهج ذلك العصر فيما يتعلق بتحري الحقائق الإنسانية والبحث عنها، حتى عندما كانوا لا يشاركون في أفكار إنسانيي عصر النهضة وروحهم. ففي الأدب يحاول الكتاب، منذ عدة قرون، محاكاة مؤلفات لكتاب من عصر النهضة، أمثال بترارك وبوكاتشيو، وتطوير أعمالهم قياسًا عليها.

وما يزال تأثير رسامي عصر النهضة ونحاتيه ومعمارييه قويًا بشكل خاص. فقد وضع فنانو فلورنسا وروما معايير ثابتة للتصوير التشكيلي في العالم الغربي. ويسافر الرسامون، منذ مئات السنين، إلى فلورنسا ليمتعوا عيونهم برؤية اللوحات الجصية (الفريسكات) التي أبدعتها ريشة جيوتّو وماساشيو، ويزورون روما لدراسة صور رفائيل ومايكل أنجلو. وألهمت أعمال دوناتللو ومايكل أنجلو النحاتين لأجيال عديدة. وما تزال المباني الشهيرة لبرونلسكي، وغيره من معماريي عصر النهضة، تعدُّ نماذج بالنسبة للمهندسين المعماريين.

ومنذ عصر النهضة لا يزال هناك أيضًا أناس يعدون الجرأة الفكرية لرجال أمثال بترارك وأرازمس مصدر إلهام لهم. لقد بدا زعماء عصر النهضة وكأنهم قد حطموا القيود الفكرية ودخلوا عوالم جديدة.

وربما ليس بمحض المصادفة أن بعضًا من كبار المكتشفين الجغرافيين، في أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر الميلادي كانوا إيطاليين، سبق لهم أن نهلوا الكثير من تراث عصر النهضة. فكريستوفر كولمبوس، مثلاً، كان بحارًا من جنوه وخبيرًا بالملاحة البحرية. وقد استشار ـ من أجل رحلته البحرية إلى العالم الجديد ـ العلماء أنفسهم الذين درَّسوا الرياضيات للمهندس المعماري فيليبو برونلسكي. وكان، شأنه شأن مكتشفين جغرافيين إيطاليين آخرين هم جون كابوت وجوفاني دا فيراتزانو وأميريغو فسبوتشي، راغبًا في القيام بمغامرات ضخمة لإحراز نتائج لم يسبق للناس أن حلموا بها .وبمعنى آخر فإن وصول كولمبوس إلى أمريكا سنة ١٤٩٢م كان من أعظم إنجازات عصر النهضة.



حركة الكشوف الجغرافية

ظهرت حركة الكشوف الجغرافية كمحاولة للتخلص من الرسوم الجمركية الفادحة التي كانت تفرضها السلطات الحاكمة في مصر والشام على السلع الشرقية عند مرورها في أراضي هذين القطرين ، بالإضافة إلى الرغبة في ضرب الاحتكار الذي كان يمارسه تجار جمهورية البندقية في نقل المتاجر الشرقية من موانئ مصر والشام إلى أوربا كوسيلة لحرمان هذه الجمهورية من مصادر ثرائها وقوتها ، زد على ذلك ؛ تطلع التجار من رعايا دول أخرى غير البندقية إلى النزول لميدان التجارة الشرقية والحصول لأنفسهم على شطر من أرباحها الوفيرة. ومن الناحية الدينية كانت هناك رغبة في تحويل سكان البلاد التي يتم اكتشافها إلى المسيحية الكاثوليكية لضرب المسلمين ضربة أخيرة. ولما بدت تباشير كشف الأمريكتين كان الحصول على الذهب والفضة والأحجار الكريمة والعبيد هدفاً رئيسياً للمغامرات الأسبانية. في الحقيقة لقد استغرق الأوربيون في أحلام اليقظة استغراقاً ضاحكاً ، فكانت هناك الرغبة في زيادة المعلومات الجغرافية بعد ما ترامت إلى مسامع الكثيرين أخبار الرحلات الطويلة التي قام بها بعض المغامرين الأوربيون في أسيا وتسجيل ما لمسوه من مصادر الرخاء والثراء في هذه البلاد ، مما ألهب كثيراً من الناس وبخاصةً الذين في بحثهم عن الرزق الوفير لا يستشعرون خوفاً ، والذين تغلب عليهم روح المغامرة وحب الاستطلاع.

حـــــركـــة الكشـــــوف الجغــــــرافيـــــة

عوامل الكشوف الجغرافية [ظهور الدولة الوطنية الحديثة، العوامل الدينية والأحلام لصليبية، العامل الاقتصادي، أثر النهضة] - الكشوف البرتغالية ونظام الاستعمار البرتغالي - الكشوف الأسبانية [كريستوف كولمبوس - كشف المكسيك ، أمريكا الوسطى، بيرو] - رحلة ماجلان حول العالم [المشروع، الرحلة، النتائج] - الكشوف الهولندية - الكشوف الفرنسية - الكشوف الإنجليزية - نتائج الكشوف الجغرافية

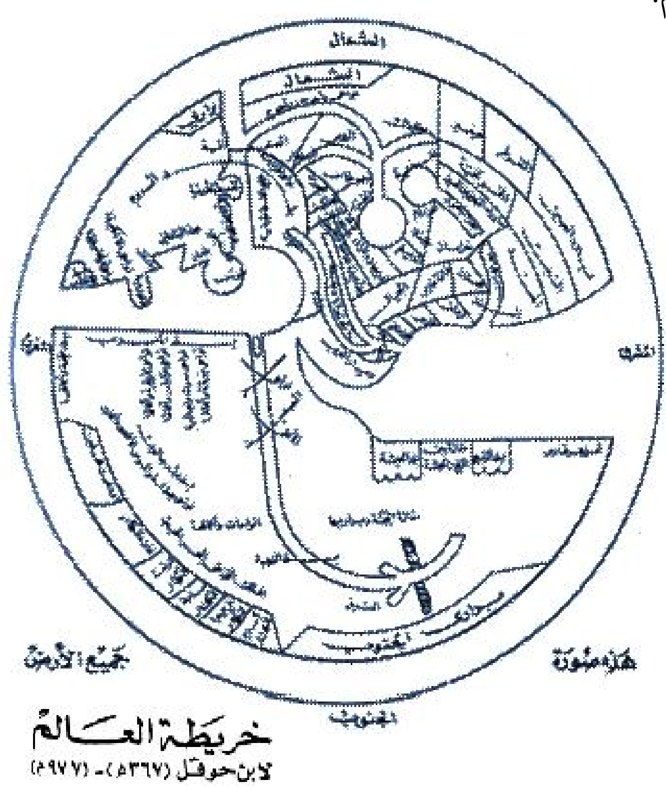
عصر النهضة خرج منه موضوعات مختلفة وهو أساس التغيرات الكبرى في التاريخ الأوربي الحديث، وتعد حركة الكشوف الجغرافية أهم نتيجة عملية للنهضة الأوروبية، فقد حققت هذه الكشوف كشف الأمريكتين وكشف الطريق البحري من أوربا إلى الهند حول رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٩٨. و في أثناء العصور الوسطى قبل حركة الكشف كانت معلومات أهل أوربا الجغرافية ضئيلة ولا تتجاوز معرفة السواحل الشمالية من قارة إفريقيا و جزاً صغيراً من ساحلها الشمالي الغربي. وسادت الخرافات والأساطير عن أن الأرض منبسطة مركزها بيت المقدس يحيط به البحر، كما أن المحيط الأطلسي والبحار الجنوبية مأوي الشياطين والجن والوحوش، وليس باستطاعة الإنسان أن يحاول استكشاف ما فيه أو ما بعده. فقد ساد الاعتقاد بوجود صخور في البحر تجذب إليها السفن إذا ما اقتربت منها، وأن في تلك الصخور قوة خارقة تمكنها من اقتلاع مسامير تلك السفن و إغراقها.

وما من شك أن هذه التصورات كانت خاطئة وهي عبارة عن خرافات اشتملت على عنصر التخويف، إلا أنها في الوقت عينه كانت تحتوي على عنصر التشويق الذي شجع المغامرين على القيام بمغامرات في تلك البحار من أجل الوصول إلى المجهول، خاصةً هذه الخرافات التي كانت سائدة في العصور الوسطى عن الجبال التي تشع منها أنوار الأحجار الكريمة والأنهار التي تجري على أرض من ذهب. وبذلك كانت حركة الكشف عاملاً هاماً في إزالة الجهل والخرافات والتبحر في مجال الفلك وتغلغله في أنحاء العالم.

ولا يعني هذا أن حركة الكشوف الجغرافية لم تعرف في السابق إلا في بداية التاريخ الحديث، فقد قام العرب في العصور الوسطى برحلات برية و بحرية إلى مناطق أفريقيا الشمالية والهند ووصلوا حتى الصين. و الواقع أن العرب قد ساهموا أكثر من غيرهم في حركة الكشف

الجغرافي و في مجال المعرفة الجغرافية. و يعتبر الشريف الإدريسي من أهم الجغرافيين العرب ويعد كتابه: "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" من أفضل الكتب التي تناقش جغرافية العالم.(١)

لقد كانت أوروبا في حاجة شديدة إلى البهارات والتوابل التي كانت تستورد من الشرق والتي كانت تصل أوروبا من طريق الخليج العربي، والبحر المتوسط، والبحر الأحمر، ثم دمشق والقاهرة وإلى أوروبا من طريق المدن الإيطالية. و قد فكر الأوروبيين في إيجاد طريق آخر يصلون من خلاله إلى الشرق و بالتالي إنهاء عملية احتكار هذه التجارة من قِبل المماليك في مصر والبندقية. فمن المؤكد أن العوامل الاقتصادية قد لعبت دوراً مهماً في دفع حركة الكشوف الجغرافية إلى الأمام.

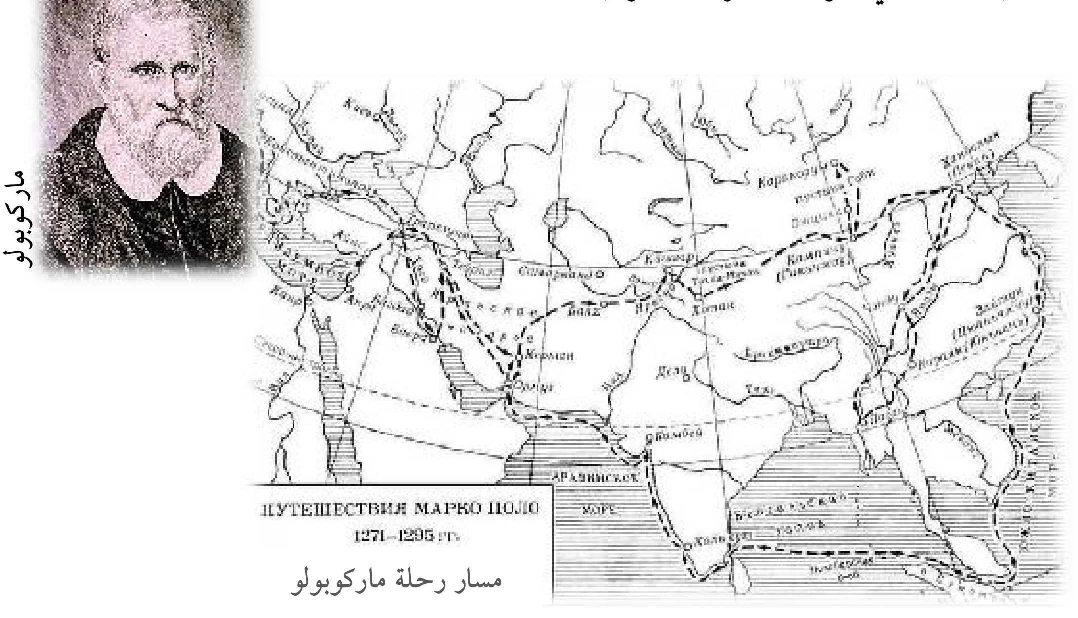


خريطة العالم
لابن حوقل (٣٦٧هـ - ٩٧٧م)

(١) كان للرحلات الجغرافية التي قام بها ودوّنها الرحالة الجغرافيون العرب والمسلمون في القرنين الرابع والخامس الهجريين مميزات واضحة لاعتمادها على المشاهدة والحس، مما حمل هؤلاء الرحالة على تدوين مشاهداتهم من خلال أسفارهم وتنقلاتهم العلمية أو الدينية أو التجارية، وساعدهم على ذلك اتساع رقعة الدولة الإسلامية التي امتدت من الصين شرقاً إلى سواحل المحيط الأطلسي غرباً ومن وسط أوروبا شمالاً إلى وسط أفريقيا جنوباً. ومن أشهر هؤلاء الرحالة المسعودي وإبن فضلان والمقدسي وابن حوقل وناصر خسرو، وقد ساهم هؤلاء في إثراء الفكر الجغرافي من خلال إنتاجهم العلمي المتنوع، سواء كان ذلك في مجال الجغرافيا الوصفية أو تأليف المعاجم والموسوعات الجغرافية، أو رسم الخرائط وإنتاج الأطالس. ولمزيد من التفاصيل راجع هذه الدراسة الممتازة للدكتور خليف غرايبة والتي تبرز دور هؤلاء الرحالة في إثراء التراث العربي الإسلامي بالمعارف الجغرافية المتعددة.
خليف مصطفى غرايبة، "الرحلات الجغرافية في التراث العربي الإسلامي في القرنين الرابع والخامس الهجريين".- دورية كان التاريخية.- العدد الثالث: مارس ٢٠٠٩. ص ٨ – ١٣. (www.historicalkan.co.nr)

وأيضاً من الأسباب التي شجعت البرتغاليين و الأسبان رحلة ماركوبولو[٢] Marco Bolo من ١٢٧١ إلى ١٢٩١ وما كتبه في وصف الصين وما تتمتع به من ثروات واسعة، قد شجع هذا العمل العديد من المغامرين من أجل القيام برحلات استكشافية. وقد ساعد الشعور القومي في اسبانية و البرتغال على التوسع الخارجي وتنفيذ هذه السياسة في ظل الكشوف الجغرافية، فالبرتغال مثلاً جعلت شعارها ضرب المسلمين في غرب إفريقيا، فالعوامل الدينية كانت بارزة جداً في حركة الكشوف الجغرافية.

ماركوبولو



مسار رحلة ماركوبولو

(٢) ماركو بولو (١٢٥٤–١٣٢٤م) تاجر ورحالة إيطالي. ألف كتابًا أعطى الأوروبيين من خلاله بعض المعلومات الأولية عن الصين التي كانت تسمى في ذلك الوقت كاثاي. وُلِد ماركو بولو في البندقية وكان والده نيكولو بولو تاجراً، وقد توفيت والدته وهو لايزال صبياً يافعاً. وفي عام ١٢٧١م سافر هو ووالده وعمه بحراً من البندقية إلى عكا في فلسطين، ومن هناك براً إلى قصر قبلاي خان (حاكم مغولي) في شانجدو. لقد قدَّر قبلاي خان تجربة ضيوفه وعلمهم. وكان ماركو يعرف أربع لغات. أرسله قبلاي خان في كثير من الجولات في أنحاء مملكته. وفي عام ١٢٩٢م بدأوا رحلة العودة إلى البندقية حيث وصلوا إليها عام ١٢٩٥م وقطعوا في رحلتهم من البندقية إلى الصين، ذهاباً وإياباً، مسافة ٢٤,٠٠٠كم. واستغرقت تلك الرحلة ٢٤ عاماً. وعاد آل بولو من الصين مُحمَّلين بالثروات التي أعطاها لهم قبلاي خان. وفي عام ١٢٩٦م قام جيش جنوة بإلقاء القبض على ماركو بولو وأودعه السجن. وهنا قرَّر بولو أن يكتب عن رحلاته فأكمل كتابه وصْف العالم عام ١٢٩٨م. وقد ورد في كتاب بولو معلومات عن مدى تقدم وازدهار إمبراطورية قبلاي خان. كما ورد في الكتاب مرئيّات بولو عن كثير من العادات الصينية مثل التعدين واستخدام الفحم وقودًا. وقد حقق الكتاب انتشاراً واسعاً في أوروبا،كما ترك أثراً في تقديرات كريستوفر كولمبوس للمسافة بين أسبانيا وآسيا. وفي عام ١٢٩٩م عقدت جنوة والبندقية سلامًا بينهما فأطلق سراح بولو وعاد إلى مزاولة التجارة في البندقية. راجع:

Laurence Bergreen, Marco Polo, Alfred A. Knopf.- New York, 2007.
Henry H. Hart, Marco Polo: Venetian Adventurer.- University of Oklahoma Press, 1967.
John Larner, Marco Polo and the Discovery of the World.- Yale University Press, 1999.
Marco Polo, Travels in the Land of Kubilai Khan.- Penguin Books, 2005.
Frances Wood, Did Marco Polo Go to China?.- Westview Press, 1995.
Henry Yule, The Travels of Marco Polo.- New York :Dover Publications , 1983.

عوامل الكشوف الجغرافية

في الواقع هناك عدة عوامل أدت إلى الكشوف الجغرافية ومنها؛ ظهور الدولة الوطنية الحديثة، وهي الدول التي توحدت السلطة بها كأسبانيا والبرتغال وهولندا وانجلترا وفرنسا وروسيا، وشعرت هذه الدول بالعزة القومية وسعت لبسط نفوذها على الأمم والشعوب الأقل ثقافة وتنظيماً منها، وذلك عن طريق الاستعمار خارج القارة الأوربية. وبهذا فحركة الكشوف كان لا يمكن قيامها في غيبة الدول القوية، فعندما قامت هذه الدول قامت معها الكشوف الجغرافية، فكان لا يمكن قيامها في ظل النظام الإقطاعي مع احتياجها للمال والسلاح والأساطيل والقوات.

وهناك العامل الديني والأحلام الصليبية والتعصب الديني المكروه، وهذا العامل أدى للكشف الجغرافي، فهدف البرتغال تنصير المسلمين في الشرق ودخول بيت المقدس، وهدف أسبانيا نشر المسيحية الكاثوليكية في المناطق البعيدة وتحويل الحبشة للمذهب الكاثوليكي. كما اهتم الباباوات بحركة الكشوف وجعلوا من كل إقليم جديد يتم اكتشافه ملك خاص لملوك البرتغال وأسبانيا، كما تم إصدار المرسوم البابوي القائل بـ "اذهب للشرق للقضاء على طاعون الإسلامThe plague of Islam[٣]"، بالإضافة إلى إغرائهم البحارة في الاشتراك في هذه البحوث الكشفية ليتم العفو عنهم عند الحساب في اليوم الأخر، فأمروا برسم الصلبان على أشرعة السفن، وكانت الرحلات الاستكشافية معها دعاة المسيحية من رجال الطوائف الدينية لنشر المسيحية الكاثوليكية في العالم الجديد.[٤]

---

(٣) جاد طه، محاضرات في تاريخ أوربا الحديث. – الطبعة الأولى. – القاهرة: كلية الآداب – جامعة عين شمس، ١٩٩٧. ص ٨٥. (غير منشورة)

(٤) منذ أن تم للمسيحيين القضاء على نفوذ المسلمين بالأندلس، بدأت مرحلة تتبع المسلمين في كل مكان في البر والبحر والى شمال أفريقيا ومن ثم التفكير بتطويق المسلمين في الجنوب ونشر المسيحية بينهم لكي لا يفكروا في العودة إلى الأندلس مرة أخرى، وهكذا أصبحت اسبانيا والبرتغال نصيرة المسيحية المتعصبة وراعيتها في القرن العاشر الهجري – السادس عشر الميلادي، فقد اتخذ الصليبيون من الرحلات الكشفية وسيلة فعّالة للوصول إلى قلب العالم الإسلامي الذي ازداد حقد الغربيين عليه بعدما تمكن محمد الثاني (الفاتح) سنة ١٤٥٣م/ ٨٥٧هـ من فتح القسطنطينية وتردد صدى هذا الفتح في اسبانيا كما تردد في كل أنحاء أوروبا المسيحية فقد كان لهذا النصر العثماني أثر على حركة الكشوف الجغرافية. أنظر:
سعود الزيتون الخالدي ،"المقاومة الخليجية ضد التنصير". – مجلة الواحة . – العدد الثامن: متاح بتاريخ ٢٦ ابريل ٢٠٠٩. – على الرابط:(http://195.173.191.171/issue8/is08sb13.htm)

وفي اسبانيا عام ١٤٦٩تزوج فرديناند من إيزابيلا وتكونت أسبانيا الموحدة، وقام الملكين الكاثوليكيين بمحاربة من لا يدين بالمذهب الكاثوليكي. وكانت أول الأعمال التي قاموا بها الاستيلاء على غرناطة وإجلاء المسلمين عن الأندلس وتكوين مملكة إسبانية قوية محاربة للإسلام.[٥] ويذكر أن البابا نيقولا الخامس (١٤٤٧- ١٤٥٥) كان يود عودة بيت المقدس المسيحية، فأرسل لملك البرتغال مرسوماً باباوياً به ما يعرف "بخطة الهند" لإرسال حملة صليبية نهائية للقضاء على الإسلام، وتطويق البلاد الإسلامية بالتعاون مع الملوك المسيحيين في أفريقيا وأسيا.

أما العامل الاقتصادي في الكشوف الجغرافية، فهو أبو العوامل الفعالة في حركة الإنسان على ظهر الأرض، فالرغبة في الربح التجاري والعثور على طريق للتجارة مأمون مع الشرق وبدلاً من سيطرة الإمبراطورية العثمانية على طريق التجارة القديمة مع الشرق. وبذلك لم يكن العائد من الكشوف عمل علمي حقيقي توقف عند حد العلم، ولكن الرغبة في العثور على الفضة والذهب وأشياء أخرى مثل الغلات الزراعية (الكاكاو – الدخان) والتي لم تكن معروفة في أوربا. وقد اتفق هذا مع قيام الدولة الوطنية الحديثة فنشطت حركة التجارة مع الشرق، وظهرت أثار العامل الاقتصادي في الكشف والاستعمار من أواخر القرن الخامس عشر حتى الآن.

---

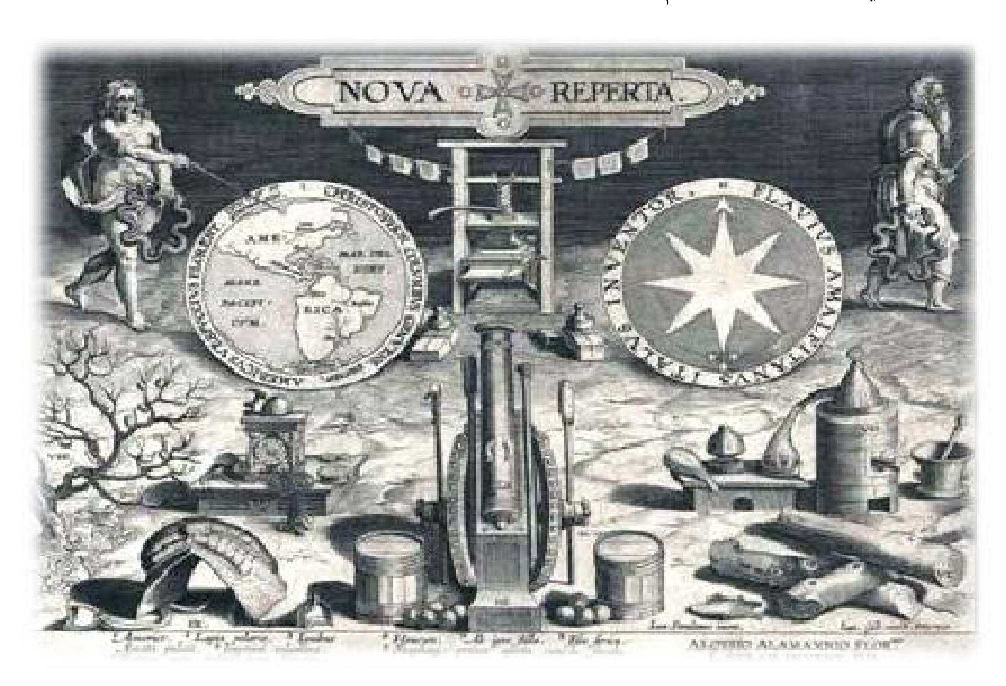
(٥) مملكة غرناطة: هي آخر مملكة عربية سقطت في إسبانيا، واستطاعت أن تقاوم حتى عام ١٤٩٢، على الرغم من الحصار الذي فرض عليها من جميع الأطراف، وشاركت أوروبا أيضا في حصارها وفي إمداد المساعدات للجيش الإسباني في حربه ضد مملكة غرناطة، حتى اضطر الملك أبو عبد الله الصغير إلى عقد صفقة الصلح مع ملكة إسبانيا ايزابيل الكاثوليكية، مقابل حفظ حقوق العرب في غرناطة، ومنها المحافظة على أملاكهم، وعاداتهم وتقاليدهم، وحق العبادة، وحرية أداء الاحتفالات والطقوس، والمحافظة على اللغة العربية وغيرها، ووعدته الملكة ايزابيل بكل ذلك، ولكن هذا لم يتحقق إلا لبضع سنين، إذ سرعان ما أعلن الكاردينال ثيسنيروس عام ١٥٠١ ضرورة تحويل المسلمين إلى مسيحيين بالقوة، وقام بحرق القران الكريم في ساحة الرملة وسط غرناطة بموافقة الملكة ايزابيل الكاثوليكية، ثم صدر قرار بمنع استعمال اللغة العربية، ومنعهم من إجراء أي نشاطات، خاصة تلك المتعلقة بدينهم أو عاداتهم أو تقاليدهم، وحتى ملابسهم، مما أدى إلى قيامهم بثورة ونشبت حرب أهلية في غرناطة، ولكن السلطة استطاعت إخمادها بالقوة. واستمرت حركات المسلمين، بين فترة وأخرى، ضد نقض الاتفاقيات والوعود التي وعدوا بها، حتى نشبت حرب أهلية أخرى في عهد الملك فيليبي الثاني، وعندها قرر الملك طردهم نهائيا من إسبانيا بمرسومه المشهور عام ١٦٠٩، أي قبل ٤٠٠ عام، وتسبب القرار في كارثة إنسانية كبيرة، وتوفي الكثير منهم في الطريق أو في البحر، وبذلك أسدل الستار على العرب نهائيا في إسبانيا، وطردوا إلى دول شمال أفريقيا، ولا تزال بقاياهم هناك حتى اليوم. راجع: مقال بعنوان "معرض لإحياء ذكرى خروج العرب والمسلمين من غرناطة"، صحيفة "الشرق الأوسط"، الأربعاء ٢٣ صفر ١٤٣٠ هـ ١٨ فبراير ٢٠٠٩ العدد ١١٠٤٠.

أشرف صالح محمد سيد، مقال بعنوان " الأندلس المجد الزائل"، مجلة نسمات، العدد الثاني ابريل ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، القاهرة ٢٠٠٠، ص٧.

هذا إلى جانب عوامل أخرى؛ خاصة بحب المغامرة والنهضة والكشف والرغبة في الكسب المادي والثراء السريع، وهذه عَلمت الناس عدم تقبل الأشياء السائدة مثل الجن وغيرها من الأساطير، ورغبة البعض الأخر من الناس في أن يحي حياة مليئة بالحوادث والمغامرات. كما رغب البعض في الهجرة إلى بلدان مأمونة وأماكن جديدة يستطيعون فيها ممارسة شعائرهم الدينية، كل هذا أدى لقيام حركة الكشف بجانب العوامل السابقة الأخرى.

وتجدر الإشارة إلى؛ أثر النهضة الأوربية في تقدم المعلومات الجغرافية وارتقاء فن الملاحة Navigation وتقدم صناعة السفن، واستخدام البوصلة البحرية وآلة الإسطرلاب، واستخدام البارود مما جعل من السهل القضاء على مقاومة الأهالي، كل ذلك شجع المغامرين على القيام بهذه الرحلات ولولا هذا التغير الكبير لما قامت رحلات الكشف الجغرافي.

مما سبق تتبين أهمية الكشوف الجغرافية في ما حققته من أعمال جليلة أفادت الأوربيين وساعدتهم في النهضة والتقدم التي تعيش فيها حتى عصرنا الحالي، ولكن حركة الكشوف جاءت على النقيض في الشرق، فحدث الاضطهاد المسيحي للمسلمين، وجهود البرتغاليين والأسبان لنشر الدين المسيحي لسكان المناطق التي يتم اكتشافها. ومع كل ذلك فهذه الحركة الكشفية قد قلبت كثير من الموازين في العالم بإثباتها لحقائق جليلة وقيمة، مثل ذلك إثبات كروية الأرض، وهذا عكس ما زعمه البابا في أنها مسطحة، وقد كانت هذه الحقيقة غير معروفة حتى أثبتها ماجلان في رحلته حول العالم.(٦)



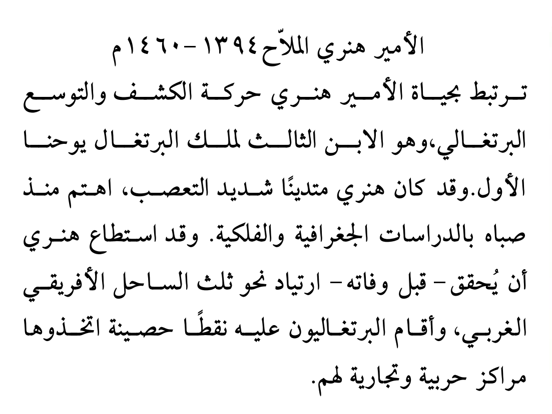
(٦) عبد العزيز سليمان نوار، محمود محمد جمال الدين، التاريخ الأوروبي الحديث من عصر النهضة إلى الحرب العالمية الأولى. – القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٩٩. ص ٥٥ – ٥٨.

الكشوف البرتغالية ونظام الاستعمار البرتغالي

إن الكشوف موضوعات سابقة على الاستعمار وهي التعرف على مجاهل جغرافية في العالم ومناطق لم تعرف والكشوف الجغرافية أحد نتائج النهضة الأوربية. وأول دولة اهتمت بالكشوف وبحركة البعوث الكشفية الجغرافية هي البرتغال ثم أسبانيا وكان من أهداف الكشوف البرتغالية تحويل المسلمين في غرب أفريقيا وغيرها من المناطق الآهلة بهم إلى المسيحية الكاثوليكية، وقد بدأت تظهر البرتغال كدولة بحرية في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي وبدأت تشكل قوة بحرية في الأطلنطي، وظهرت أساطيل بحرية برتغالية وأصبحت لشبونة ميناء بحري هام لوقوعها في منتصف الطريق بين موانئ البحر المتوسط والموانئ الواقعة على شاطئ المحيط الأطلسي.

الواقع أن تاريخ هذه الإمبراطورية يمر بثلاثة أدوار؛ الدور الأول (١٤١٥ – ١٤٥٧) في عهد الملك يوحنا الأول يخرج أسطول من البرتغال في ١٤١٥م يغزو ويستولى على سبته وقد شارك في هذا الغزو الأمير هنري الملاح بن يوحنا الذي عُين رئيساً لفرسان المسيح مكافأة له، وكان هنري يريد أن يكمل غزو بلاد المغاربة وتطهير الشواطئ الأفريقية الشمالية من القراصنة ولكنه حاول غزو ميناء طنجة وفشل في الاستيلاء عليه، فحول جهوده لاحتلال الشواطئ المراكشية على المحيط الأطلسي وأفريقية الشمالية ابتداءً من نهر السنغال ثم الاستيلاء على بلاد غانا وتشييد إمبراطورية يشرف عليها فرسان المسيح.





الأمير هنري الملاّح ١٣٩٤–١٤٦٠م

ترتبط بحياة الأمير هنري حركة الكشف والتوسع البرتغالي،وهو الابن الثالث لملك البرتغال يوحنا الأول.وقد كان هنري متدينًا شديد التعصب، اهتم منذ صباه بالدراسات الجغرافية والفلكية. وقد استطاع هنري أن يُحقق – قبل وفاته – ارتياد نحو ثلث الساحل الأفريقي الغربي، وأقام البرتغاليون عليه نقطًا حصينة اتخذوها مراكز حربية وتجارية لهم.

وكان تنفيذ هذا المشروع يتطلب نفقات عظيمة فعمد البرتغاليون في رحلاتهم لصيد الرقيق والتجارة به لتمويل المشروع، وأيضاً ساعد ذلك على نشر المسيحية في بلاد غانة. ومن هذا يتضح أن نشر المسيحية كان من العوامل التي دفعت هنري الملاح لوضع نواة الإمبراطورية البرتغالية في أفريقيا. ومما يذكر أنه في أيام هنري احتل البرتغاليون ماديرا وجزر الأزورا ووصلوا

لمصب السنغال والرأس الأخضر وبعد وفاة هنري ١٤٦٠م اجتاز البرتغاليون خط الاستواء إلى رأس سان كاترين San Kathrin.[٧]



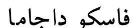
برثلميود دياز

كان هدف بعثته ارتياد بقية الساحل الأفريقي بالدوران حول القارة بقصد الوصول إلى الهند عن طريق البحر مباشرة، وقد نجح دياز في ارتياد الساحل نحو الجنوب حتى وصل إلى خليج ألجو في جو عاصف واسماه خليج الزوابع،ثم عاد عام ١٤٨٨م إلى البرتغال مبشرًا بأن الطريق إلى الهند أصبح واضح المعالم ،لذلك رأى الملك أن يغير اسم الخليج وسماه الرجاء الصالح لأنه بعث الرجاء في كشف الطريق البحري المباشر إلى الهند.

أما الدور الثاني خلال الفترة (١٤٩٧ – ١٥١٥)؛ وهذه الفترة هامة لأن البرتغاليون سيصلون لأراضي التوابل في الشرق الأقصى والبلاد ذات الحضارة القديمة، والبلاد الغنية بالشاي والحرير والسجاجيد والصيني. ولقد حمس كريستوفر كولومبس الأسبان للاتجاه نحو الغرب والأمريكتين وأدى نجاح ذلك لاتجاه البرتغاليين نحو الشرق.

فقام فاسكو داجاما Vasco da Gama عام ١٤٩٧م بأول رحلاته للوصول إلى الهند بطريق يدور حول أفريقية، فغادر لشبونة واجتاز رأس الرجاء الصالح ووصل إلى مالندي ثم ساحل الملبار بالقرب من قاليقوط التي كانت مركزاً هاماً لتجارة التوابل في الهند، وقد كان العرب المسلمين ينقلون إليها الأحجار الكريمة والمنسوجات على مراكبهم ثم يحملون منهم التجارة إلى هرمز وعدن، ولقد عاد البرتغاليون عن طريق مالندي تجنباً للتشباك مع العرب.





فاسكو داجاما

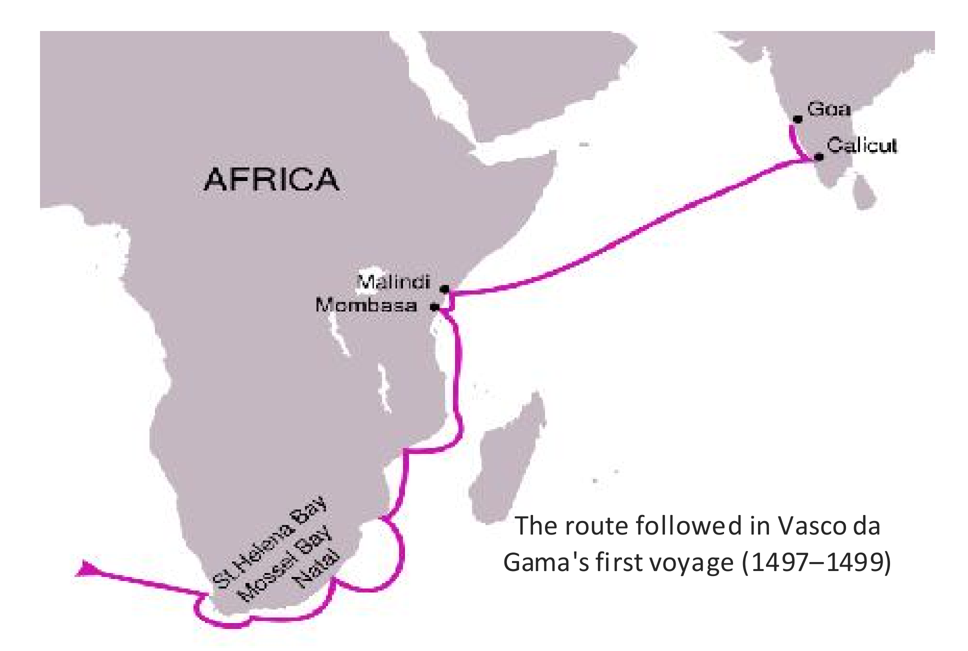
استطاع أن يطوف حول رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٩٧م، وأن يعبر المحيط الهندي ويصل إلى سواحل الهند الغربية سنة ١٤٩٨م ثم عاد إلى لشبونة سنة ١٤٩٩م وسفنه مشحونة بالتوابل والمنتجات الشرقية. وبذلك تم للبرتغال التخلص من احتكار تجّار البندقية والعرب بطريق التوابل.

(٧) لمزيد من التفاصيل عن الأمير هنري الملاح راجع:

Richard Henry Major, The discoveries of Prince Henry, the Navigator, and their results.- London: Sampson, 1877.

J. P. Oliveira Martins, The golden age of Prince Henry the Navigator.- London: Chapman and Hall. 1914.

Peter E. Russell, Prince Henry "the Navigator": a life.- New Haven: Yale University Press, 2000.



The route followed in Vasco da Gama's first voyage (1497–1499)

وقد كشفت رحلة فاسكو داجاما عن طريق الهند ضـرورة القضـاء علـى العـرب المسـلمين في هذه البحار للاستفادة من تجارة التوابـل. وفي عهـد الملـك عمانويـل السـعيد ملـك البرتغـال سـنة ١٥٠٠م خرج كابرال في رحلة وصلت للبرازيل عند خط عـرض١٦ جنوبـاً عـن طريـق الصـدفة ثم استأنف رحلته ووصل إلى قاليقوط وأشتبك مع المسلمين والعـرب فخـرب قـاليقوط ثـم عـاد إلى البرتغال، ثم أرسل السعيد حملة أخرى بقيادة فاسكوا دجاما.

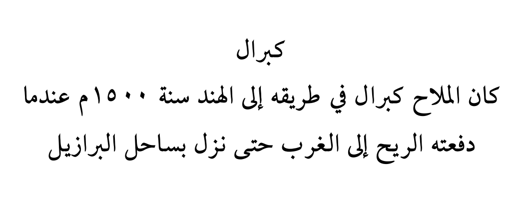
فخرج دجاما سنة ١٥٠٢م في رحلته الثانية وكان الغـرض مـن الرحلـة الانتقـام مـن العـرب والمسلمين والقضاء على سلطة الزامورين حاكم قاليقوط وإرغامـه علـى قبـول السـيادة البرتغاليـة وجعل السيطرة على تلـك البحـار مـن نصـيب البرتغـال. وقـام داجامـا بضـرب قـاليقوط وقتـل الزامورين، فهدد حاكم قاليقوط الجديد بإنزال العقوبات بالمسيحيين مثـل حـرق الكنـائس، ولكـن داجاما قام بعقد معاهـدات تجاريـة في صـالح البرتغـال مـع الأمـراء في كنـانور وكوشـين، وتـرك أسطولا صغيراً في مياه الهند وعاد إلى أوربا.(٨)

(٨) لمزيد من التفاصيل راجع:

يوميات رحلة فاسكو داجاما وتقريـر رحلـة دوز سـانتوس/ ترجمـة ودراسـة عبـد الـرحمن عبـد الله الشـيخ. – الطبعـة الأولى. – القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٥. (١١٥ صفحة)، (الألف كتاب الثاني؛ ١٧٠).

رغم كثرة ما كتب عن رحلة فاسكو داجاما وأهميتها في تاريخ منطقتنا العربية وأثارها الخطيرة، لكن نص هذه الرحلـة الأصلي لم يترجم، وهذه هي المحاولة الأولى لتقديم هذا النص الهام لرحلة داجاما، كما يضم الكتاب جانبـاً مـن نـص رحلة القس الدومنيكاني دوز سانتوس الذي وصل من لشبونة إلى موزنبيق، فيعد نص رحلة سـانتوس ونـص يوميـات داجاما هما أهم نصين متاحين عن الجهود الكشفية البرتغالية في السنوات الأخيرة مـن القـرن الخـامس عشـر وطـوال القرن السادس عشر.





كبرال
كان الملاح كبرال في طريقه إلى الهند سنة ١٥٠٠م عندما دفعته الريح إلى الغرب حتى نزل بساحل البرازيل

وعندما شرع العرب المسلمون في البحث عن طريق أخر إلى متاجر الشرق الأقصى متحاشين ساحل الملبار الذي يسيطر عليه البرتغاليون، قرر البرتغاليون الاستيلاء على مفاتيح الشرق الأقصى ومراكز المسلمين في الشاطئين الأفريقي والعربي وهرمز وعدن وفرض الإتاوات الكبيرة في تلك الجهات حتى تتحول التجارة إلى المراكز البرتغالية.

ومعنى خطة البرتغاليين الجديدة مهاجمة الملاحة الإسلامية في جميع وجوه نشاطها بدلاً من مناصبة العداء لأمير واحد، وإنشاء مركز جديد هام على ساحل الملبار يكون بمثابة نواة تجارية لإمبراطورية شرقية، وقد قام على تنفيذ هذه السياسة فرانسوا الميدا والفونسوا البوكيرك.

وكانت خطة فرانسوا الميدا تتمثل في الاكتفاء بالسيطرة على البحار الهندية فقط، وإنشاء محطات لتموين وحماية الأسطول، ولا يؤسس البرتغاليون أية مستعمرات. حيث أن إنشاء المحطات يحتاج إلى اقل عدد ممكن من القوات البحرية لضمان التجارة في هذه البحار، بينما تأسيس المستعمرات يحتاج إلى مجهودات كبيرة وقوات عظيمة وتوزيع القوى فيكون من المتعذر الدفاع عن المراكز والحصون البرتغالية إذا كثر عددها.

وقد نفذ الميدا برنامجه وانشأ المحطات ونشر النفوذ البرتغالي، ثم اشتبك مع المسلمين وحلفائهم من المصريين وانتصر عليهم في موقعة ديو البحرية ١٥٠٩[٩] وفي طريق عودته قُتل في معركة دارت في مكان مدينة الكاب الحالية في أفريقيا. وتمثلت خطة البوكيرك في ضرورة السيطرة على بحار الهند باحتلال المنافذ البحرية الموصلة إليها أي احتلال مدخل البحر الأحمر ومدخل الخليج العربي. فاستولى على مسقط ١٥٠٧ ثم سُلمت إليه هرمز، ثم استولى على جوا " الواقعة على ساحل الملبار" واستولى على ملقا، وقد حاول الاستيلاء على عدن للسيطرة على البحر الأحمر لكنه فشل.

وعن تفاصيل معركة ديو البحرية فبراير ١٥٠٩م راجع:
(9)Clifford J. Rogers, Readings on the Military Transformation of Early Modern Europe.- San Francisco :Westview Press, 1995. pp. 299 –333

وبالنسبة إلى الدور الثالث من تاريخ الإمبراطورية (١٥٥١ – ١٥٨٣)؛ فقد حاول خلفاء البوكيرك صيانة المراكز التي أوجدها والمحافظة عليها والسير على سياسته، ولكنه من منتصف القرن السادس عشر دب الضعف في الإمبراطورية بسبب النزاع بين البرتغال ودول المماليك والدولة العثمانية، وانتشار النفوذ الأسباني في البرتغال واستيلاء ملك اسبانيا الثاني على عرش البرتغال بعد موت ملكها هنري، وإهمال الأسبان شأنها فأدى ذلك إلى مهاجمة الهولنديون للمراكز البرتغالية.

ويمكن إجمال نظام الاستعمار البرتغالي في نقاط كالتالي:

- غرض البرتغال الاستحواذ على تجارة التوابل واحتكارها فاصطدموا مع العرب المستأثرين بهذه التجارة وزادت الاختلافات الدينية من حدة هذا الاصطدام.
- كان البرتغاليين يريدون بسط نفوذهم على ساحل المليار "مركز تجارة التوابل" والسيطرة على الملاحة في البحار الهندية، ويتضح ذلك من نشاط كل من فاسكو داجاما وفرانسوا الميدا والفونسوا البوكيرك.
- جهودهم في إنشاء المحطات المسلحة التي تمون أساطيلهم وتراقب منافذ البحار الهندية وحراستها واتخاذها مركز لتجارة التوابل، لذلك فوصف هذه المراكز بالإمبراطورية مع ما يستلزم إنشاء إمبراطورية من تنظيم واستقرار أمر لا يصور الحال على حقيقته.
- أدى نظام الحكم البرتغالي في المناطق المستعمرة إلى ضياع هذه الإمبراطورية وانحلالها، فقد جمعت السلطة في يد نائب الملك وكان شبيهاً بالوالي في مصر، وكان لا يمكث في الحكم أكثر من ثلاث سنوات فكان كره السكان للحكم البرتغالي بسبب جمع الثروات بالشدة في هذه الفترة، أضف إلى ذلك التعصب الديني أيضا لأنهم فرضوا الديانة المسيحية الكاثوليكية، كما ادخلوا محاكم التفتيش "فمن لم يتنصر تصدر ضده حكم يفيد أن هذا الإنسان ليس كاثوليكي فيقوموا بإحراقه حياً".

الجدير بالذكر؛ أن البرتغال نفسها لم تتغير برغم هذه الإمبراطورية الضخمة، فمع أن لشبونة كانت العاصمة تعيش في رخاء وازدهار بسبب تجارة الهند، فإن داخل البلاد كان في تأخر. فالأسطول والحملات والحروب تحتاج لأيدي عاملة فعمدوا إلى تجنيد الفلاحين، فخويت الأرض واستخدموا الرقيق، وانتشر البؤس في البلاد وعاش كافة الشعب في فقر على الرغم من ثراء البرتغال.(١٠)

(10) For more details about Portuguese Empire see: Russell-Wood, A.J.R.- The Portuguese Empire 1415-1825.- John Hopkins: University Press, 1998.

في النصف الثاني من القرن السادس عشر، بدأ الوهن والضعف يدب في عظام الإمبراطورية البرتغالية، ويُمكن رد ذلك إلى النظام الاستعماري البرتغالي، فكما قدمنا سابقًا، لم يكن الاستعمار البرتغالي ذلك الاستعمار الذي يوطد أركانه بالتعمير والبناء، وإنما اتجه البرتغاليون إلى جمع أكبر قدر من الأموال وذلك عن طريق إتاوات والضرائب، الأمر الذي أثقل كاهل السكان وأرهقهم كثيرًا، أضف إلى ذلك أسلوب التعامل مع السكان الأصليين والذي اتسم بالعدوانية والظلم والجور، لقد كانت هذه عوامل أدت إلى أن تكون السيطرة البرتغالية على مستعمراتها سيطرة هشة، ومرفوضة من قبل السكان الأصليين.

أضف إلى ذلك؛ الصراعات البحرية للبرتغاليين وخصوصًا مع العثمانيين، فقد كانت البحار ميدانًا لقيام صراعات دولية كثيرة، ومن أطراف مُتعددة، ومن بين هذه الأطراف البرتغال، فقد اتسعت رقعة الإمبراطورية، مما كان له أثر سلبي على البحرية البرتغالية، إذ أنها استُنزِفَت في معارك وصراعات كثيرة ومع أطراف متعددة، ومن بينها الدولة العثمانية. كما انتشر النفوذ الاسباني في البرتغال نفسها، حتى استطاع الملك الإسباني فيليب الثاني احتلال البرتغال بعد وفاة الملك هنري. زد على ذلك؛ تدخل الهولنديين في شؤون المستعمرات البرتغالية حتى أنهم أنشئوا شركة الهند الشرقية الهولندية.(١١)



أول خريطة تبيّن ترا نوفا والبرازيل

(١١) شركة الهند الشَّرقية الهولندية شركة تجارية ضخمة أسهمت في توطيد الحكم الهولندي فيما يعرف الآن بإندونيسيا. ومنحت الحكومة الهولندية في عام ١٦٠٢م الشركة حقَّ احتكار حركة التجارة بين آسيا وهولندا. وقد حصلت الشركة أيضًا على صلاحيات حكومية وعسكرية واسعة النطاق، كان من بينها حق السيطرة على الأراضي وخوض الحروب في آسيا. ونجحت الشركة بحلول القرن الثامن عشر الميلادي في السيطرة على تجارة القِرفة والقرنفل وجوز الطيب في شرقي الهند. وكان للشركة فروع تجارية عديدة في كثير من البلدان الآسيوية، وسيطرت الشركة أيضًا على أجزاء مما يعرف الآن بجنوب إفريقيا وسريلانكا ومعظم إندونيسيا الحالية. وقد تزايد في القرن الثامن عشر حجم الطلب على المنسوجات من الهند والشاي من الصين والقهوة من الجزيرة العربية وجاوه، وأصبح الإقبال عليها أكبر من الإقبال على التوابل. وقد واجهت شركة الهند الشرقية الهولندية منافسة قوية من شركة الهند الشرقية البريطانية ومن سائر الشركات التجارية. ولكن الشركة أفلست ثم أُلغيت عام ١٧٩٩م. راجع:
Glenn J. Ames, The Globe Encompassed: The Age of European Discovery (1500-1700).- University of Toledo: Prentice Hall Copyright, 2008. pp. 102 - 111.

الكشوف الأسبانية

في الحقيقة؛ قامت البرتغال بكشوفها على يد برتغاليين، ولكن الأسبان قامت استكشافاتهم على يد أجانب وكان كريستوف كولمبوس (١٤٥١ – ١٥٠٦) إيطالي درس الملاحة عمليا ودرس الخرائط وخرج من قراءاته ودراساته بفكرة فحواها أن الوصول للهند يمكن عن طريق السير للغرب. حيث أنه إذا أبحر غرباً من مضيق جبل طارق عبر المحيط الأطلسي استطاع أن يصل الشواطئ الشرقية لأسيا، ولم يعبأ بالخرافات السائدة في ذلك الوقت والقائلة " بأن من يتوغل غرب أسبانيا معناها نهاية العالم، وأن المحيط الأطلسي طبقاً للأساطير به كائنات غريبة وجن ومياه تتحول لنيران مشتعلة، وأن هذا المحيط نهاية سطح الأرض".

ولقد رُفض مشروع كولمبوس من ملوك البرتغال وفرنسا، ولكنه عرض مشروعه على الملكين الإسبانيين وأخبرهم بأنه سوف يتقدم غرباً ويصل لطريق التوابل، وبعد خمس سنوات من الدراسة رُفض مشروعه. فتقدم مدة أخرى لملكي اسبانيا واستعان بأحد رجال الدين وسيدة ذات حظوة كبيرة لدى الملكة فوافقا على مشروع كولمبوس لأسباب دينية واقتصادية.

وتتمثل الدوافع الدينية في الرغبة في تحويل سكان البلاد الأصليين للمسيحية، حيث كان الإسلام شبح بالنسبة لدول غرب أوربا فيهدد بالويل وبمثابة خطر على الأبواب بالنسبة لأسبانيا والبرتغال، فكان رد الفعل أن الملكين الكاثوليكيان يكرهان الإسلام فكانت التعليمات لكولمبوس التقدم غرباً لتنصير المسلمين والتمهيد لحملة إلى بيت المقدس.وتمثلت الدوافع الاقتصادية في جلب الأموال لثراء البلاط الأسباني وضم بلاد جديدة لأسبانيا والحصول على منتجاتها.

في٣ أغسطس ١٤٩٢م خرج كولمبوس من أسبانيا بثلاث سفن على رأسها سفينة سانتا ماريا Santa Maria وكان يقودها. ومضت الأيام والأسابيع لا يعثرون على الأرض فحل اليأس على البحارة المرافقين له حتى ظهرت الأرض لأول مرة، وكانت الأرض هي جزيرة من جزر الساحل الأمريكي الشرقي "بهاما" لم تكن معروفة للعالم في ذلك الوقت واعتقد كولمبوس أنه وصل لجزء الهند الشرقية. كان ذلك في ١٢ أكتوبر ١٤٩٢ فنزل عليها مع الضباط والبحارة وكان كولمبوس يحمل الشعار الملكي، والضباط يرفعون علمين الصليب الأخضر والأحرف الأولى لكل من فرديناند وإيزابيلا.

ونادي كولمبوس أن هذه الجزيرة تابعة للعرش الأسباني، ثم وصل إلى كوبا وسماها أسبانيولا أي أسبانيا الصغيرة الجديدة، وعاد كولمبوس إلى أسبانيا والسفينة تحمل سلع غريبة عن

أسبانيا مثل البطاطس والكاكاو والدخان والبن، كما حمل معه بعض سكان أمريكا الجنوبية وعندما وصل أنعمت عليه الملكة بلقب أدميرال.(١٢)

ولقد قام كولمبوس بثلاث رحلات خلال الأعوام (١٤٩٣ – ١٤٩٨ – ١٥٠٢) للساحل الشرقي الأمريكي قرب بنما وشاطئ أمريكا الجنوبية، كما كشف جزر أخرى من جزر الهند الغربية، كل ذلك وهو مقتنع بأنه وصل لشرق الهند وأنه سوف يصل الطريق التوابل، وأنه اكتشف جزء في المحيط الهادي. ويذكر أن كولمبوس كان يرتدي الزى الديني الخاص بطائفة الفرنسيسكان وقد رسُمت الصلبان على أشرعة السفن التي أقلته في رحلاته.(١٣)

وكان نجاح رحلة كولمبوس الكشفية يعني ظهور منافس للبرتغال التي كانت حريصة على الاحتفاظ بالأقاليم الجديدة ملكاً لها. وحاذت البرتغال على مرسوم بابوي يمكنها بمقتضاه التوسع شرقاً والاستيلاء على طريق التوابل والبلاد التي تكتشف، فبدأت المشاحنات بين الدولتين (البرتغال وأسبانيا) ولجأ كل منهم إلى بابا روما فتصور البابا خط وهمي من القطب الشمالي للقطب الجنوبي وعلى بعد ١٠٠ فرسخ غرب الجزر الواقعة في أفريقيا، ويكون لأسبانيا الأقاليم غرب هذا الخط وللبرتغال الأقاليم شرق هذا الخط. فاعترضت البرتغال فنقل هذا الخط الوهمي ٣٦٠ فرسخاً غرباً وأصبحت البرازيل برتغالية ورضت أسبانيا بهذا التقسيم، ولكن دول أخرى شكت وهاجمت هذا القرار (فرنسا، انجلترا، هولندا) ووصفوا ذلك بأنه اعتداء وقع على حرية البشر فكيف يقسم العالم على دولتين، ولقد كان البابا يحب الدولتين لأن كلاهما كاثوليكيتين وأكثر الدول طاعة له، ولهذا أبرمت معاهدة تورد يسيلاس في ١٤٩٤ بين أسبانيا والبرتغال لتثبيت هذا الخط الوهمي بينهما.





كريستوف كولمبوس

(١٢) رتبة مثل الرتبة العسكرية اللواء.

(١٣) مما يذكر هنا أن؛ أمريجو فيزوبوتشي الرحالة الإيطالي أكد أن المكتشف ليس أسيا ولا الهند وإنما عالم لم يكتشف من قبل فأطلق اسمه على القارتين.

الجدير بالذكر؛ أن كولمبوس في الرحلة الأخيرة قام بشحن شحنات آدمية من تلك الجزر وشجع تجارة الرقيق، والمسيحية لا توافق على نظام الرقيق أساسا ولا نظاماً وتجارة، فكان ذلك سببً للهجوم عليه في البلاط وأمر ربان السفينة بتقييد كولمبوس وتكبيله بالأغلال لأنه أساء استخدام السلطة، وقيل أنه عاش بقية حياته منزويًا وقد أمر أن تدفن معه الأغلال في مدفنه ويكتب على قبره أنه مات مظلوماً، ولكن عندما توفى كولمبوس عام ١٥٠٦ كتب المواطنون على مقبرته "ذلك الذي أعطى أسبانيا عالماً جديداً".(١٤)

الواقع أن؛ الوجود الأسباني في أمريكا الجنوبية كان وجود هائلاً فهناك حملات استكشافية اكتشفت عدة أماكن نذكر منها المكسيك وأمريكا الوسطى وبيرو. ففي عام ١٥١٩م توجه فرناندو كورتيز لغزو المكسيك وكانت تسكنها قبائل الهنود الحمر " الأزتك أوالأزاتكة" وهم قم ذو حضارة عرفوا الزراعة وعبدوا الشمس، ولكن كورتيز ألقى الرعب في قلوبهم فكانوا لا يعرفون الخيل ولا المدفعية وكانوا بالنسبة للأسبان شعب متخلف. وقد استولى كورتيز على مساحات كبيرة من أراضي المكسيك وانشأ ميناء وزحف على العاصمة وعزل ملك المكسيك بعد هزيمته، واستولى على كثير من الذهب والفضة فكانت المكسيك عاصمة الفضة وكان كل هذا في حوزة أسبانيا، حيث أصدر شارل الخامس إمبراطور الدولة الرومانية مرسوم بتعيين كورتيز حاكم عام على "أسبانيا الجديدة" وهو الاسم الذي أطلقه الأسبان على المكسيك. وبفضل سلاح المدفعية وسلاح الفرسان تقدم الأسبان لأمريكا الوسطى وأسسوا عدة مدن جديدة بها.

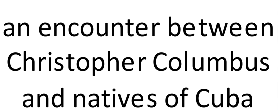
أما كشف بيرو فيرتبط بالمغامر الأسباني فرانسوا بيزار هذا الرجل كان يجهل القراءة والكتابة وكان فقير وطموح جداً، وعندما سمع عن الذهب والفضة اتجه إلى الجزر الشرقية لأمريكا الجنوبية على رأس مائة من أتباعه فوجد هناك قبائل الإنكا، عبدوا الشمس وكانت لهم طقوس خاصة ويعيشون في بدائية ولا توجد لهم عملة ولكن نظام المقايضة. ومن الغريب أنه عام ١٥٢٩م جعل ملك اسبانيا من فرانسوا حاكم على بيرو وبفضل ذلك فتح فرانسوا ما تبقى من

(١٤) ولمزيد من التفاصيل راجع:

عبد الفتاح حسن أبو علية، تاريخ أوروبا وأمريكا الحديث. – الرياض: دار المريخ، ١٩٧٩، ص ١٦. زينب عصمت راشد، تاريخ أوروبا الحديث، القاهرة. – دار الفكر العربي، ١٩٩٨. ص ٤٧. جورج هارب، الموجز في تاريخ الكشف الجغرافي/ تعريب عبد العزيز طريح. – الإسكندرية: مؤسسة الثقافية الجامعية، ١٩٩٣. (ص ١٤٣، ص ١٦٣). أحمد رمضان أحمد، الرحلة والرحالة المسلمون، جدة. – دار البيان العربي (بدون تاريخ)، ص٢٠٠. حسين مؤنس، تاريخ الجغرافيا والجغرافيين في الأندلس. – القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٨٦. ص ١٧٢. خالد أبو بكر، مقال بعنوان "اكتشاف أمريكا.. مراحل ورجال وآثار"، إسلام أون لاين، متاح بتاريخ ٢٠ أبريل ٢٠٠٩، على الرابط: (http://www.islamonline.net/Arabic/history/1422/03/article07.SHTML)

بلاد بيرو، كما أسر ملك الإنكا الذي كان يريد أن يفتدي نفسه بملء الحجرة التي كان بها ذهباً، وقد قبل بيزار وبعد ذلك تم حرق ملك الإنكا في حضور بعض الرهبان فكان ذلك نقطة سوداء في تاريخ الاستعمار الإسباني.

وفي عام١٥٤١م قتل فرانسوا بيزار في ليما على يد بعض أعدائه، ولم يتوقف الأسبان عند هذا الحد حيث سيطروا على أمريكا الجنوبية ماعدا البرازيل التي كانت تحت حكم البرتغاليين. ويتضح مما سبق أن الكشوف الجغرافية الإسبانية لم تكن إسبانية خالصة، فقد قام بها أجانب أمثال كريستوف كولمبوس.[١٥]


an encounter between Christopher Columbus and natives of Cuba



(١٥) من الجيد هنا الإشارة إلى أنه قد تبين من دراسة خارطة محفوظة في مكتبة الكونغرس في واشنطن أن ماركو بولو قد يكون اكتشف الساحل الغربي من القارة الأمريكية قبل حوالي مائتي عام من كريستوف كولومبوس، وفق ما ورد بمجلة "في اس دي" الفرنسية. ويفيد تقرير وضعه حافظ المكتبة عام ١٩٣٣ وهي السنة التي احضر فيها مارتشيان روسي المواطن الأميركي الايطالي الأصل الوثيقة إلى المكتبة، أنها " تصور سفينة إلى جانب خارطة تظهر قسما من الهند والصين واليابان والهند الشرقية وأميركا الشمالية".
وأوضح المحرر في المجلة الفرنسية الكاتب تيري سيكريتان أن الوثيقة المحفوظة تحت عنوان "خارطة مع سفينة" تظهر "شعارا مرسوما على السفينة هو تخطيط لأحرف اسم ماركو بولو. والمضيق الذي يفصل بين سيبيريا والاسكا هو موضوع الخارطة الرئيسي". وكتب سيكريتان أن مكتب التحقيقات الفدرالي الأميركي (اف بي اي) اخضع الخارطة عام ١٩٤٣ لفحص بالأشعة ما فوق البنفسجية " كشف عن وجود ثلاث رسمات على هذه الخارطة الواحدة فوق الأخرى ما يشير إلى تحديثها مع الوقت". وأورد التقرير عدة فرضيات منها أن يكون "ماركو بولو الذي عاد إلى البندقية عام ١٢٩٥ أعاد معه إلى أوروبا أولى المعلومات حول وجود أميركا الشمالية منذ المعلومات التي جمعها المستكشفون الشماليون". وكتب تيري سيكريتان انه "إذا كان ماركو بولو حقا من وضع هذه الخارطة، فهذا يعني انه وصل إلى القارة الأميركية قبل قرنين من كولومبوس ورسم المضيق الذي يفصل آسيا عن أميركا قبل أربعة قرون من ظهور أميركا على الخرائط الأوروبية". وينسب اكتشاف أميركا إلى كريستوف كولومبوس عام ١٤٩٢. وذكر سيكريتان بان ماركو بولو لم يذكر مرة في رواياته عن أسفاره اكتشاف أي ارض في منطقة الاسكا، إلا انه اسر لأصدقائه وهو على فراش الموت "لم اكتب نصف ما رأيت".
خبر بعنوان "ماركو بولو قد يكون اكتشف اميركا قبل كولومبوس"، منشور بتاريخ ٨ أغسطس ٢٠٠٧، شبكة العلمانيين العرب، على الرابط: (http://www.3almani.org/spip.php?breve80)

رحلة ماجلان حول العالم ونتائجها

لقد كان كل من كريستوف كولمبوس صاحب الكشوف الإسبانية ومكتشف العالم الجديد، وفاسكو داجاما مكتشف طريق الهند من أعظم البحارة القدامى الذين قاموا بأعمال جليلة في تاريخ الكشوف الجغرافية، فقد تخيلوا أن الوصول للهند يمكن عن طريق السير ناحية الغرب، وقد جاء ماجلان وتخيل أن القدر حفظه للقيام بأعمال ضخمة تتمثل في فكرته بالوصول إلى جزر التوابل في الهند الشرقية عن طريق الغرب، ويتبين أن كان هؤلاء كانت تحدوهم روح صليبية شديدة بالنسبة لهذه الكشوف.

يعتبر ماجلان أحد عظماء عملية الكشف الجغرافي، وكان برتغالياً من أسرة نبيلة، وقد اشترك في حملة البرتغال للهند بقيادة الميدا، وكان ماجلان يرى أنه يستطيع الوصول إلى جزر التوابل في الهند الشرقية عن طريق الغرب بالطواف حول أمريكا الجنوبية حتى أقصى طرفها الجنوبي والانتقال إلى المحيط الأخر (المحيط الهادي).



فرديناند ماجلان

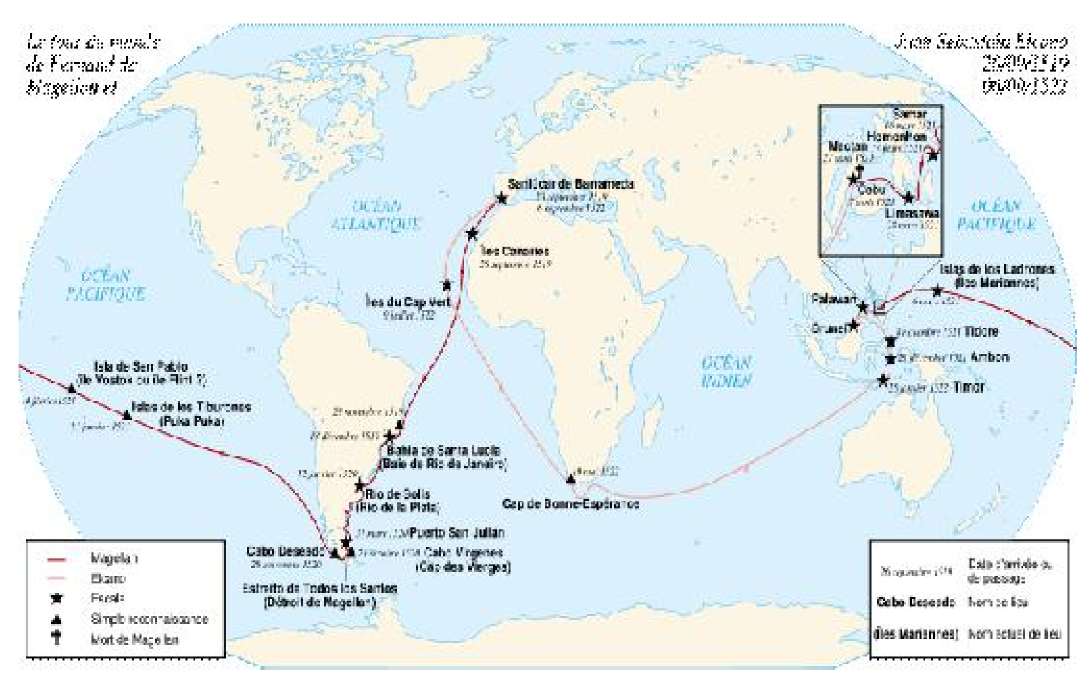
وقد حدث خلاف بين ماجلان وملك البرتغال فذهب للبلاط الأسباني عارضاً خدماته وعرض مشروعه على شارل الأول موضحاً له أن جزر التوابل تقع غرب الخط المستقيم وأنها سوف تكون ملكاً لأسبانيا، وقد رحب البلاط الأسباني بهذا المشروع، وكان شريك ماجلان في المشروع فاليرو الذي يمثل الجانب العلمي فهو على علم بالدراسات الجغرافية ورسم الخرائط، وماجلان على دراية بالناحية الملاحية فكل منهما يكمل الآخر.

وفي عام ١٥١٨م وقع شارل الأول ملك أسبانيا مع ماجلان عقد الرحلة ويشاركه فيها عالم الجغرافيا فاليرو، وكان الاتفاق مع الملك على أخذ ٥٠% من الأرباح، وإذا اكتشفوا ستة جزر يأخذون جزيرتين ويكون ماجلان حاكم على أي جزيرة يكتشفها، وقد زودهم الملك بخمس سفن وكان الملك حريص على عدم الإساءة لملك البرتغال، وطلب من ماجلان الالتزام بخط التقسيم الوهمي بين أسبانيا والبرتغال، وآلا يكتشف أي شيء إلا في نطاق أسبانيا.

وفي عام ١٥١٩م أقلعت السفن من سان لوكار وأبحرت في الأطلسي جنوباً ثم الجنوب الغربي حتى أمريكا الجنوبية إلى خط عرض ٤٩ درجة جنوباً. ثم عبر مضيق بنما بين جبال شاهقة أطلق عليها ماجلان مضيق الأحد عشر ألف عذراء ثم أُطلق عليها مضيق ماجلان. وعبر المحيط الهادي الذي أطلق عليه ماجلان اسم الباسافيكي Pacifique ثم الإبحار شمالاً في اتجاه الغرب آلاف الأميال غرب أمريكا حتى وصل لبعض الجزر في بحر الصين وسماها (الفلبين) نسبة إلى فيليب ولي العهد، ولقد كان اعتقاد ماجلان الخطأ في أنه وصل لجزر التوابل بسبب التقديرات الخاطئة أدى إلى أن تصبح الفلبين من ممتلكات أسبانيا.



مسار رحلة ماجلان



فقد وصل الأسبان بقيادة فرديناند ماجلان للفلبين وبدأت حركة التنصير بعد أن وطد ماجلان علاقته مع الراجا هومايون حاكم جزيرة سيبو، حيث اعتنقت المسيحية زوجة الراجا هومايون وبعد ذلك اعتنقها هو نفسه. وتم عقد اتفاق يقضي بأن يوليه ماجلان ملك الجزر المجاورة تحت التاج الأسباني مقابل أن يساعده على تنصير الشعب الفلبيني، وانتقل الأسبان إلى جزيرة صغيرة بالقرب من سيبو على بعد كيلومترات تدعى جزيرة ماكتان عليها سلطان مسلم يدعى هو الداتو لابو – لابو،[١٦] ويذكر البعض أنه عُرف باسم Kaliph Pulaka.[١٧]

علم الأسبان بإسلام حاكم جزيرة ماكتان فطاردوا نساءها وسطوا على طعام أهلها فقاومهم الأهالي فأضرم الأسبان في أكواخ السكان النار وفروا هاربين،[١٨] وقد رفض لابو الخضوع لماجلان وحرض سكان الجزر المجاورة عليه ورأى ماجلان الفرصة مناسبة لإظهار قوته وأسلحته الحديثة فذهب مع بعض جنوده لتأديبه.[١٩]

وفي صباح ٢٧ أبريل ١٥٢١ حدثت معركة ماكتان، وطلب ماجلان من لابو لابو التسليم قائلا (إنني باسم المسيح أطلب إليك التسليم ونحن العرق الأبيض أصحاب الحضارة أولى منكم بحكم هذه البلاد) فأجابه لابولابو (إن الدين لله وإن الإله الذي نعبده هو إله جميع البشر على اختلاف ألوانهم) ثم هجم على ماجلان وقتله بيده وشتت شمل فرقته ورفض تسليم جثته للأسبان، ولا يزال قبر ماجلان داخل الفلبين شاهداً على رفض المسلمين لطمس هويتهم.



Lapu Lapu

(16) Zaide, Sonia M. The Philippines: A Unique Nation.- Philippines : All Nations Publishing Co, 1994. pp. 83–84.

(17) Josiah C. Ang, PM, Historical Timeline of the Royal Sultanate of Sulu Including Related Events of Neighboring People, Center for Southeast Asian Studies, available in 25 April 2009 at: (http://www.seasite.niu.edu/Tagalog/Muslim/historical_timeline)

(١٨) مجدي إبراهيم محرم، مقال بعنوان "وفاء سلطان بين الضلال والإضلال "، جريدة شباب مصر، منشور بتاريخ ١٧ أغسطس ٢٠٠٥، على الرابط: (http://shbabmisr.com/?xpage=view&EgyxpID=931)

(19) "The Death of Magellan 1521", Eye Witness to History, available in march 2001 at: (http://www.eyewitnesstohistory.com/magellan.htm).

أما الحملة بعد وفات ماجلان؛ فقد استمرت الحملة ووصلت بعد ٢٧ شهر في البحر بحثاً عن هذه الجزر(جزر التوابل) إلى الهند ، ثم غادرته إلى رأس الرجاء الصالح، ثم المحيط الأطلسي وشمالا إلى أسبانيا في اشبيلية بعد أن قضت ثلاث سنوات. كان طاقم الرحلة يتكون من (٢٠٠) بحار وعادت بـ (١٨) بحار بعد موت وقتل معظمهم، وبعد أن كانت الحملة مكونة من خمس سفن عادت بسفينة واحدة هي "فكتوريا" واضطلع بقيادتها جوان سبستيان ديلكانو.[٢٠]

وقد نتج عن هذه الرحلة عدة أمور هامة؛ فقد قال البابا أن الأرض مسطحة ولكن ماجلان اثبت أنها كروية وكانت تلك حقيقة غير معروفة، بالإضافة إلى تصحيح مواقع الأرض المستكشفة والخرائط وتغير خريطة العالم. كما ثبت أنه هناك عالم جديد (الأمريكتين) فتغيرت الخرائط العالمية، كما تم اكتشاف محيط مجهول هو المحيط الهادي ومضيق ماجلان الموصل بين لمحيط الهادي والأطلسي.

وبذلك تعد الكشوف البرتغالية أهم الكشوف وكان من نتائجها مع الكشوف الأسبانية أن تضاءلت أهمية البحر المتوسط من الناحية التجارية وانتقلت إلى المحيط الأطلسي، كما كانت هناك كشوف تابعة لهاتين الدولتين مثل إنجلترا وفرنسا وهولندا وقد دخلت متأخرة في هذه الحركة.



Magellan's ship Victoria

Source: Ortelius, *Maris Pacifici quod vulgo Mar del Zur, 1950*

(٢٠) ويل ديورانت، قصة الحضارة، ماجلان وكشف الأرض (ص٩١٨٤)، متاح بتاريخ ٢٤ أبريل ٢٠٠٩، على الرابط: (http://islamport.com/w/amm/Web/2482/10096.htm)

الكشوف الهولندية

لقد أدى قيام حركات الإصلاح الديني في أوروبا، إلى انقسام الأوروبيين إلى كاثوليك وبروتستانت، الأمر الذي نتج عنه اشتعال الحروب الدينية الهوجاء التي هزت أوروبا، ولعل أشد وأقسى تلك الحروب هي حرب الثلاثين عامًا (١٦١٨-١٦٤٨م)، تلك الحرب التي اكتوت بنيرانها جميع أرجاء أوروبا، وانتهت أخيرًا إلى حرية العقيدة والتسامح الديني، وذلك على إثر توقيع اتفاقية وستفاليا بين الأطراف المتحاربة.

ورغم أن الحرب كانت مصبوغة بصبغة حرب دينية في بداية أمرها، إلا أنها سرعان ما اتسعت لتحقيق أهداف سياسية واقتصادية للدول الأوروبية المختلفة، وكانت بالطبع هولندا من بين هذه الدول.وقد استفادت هولندا كثيرًا من حرب الثلاثين عامًا، والتي كفلت لها عند نهايتها وتوقيع اتفاقية وستفاليا، كفلت لها الاستقلال، إذ أن هولندا كانت خاضعة لإسبانيا قبل الحرب، ومن هنا بدأت الرغبة الهولندية في اقتحام ميدان الكشوف الجغرافية والاستعمار.

يُمكن رد أسباب اقتحام هولندا ميدان الكشوف الجغرافية والاستعمار، إلى ثلاثة عوامل مترابطة، وهي: الموقع الجغرافي لهولندا، حيث تقع هولندا على نهر الراين الذي يخترق أوروبا، مما يُتيحُ لها أن تلعبَ دور اقتصادي أكثر فعالية في أوروبا، وذلك بأن تكون مركز تجاري لتجارة التوابل القادمة من الشرق، حيث أن موقع هولندا يُتيحُ نقل هذه التجارة بسهولة لدول أوروبا، في مختلف الأماكن، وبطرق سهلة وغير مُكلفة. وذلك على الرغم من أن البرتغال هي المُكتشِفَة لطريق التجارة الجديد، إلا أن موقعها لم يكن الموقع المثالي، كي تلعب دور المحطة التجارية الرئيس لهذه التجارة. ويكمن العامل الثاني في أن البرتغاليين هم المُحتكرون لتجارة التوابل، وذلك بسيطرتهم على طرق التجارة، الأمر الذي نتج عنه تذمر التجار الهولنديين لهذا الاحتكار، ودعاهم إلى تأسيس شركة الهند الشرقية سنة ١٦٠٢م، والتي حصلت على امتياز احتكار التجارة، وغزو الأراضي، وعقد المُعاهدات وبناء الحصون.

وأخيرًا؛ كان تَحطُّم قوة البرتغال على يد إسبانيا، دافعًا حاسمًا لهولندا كي تقتحم ميدان الاستعمار، وذلك لتُعزِز من موقعها التجاري عن طريق الانقضاض على أملاك البرتغال في آسيا في كل من الهند والهند الشرقية، الأمر الذي نتج عنه تقلص الأملاك البرتغالية.

أما بالنسبة للمستعمرات الهولندية؛ فقد اتجهت هولندا في الاستعمار، إلى شطري العالم الشرقي والغربي، وذلك يشمل امتدادها في آسيا، وأفريقيا، والأمريكيتين، بل أستراليا أيضًا، ولم تُشِر المصادر التاريخية إلى اسم ملاح هولندي بعينه، أو مستكشف هولندي بارز، كما كان الأمر في البرتغال وأسبانيا.

كان هدف الهولنديين اقتصادي بحت، فقد أقاموا مستعمرات ساحلية على ساحل غانة، وامتلكوا جزيرة موريشيوس، كذلك فقد استطاع الهولنديون اكتشاف ساحل شمال أستراليا، حيث اكتشفوا تاسامانيا و نيوزيلاندا، بالإضافة إلى أن اندونيسيا تُعتبر هي قاعدة هولندا الرئيسية في الشرق.

وفي الغرب كانت الجهود الهولندية في الأمريكيتين، مُنصبة أكثر في أمريكا الجنوبية عنها في أمريكا الشمالية، وقد استطاعت شركة الهند الغربية الهولندية أن تزيدَ من مساحة الأراضي الهولندية في أمريكا الجنوبية، وذلك بتأسيسهم لعدة مُستعمرات منها مُستعمرة جيانا Guiana، كذلك فقد استولى الهولنديون على بائيا، وأولندا، وريسيف، ونيوأمستردام.

الجدير بالذكر؛ أن نظام الاستعمار الهولندي كان يهدف إلى تحقيق أكبر قدر من المنفعة الاقتصادية من المُستعمرات، فكان ذلك هو المسعى الدائم والغالب على السياسة الهولندية في إدارة مُستعمراتها، وقد مارسوا في ذلك عدة سياسات تهدف إلى تحقيق أهدافهم التجارية بوقت قصير، وبتكلفة أقل، وبمنفعة اكبر.ومن سياساتهم التي لجئوا إليها في أول الأمر، سياسة التجارة المباشرة مع أهالي المُستعمرات، إلا أنهم عدلوا عنها، واستبدلوها بسياسة الاستغلال الاقتصادي لأهالي المُستعمرات، حيث أنها تَكُفُ عنهم نفقة المقل، وهي أكثر بحًا من التجارة المُباشرة، التي يتناصف في الربح بين الطرفين البائع والمُشتري. ولذلك فقد بدأت شركة الهند في دفع أثمان المحاصيل الزراعية مُقدمًا ولسنوات لضمان احتكارهم لها، وبيعها بالثمن الذي يترائى لهم، ومن جهة ثانية يكون للهولنديين الحق في انتزاع الأراضي من أصحابها، في حالة عدم وفاء المزارعين بالعقود، وهذا ما تم فعلاً في جزيرة باندا وملوكا، وأمبونيا.

الواقع أن؛ هولندا كانت تلجأ في إدارة مُستعمراتها -وخصوصًا اندونيسيا- إلى أسلوب السيطرة العليا، وهو إدارة الحصون والمؤسسات التي تُمكِن هولندا من السيطرة على البلاد. إلا أن إدارة شركة الهند الشرقية، رأت أن السيطرة المباشرة والمركزية على الأراضي في المُستعمرات مُكلِفٌ من الناحية الاقتصادية، لذا رأت أن تَنقُلَ ملكيات هذه الأراضي إلى هولنديين، يقومون بأنفسهم بإدارة هذه الأراضي.ومن ثم فقد بدأ الهولنديون في نقل ملكية المناطق الحساسة إلى هولندا، ومنها على سبيل المثال؛ ملكية موانئ اندونيسيا، التي انتقلت إلى هولندا.

وتجدر الإشارة هنا إلى؛ النزعة الاستغلالية السائدة على علاقة الهولنديين مع سكان المستعمرات، فبعد ارتفاع الأسعار العالمية للبُن، تم تحويل كثير من المزارع في اندونيسيا إلى ضياع لزراعة البن، وكان على الاندونيسيين أن يقدموا لشركة الهند الشرقية بمقابل زهيد جدًا، وهذا

يُوضِح مدى بشاعة السيطرة الهولندية، وكان تحويل هذه الأراضي لزراعة البن، تـتم علـى حساب محاصيل زراعية أخرى أكثر أهمية لحياة الإنسان كالحبوب وغيرها من الغلات الزراعية ذات القيمة الغذائية، وقد أدى ذلك إلى وفاة الكثيرين.

وقد كانت اندونيسيا هي مُستعمرة هولندا الرئيسية في آسيا، وكان الإسلام منتشرًا في مراكز التجارة حول اندونيسيا، لذا لجأ الاندونيسيون إلى اعتناق الإسلام ليُجابهوا به ما يُلاقونه من جور وظلم واضطهاد الهولنديين، أضف إلى ذلك ما يحتويه الإسلام من مبادئ تدعو إلى خير البشرية والعدل والمساواة بين البشر، وكان التجار المسلمون هم خير من يحمل دعوة الإسلام في شرق آسيا، وذلك بفضل حسن أخلاقهم وأمانتهم في التعامل مع أهل تلك البلاد، الأمر الذي شجع الكثيرين إلى الدخول في الإسلام.

وقد كان ذلك إيذانًا بزوال إمبراطورية هولندا في اندونيسيا، وغدت في موقع البرتغال القديم التي بقتها إلى هذه البلاد إلا أن موقف هولندا كان أسوأ من موقف البرتغال، ذلك أن هولندا دخلت مجال الصراع الفرنسي الإنجليزي، من أجل السيطرة على أمكان مُجاورة في القارة الأوروبية، وكما نعلم فإن هولندا تقع في الوسط ما بين فرنسا المتلاحمة الحدود البرية معها، وانجلترا من الجهة المطلة على البحر، ومن ثم فقد كان مصير الإمبراطورية الهولندية أسوأ من مصير إمبراطورية البرتغال.

وأخيراً؛ يمكننا تلخيص أسباب تقلص النفوذ الهولندي، في انحصار اهتمام الهولنديين على اغتنام الفوائد الاقتصادية بمنأى عن تعزيز قدراتها في المجالات الأخرى، كحسن الإدارة السياسية، وتعزيز الأساطيل البحرية، وتسليح الجيوش بالأسلحة المتطورة، وحسن توزيعها. لقد كانت هذه المجالات بحق تُعتبر من الضروريات لاستمرار استعمار الهولنديين للأراضي والمستعمرات، ففي ذات الوقت كانت انجلترا وفرنسا هما الرائدتان آنذاك في تطوير قدراتهم العسكرية البحرية والبرية، كما كانتا في تنافس مستمر للاستفادة من تطور العلوم المختلفة بما يكفل لكل منها على حدة التقدم والتطور، والسيطرة على البلاد، وهذا بالفعل ما حدث، إذ انحصر التنافس بين فرنسا وانجلترا على مستعمرات الدول الأوروبية الأخرى حول العالم، ومنها مستعمرات هولندا. (٢١)

(٢١) غانم العبد الله،"حركة الكشوف الجغرافية والاستعمار الأوروبي"، مدونة هاتف من الصحراء (الكويت)، متاح بتاريخ ٢٩/ ٢/ ٢٠٠٨ على الرابط: (http://gdm-85.maktoobblog.com)

محمد خليفة، "أوروبا من الإمبراطورية البرتغالية إلى المجهول"، جريدة إيلاف (لندن)، بتاريخ ١٢ يونيو ٢٠٠٥، على الرابط:(http://www.elaph.com/ElaphWeb/NewsPapers/2005/6/68679.htm)

عبد الفتاح حسن أبو علية، تاريخ الأمريكتين.- الطبعة الثالثة.- الرياض: دار المريخ للنشر، ٢٠٠٧. ص٣٧

الكشوف الفرنسية

يذكر التاريخ رجلين، ساهما في تقدم فرنسا في كافة المجالات، ومن أهمها مجال البحرية، وما يتعلق به من كشوف واستعمار، وهما ريشيليو رئيس الوزارة في عهد الملك لويس الثالث عشر، والثاني هو كولبير، المسئول الاقتصادي في عهد الملك لويس الرابع عشر. نذكر في البدء رئيس الوزارة ريشيليو، الذي تولى رئاسة فرنسا عام ١٦٢٤م، لقد كان هذا الوزير على مستوى الثقة التي أولاها إياه الملك الفرنسي لويس الثالث عشر، إذ أحس الملك الفرنسي بصدق نوايا ريشيليو، وحبه للأسرة الحاكمة، ورغبته في نهضة فرنسا، لهذا فقد أعطى الملك الفرنسي لرئيس الوزارة ريشيليو مطلق الحرية في الشئون الفرنسية.

إن إنجازات ريشيليو عديدة، نذكر منها فقط إسهاماته في مجال الكشوف الجغرافية والاستعمار الفرنسي، إذ أن ريشيليو كان يؤمن بأن الشعب الفرنسي شعبٌ بحري مرتبط بالبحار، لاتساع السواحل الفرنسية، ولهذا فإن ريشليو كان يرغب في الدخول في مضمار الاستعمار الخارجي، ولكن هذا كان يتطلب وجود أسطول قوي، وهذا ما لم يكن مُتوافِرًا، حيث أن فرنسا حتى عهد ريشيليو سنة ١٦٢٤م، لم تكن تملك أسطولاً قويًا لحماية تجارتها والقيام بالتجارة عبر البحار، ولهذا فكثيرًا ما كانت السفن الفرنسية القادمة من الخارج تتعرض للغرق أو التلف، مما كان له أكبر الأثر في تخلف التجارة الخارجية الفرنسية.

من أجل ذلك كله، أنشأ ريشيليو إدارة للبحرية والتجارة، وترأس هذه الهيئة، وبدأ في بناء الأسطول الفرنسي، وبالفعل نجح ريشيليو في تكوين أسطول فرنسي يُمكِنُ استخدامه في السلم من أجل التجارة الفرنسية في الخارج، وحمايتها في الحرب، وإذا دعت الحاجة الدخول في مجال الاستعمار خارج أوروبا مثل هولندا والبرتغال وأسبانيا.

أما كولبير، وهو خبير اقتصادي، فإليه يرجع الفضل في وضع فرنسا فعليًا على مسار الاستعمار خارج أوروبا، فقد عمل على تكوين إمبراطورية بحرية فرنسية على غرار ما قامت به بقية الدول الأوروبية، فقد رغب في إقامة مستعمرات على السواحل المؤدية إلى الهند والشرق الأقصى، كما انه رغب في امتلاك مصر، وضمها إلى فرنسا، لضمان الطرق التجارية إلى الهند وربط البحر الأحمر بالمتوسط.

ومن أجل ذلك أسس كولبير شركة الهند الشرقية الفرنسية، كما فعلت انجلترا وهولندا من قبل، كما تم في عهده زيادة عدد السفن الفرنسية من عشرين سفينة سنة ١٦٦١م، إلى مائة وأربعين سفينة، كذلك فقد أنشأ إدارة تربط بين البحرية والتجارة والعسكرية، حتى يُمكن أن تُكمل كل منها الأخرى عند الغزو والاستيلاء الخارجي.

أما عن التوسع الفرنسي في العالم الجديد؛ فيُعتبر الملاح الفرنسي كارتييه، هو الملاح الذي ارتبطت برحلاته نشأة حركة الكشوف الجغرافية الفرنسية، فحينما شرع كارتييه عام ١٥٢٤م، في القيام برحلات بحرية، عَبرَ المحيط الأطلسي ووصل إلى شواطئ كندا، واكتشف مصب نهر سانت لورنس.

وقد اهتم الفرنسيون بعد كارتييه باكتشاف العالم الجديد، وتوسعوا في ذلك حتى وصولوا إلى مونتريال، وحاول الفرنسيون التوسع أكثر في كندا، إلا أنهم فشلوا في ذلك بسبب البرد القارس، وعدائهم الشديد للهنود، ولكنهم نجحوا في تحقيق هدفهم هذا بعد قرن، وأقام دي شامبلان مستعمرة كيبيك الفرنسية في كندا، التي شكلت مركزًا يستمدُ منه الفرنسيون العزم. وفي عام ١٦٨٢م، استطاع البحارُ الفرنسي لاسال اكتشاف نهر المسيسبي، والذي انتشر الفرنسيون حوله، وانتهى الامر بالسيطرة الفرنسية على كندا وحوض المسيسبي، مما أدى إلى الاصطدام مع الانجليز عام ١٧٥٤م.

جاء التوسع الفرنسي في العالم القديم بعد تداعي قوة الإمبراطوريات البرتغالي والاسبانية والهولندية في جنوب شرق آسيا، فاتجهت فرنسا إلى الهند، وأقامت مراكز تجارية على شاطئيها الشرقي والغربي، واتخذت من هذه المراكز نقاطًا لاندفاع الفرنسيين في الداخل والتوغل في الهند، ومن هذه المراكز التجارية التي أقامها الفرنسيون على شواطئ الهند: كاريكال، يانون، ماهي، شاندرجور، وبوند شيري.وقد أدت حركة الكشوف الفرنسية إلى احتكار الفرنسيين لتجارة الصيد والفراء.

الواقع أن؛ الفرنسيين لم يتورعوا عن ارتكاب أشنع الجرائم والمحظورات الإنسانية في مستعمراتهم حول العالم، وخصوصًا تلك العربية منها، وذلك في سبيل تنفيذ أهدافهم التجارية منها والسياسية. فقد سعى الاستعمار الفرنسي غرب أفريقيا في كل من السنغال، والسنغال العالي، ونيجيريا، وغينيا، وساحل العاج، وداهومي إلى مواجهة الإسلام في هذه البلدان، والقضاء على الوجود الإسلامي، وذلك بمحاربته ثقافيًا وعلميًا.[٢٢]

لقد كان العلماء المسلمون يُمثلون تحديًا قويًا أمام صلف الاستعمار، وكانوا بمثابة الوقود الذي لا ينضب في دعم وتشجيع أبناء البلاد على مواجهة الاستعمار الفرنسي، وكما نعلم فإن الدعاة المسلمين كانوا يتنقلون من مكان إلى آخر، دونما قيد أو حرج، وذلك لأن جميع البلدان

(٢٢) لمزيد من المعلومات راجع: الشيخ التيجاني ندوي، مقال بعنوان "الإسلام في ظل المستعمرات الفرنسية في غرب أفريقيا"، مجلة الأمة، العدد(٤٩)، المجلد الخامس ١٤٠٥هجرية. ومتاح على شبكة الإنترنت بمجلة الفسطاط التاريخية بتاريخ ٣٠/ ١٢/ ٢٠٠٨ على الرابط: http://www.fustat.com/C_hist/w_africa.shtml

إسلامية، فهمهم واحد، وهدفهم واحد، من أجل ذلك رأى المشرف العام على سياسة المُستعمرات، بان يحد من نشاط وفعالية العلماء المسلمين.

لذلك أصدر عدة أوامر في هذا الإطار ومنها القبض على أي داعية أو عالم أجنبي في إقليم يقوم فيه بدون سابق إذن بالوعظ والحديث الديني. مع وجوب حبسه بعد القبض عليه حتى نتبين أنه ليس من الزعماء الدينيين الذي يثيرون الفتن ويعكرون الصفو والأمن العام، ورفع تقرير إلى الحاكم بعد كل ذلك للنظر ما إذا كان ممكناً أن يفرج عنه ليستمر في رحلته أو يوقف نهائياً، ومهما يكن من أمر، فإن العالم ثائراً أو هادئاً في حله وترحاله ملزم أن يصحب أوراقه المدنية، كبطاقة الشخصية، وبطاقة التعريف، وشهادة الميلاد، وكثيراً ما تكون معرفة الطريقة والمذهب والعائلة التي ينتمي إليها مهمة عند الكشف والتفتيش.

ومن جهودهم أيضًا في محاربة الإسلام ودعاته: فرض كل أنواع الرقابة التي هي إحدى ركائز سياسة فرنسا في البلاد الإسلامية، استغلال الاختلاف والتمايز الذي يوجد بين القبائل المسلمة من ناحية اللهجات فرصة لإحداث فجوة في صفها، وخلق حالات تلهيها عن التفكير في ضرورة التضامن والتآزر للدفاع عن عقيدة واحدة ودين واحد.

وقد طاردت الإدارة الفرنسية الأئمة حين استاءوا واستنكروا تدخلها في شؤون دينهم، واعتبرتهم عملاء يروجون الأخبار الخاطئة ويوهمون الناس أن على عاتقهم مسؤولية تبليغ رسالة الإسلام التي جاءت من المشرق. ومن أجل تحقيق الدمج الثقافي، والذي يضمن للفرنسيين إنتاج أجيال من الأفارقة والعرب، يميلون إلى الثقافة الفرنسية فكرًا وعلمًا، واجتماعًا، ولذلك فقد رأوا أن يستخدموا في محاربة الإسلام وهو المشكل والعنصر الثقافي الأول للأفارقة والعرب، رأوا أن محاربته لا تتم إلا بالقضاء على اللغة العربية.

لذلك فقد نشأت فكرة إقامة مدارس وتنظيم تعليم الأهالي حيث سجل سنة ١٩٠٩م في المدارس الجديدة عشرة آلاف طفل، وهذه المدارس التي عرفت زيادة ونمواً وتنظيماً عبر السنين من حسن إلى أحسن هي النواة الأولى للمدارس التي نعرفها اليوم، ويتخرج منها كبارُ رجال الدولة في أفريقيا قبل وبعد الاستقلال.

كان الحاكم يشن حملات شعواء عنيفة ليس فقط ضد اللغة العربية، ولكنه أيضاً ضد اللهجات الأفريقية، ووصف السكان بالسفاهة والخمول وفقدان الذاكرة. ومنع الاستعمار الأهالي أن يتعلموا لغة أجنبية اللغة العربية فاللغة العربية تشكل خطراً كبيراً، وعائقاً دون تحقيق سياسة الغزو الثقافي الذي يعتبر من الحركات الأساسية للاحتلال والاستعمار.[٢٣]

(٢٣) عبد الفتاح أبو علية، تاريخ الأمريكتين، ص ٣٤- ٣٧.

زد على ذلك؛ توقيف استعمال العربية في تحرير الأحكام القضائية في المحاكم الشرعية، وكان القضاء الإسلامي في المدن الكبيرة: في سان لويس، وروفيسك، وغاي مستقلاً استقلالاً ذاتياً ولغته الرسمية هي العربية، وكان المنع يستهدف أساساً محاكم المدن الثلاث السابقة الذكر.كما أصدر الحاكم تعليماته إلى رؤساء مصالح البريد والجمارك في المستعمرات أن يشددوا الرقابة على كل المطبوعات المكتوبة بالعربية سواء أكانت قد أرسلت بالبريد أو بغيره، ثم تتلَف أو تحرق كل مطبوعة، جريدة أو مجلة أو كتاب يعادي النظام القائم-نظام الاستعمار- أو تؤيد حركة الشيوخ.

الكشوف الإنجليزية

كانت انجلترا تستغل موقعها الجغرافي، وذلك باللجوء إلى القرصنة البحرية، وكانت تعترض السفن الاسبانية القادمة من العالم الجديد قاصدة اسبانيا، ومحملة بالمعادن النفيسة، الأمر الذي أدخلها- أي انجلترا- في صراع مع اسبانيا، انتهى أخيرًا بتفوق الانجليز، وذلك بعد أن هزموا الأسطول الاسباني المسمى بالأرمادا عام ١٥٨٨م.وعلى ذلك فإن انجلترا لم تقتحم مجال الكشوف الجغرافية إلا متأخرًا في القرن السابع عشر، حيث تم في عام ١٦٠٦م، تأسيسُ شركتان ملاحيتان هما:شركة لندن، وشركة بليموت.


جون كابوت

وقد تم الاتفاق على أن تقوم الشركتان بالاستيلاء على الشاطئ الأمريكي وإنشاء مستعمرات انجليزية به، واتُّفِقَ أيضًا على أن تكون لشركة لندن الاستيلاء على الجزء الجنوبي من الساحل الشرقي، وأن تكون لشركة بليموت الجزء الشمالي من الساحل.وحدثت أول محاولة اكتشافيه عام١٤٩٧م عندما أبحر الإيطالي جون كابوت من ميناء بريستول عبر المحيط الأطلسي للوصول إلى الهند من طريق آخر، إلا أنه وصل إلى شواطئ أمريكا الشمالية عند جزيرة نيوفوند. كذلك فقد أبحر فروبيشير جزيرة شتلند، ومنها إلى جزيرة جرينلاند، وتم له كشف مضيق هدسن.أما جون ديفيز فقد كشف المضيق المسمى باسمه غرب جزيرة جرينلاند.[٢٤]

(24)Hartig, Otto. "John & Sebastian Cabot." The Catholic Encyclopedia.- New York: Robert Appleton Company, 1908.(Vol. 3). Available in 2 May 2009, at: (http://www.newadvent.org/cathen/03126d.htm)

وفي قراءة سريعة لنظام الاستعمار الإنجليزي في أمريكا الشمالية نجده يتلخص في إقامة المستعمرات، والاضطهاد والرق. فقد أسس الانجليز المهاجرون إلى أمريكا، المستعمرات على الساحل الشرقي لأمريكا الشمالية، وقد تأسست أول مستعمرة انجليزية سنة ١٦٠٧م في جيمس تاون، وذلك بتشجيع من شركة لندن الآنفة الذكر، ولم يأت عام ١٦٦٥م، حتى كان الانجليز قد أسسوا ٧ مستعمرات، وهي ماتشوستس، كانيكتيكوت، رودآيلند، مين، نيوهامبشير، ميريلاند، وكارولينا. كما لجأ الانجليز إلى اضطهاد السكان الأصليين من الهنود الحمر،وقد نشبت بين المستعمرين والهنود الحمر حرب عام ١٦٦٢م، وانتهت بإبادة معظم هؤلاء السكان.(٢٥)

كما أخذ المستعمرون الإنجليز، في جلب العبيد والأرقاء من أفريقيا، وذلك كي يعملوا في الزراعة والصناعة، وكثيرًا ما كان يتم خطف هؤلاء الأفارقة من بلدانهم الأفريقية، ثم يتم جلبهم قسرًا إلى أمريكا كي يعملوا في خدمة البيض.(٢٦)

ويلاحظ أن؛ الدور الذي أسهمت به إنجلترا في حركة الكشوف الجغرافية كان ضئيلاً بالنسبة للانجازات الرائعة والضخمة التي حققتها البرتغال وأسبانيا، فقد كان هنري السابع منصرفاً إلى توطيد دعائم أسرته وإقرار النظام في إنجلترا في الوقت الذي كان فيه البرتغاليون يطوفون حول شاطئ أفريقيا، وكولومبس يعبر المحيط الأطلسي.(٢٧)



John Cabot in traditional Venetian garb, from a 16th century painting

(٢٥) عبد الفتاح أبو علية، تاريخ الأمريكتين، ص ٣١- ٣٢.

(٢٦) غانم العبد الله،"حركة الكشوف الجغرافية والاستعمار الأوروبي"، مدونة هاتف من الصحراء (الكويت)، متاح بتاريخ ٢٩/ ٢/ ٢٠٠٨ على الرابط: (http://gdm-85.maktoobblog.com)

(٢٧) جاد طه، محاضرات في تاريخ أوربا الحديث، ص ٩٢.

نتائج الكشوف الجغرافية

من الناحية التجارية؛ انتقل مركز النقل التجاري للمحيط الأطلنطي (الأطلسي) بدل من البحر المتوسط، حدثت الثورة التجارية بين دول البحر المتوسط والأطلنطي، وازداد حجم التجارة وقوية دول غرب أوربا بسبب عمليات الاستيراد والتصدير، كما هجرت آلاف الناس دول غرب أوربا إلى العالم الجديد بحثاً وراء الثورات. وعلى الجانب الزراعي، عرفت أوربا محاصيل جديدة مثل البطاطس / الكاكاو / التبغ / الكيف / الذرة وأصبحت عنصراً هاماً من القطاع التجاري بعد أن كانت من الكماليات.(٢٨)

تدهور البلاد العربية؛ فقد كان العرب يلعبون دور الوسيط في حركة القوافل التجارية المتجهة من الشرق (الهند والصين) إلى الغرب (أوروبا)، وكان هذا الدور يَدُرُّ عليهم أرباحًا طائلة نتيجة للضرائب المفروضة على هذه البضائع، وكان ذلك يعود بالفائدة الكبيرة للدول الكبيرة، إلا أنه بعد اكتشاف طريق الأطلسي ورأس الرجاء الصالح، فقد فقدت بذلك البلاد العربية هذه الفائدة، ثم أصاب الأسواق العربية الكساد والفقر.(٢٩)

من الناحية الاقتصادية؛ بعد أن زادت رؤوس الأموال في الدول الاستعمارية، بدأت الرغبة فيها لاستثمار رؤوس الأموال هذه، وخاصة في مجال الصناعة ومجال الزراعة، لذا توجهت الدول الاستعمارية إلى استعمار وامتلاك الدول التي يتوافر بها المواد الخام اللازمة للصناعة أو تلك الدول ذات المناخات الملائمة للزراعة، وبدأت المُستعمرات تلعبُ – مُرغمة في ذلك – دور مزدوج في التصدير والاستيراد، فهي مصدر هام للمواد الخام وسوق لتصريف هذه المنتجات بعد ذلك، وفي الزراعة، استُخدِمَت رؤوس الأموال في تنمية مواد ومحاصيل زراعية نقدية غالية الثمن كالبُن، كما فعلت هولندا مع اندونيسيا.

وبناء على ما سبق من نمو لرؤوس الأموال، وتنامي الصناعة والزراعة، أتى دور التجارة لتزدهر أكثر، فقد لجأ بعض القادرين إلى إنشاء بورصات عالمية حيث تتركز فيها العمليات التجارية من بيع وشراء وتحديد الأسعار العالمية، وأدّى هذا إلى التركيز الشديد في العمليات التجارية، ومن البورصات بورصة ليون Lyon، وبورصة أنفرس Anvers.(٣٠)

(٢٨) خالد عبد العزيز الفرج (دكتور)، بحث بعنوان "تحول الفكر في أوروبا"، ص ٧، متاح بتاريخ ١٠أبريل٢٠٠٩، على الرابط: (www.cba.edu.kw/hasan/EuropeIdeology.doc)

(٢٩) "حركة الكشوف الجغرافية"، الشبكة الوطنية الكويتية، متاح بتاريخ ٢٣ فبراير ٢٠٠٨، على الرابط: (http://www.nationalkuwait.com/vb/archive/index.php/t-21272.html)

(٣٠) " أوربا وحركة الكشوف الجغرافية"، المنتدى العلمي الثقافي، متاح بتاريخ ١١ مارس ٢٠٠٧، على الرابط: (http://www.3rbsc.com/vb/showthread.php?t=490)

أما الناحية السياسية؛ فالكشوف الجغرافية أدت للاستعمار والتوسع، فوقعت مشاحنات بين الدول مثل حرب السنوات السبع،[٣١] فقد كانت الدول تقيس عظمتها بكثرة الأراضي التي تسيطر عليها. وقد أدت الأطماع إلى إنشاء الأساطيل الحربية وظهور نظريات جديدة تنادي بسيطرة الرجل الأبيض وتقر التفرقة العنصرية.

ومن الناحية العلمية؛ تحسين صناعة بناء السفن التجارية، كما حدث انقلاب في المبادئ الأساسية التي يقوم عليها علم الجغرافيا وذلك بثبوت كروية الأرض، فرسمت خرائط أكثر دقة وتم رصد وتصوير ورسم بعض النجوم التي لا تظهر في النصف الشمالي، بالإضافة إلى اتساع مجال البحوث التاريخية، وإضافة معلومات جديدة لعلوم النبات والحيوان والبحر. زد على ذلك، التوصل إلى آلات دقيقة جداً مثل الإسطرلاب، وتعيين الاتجاهات، كما أصبحت المدفعية أكثر قوة، ثم التعرف على نباتات وحيوانات جديدة، وأصبحت أسبانيا مركز الفضة وكان لها مكاسب مالية وعم الرخاء الأسبان من أفراد الطبقة الوسطى، وعرف عهد فيليب الثاني "بعصر الفضة".

وفي الناحية الدينية؛ تم تعويض الكنيسة الكاثوليكية في روما عن ما فقدته من أقاليم في أوربا بسبب تحول السكان عن المذهب الكاثوليكي، وذلك بنجاح دعاة المسيحية في معظم أقاليم العالم الجديد. حيث أن البرتغاليين والأسبان بذلوا جهوداً في نشر الدين المسيحي، فأدخلت أسبانيا السكان الأصليين لأمريكا الجنوبية في العقيدة الكاثوليكية، ولكن البرتغال لم تفلح في تنصير المسلمين في الشرق.

وقد كان العالم الجديد، أرضًا أكثر خصوبة وسهولة لعمل هؤلاء المبشرين، إذ أن سكانه الأصليين لم يكونوا يعلمون شيئًا عن الإسلام ولا عن المسيحية، ولقد بذل البرتغاليون والأسبان جهدًا كبيرًا في نشر المسيحية بين السكان الأصليين، وسرعان ما انتشرت الكاثوليكية في أمريكا الجنوبية،والبروتستانتية في المستعمرات الانجليزية في أمريكا الشمالية. أما المُستعمرات في جنوب شرق آسيا، فقد لاقت فيها المحاولات التبشيرية مصاعب جمة، ذلك أن شعوب هذه المنطقة كانت لهم معتقداتهم الدينية الخاصة بهم، كما أن الإسلام قد سبق المسيحية إلى هذه البلاد، وترسخ في أهلها منذ عقود عديدة.

(٣١) حرب السنوات السبع (١٧٥٦ – ١٧٦٣) اشتركت فيها جميع دول أوروبا تقريبًا، وامتدت إلى أمريكا والهند وسميت في أمريكا بالحروب الهندية الفرنسية، وفي أوروبا نشبت الحرب بين كل من بروسيا والنمسا من أجل السيطرة على ألمانيا. وساعدت بريطانيا بروسيا، كما ساعدت فرنسا النمسا. وقد أقدمت بريطانيا على الحرب ضد فرنسا من أجل السيطرة على البحار وأراضي أمريكا الشمالية. ونتيجة لهذه الحرب، فقدت فرنسا سلطانها في أراضي أمريكا الشمالية التي استولت عليها بريطانيا.

ومن الناحية الثقافية والاجتماعية؛ انتقل أهالي المُستعمرات من العصر الوسيط إلى العصر الحديث، وذلك بملبسهم ومأكلهم وتغير شمل أغلب مظاهر ثقافتهم، وذلك لتستطيع أن تُساير في علاقتها مع مُستعمريها.كما تغيرت حياة أهالي المستعمرات، حيث نشأت طبقة اجتماعية من التجار في المُستعمرات، يعملون في التجارة مع الدول المُستعمِرَة وفي خدمتها، مما أدى إلى ازدياد ثرواتها، ثم إن هذه الطبقة تطلعت إلى النفوذ السياسي، كما بدأت تنمو في إطار الانتقال التدريجي من الداخل إلى الخارج، حيث السواحل التي تُعتبر مراكز تجارية كبيرة.

كما أرست حركة الاستعمار نظام التفرقة العنصرية في المستعمرات، حيث كان البيض دائمًا هم الأسياد والآخرون مهما اختلفت ألوانهم هم العبيد، وفي خدمة أسيادهم البيض، ولقد صيغت قوانين وأنظمة تتيح للمُستعمِر الأبيض أن يتملك بالسلب وبالقوة من الأراضي والموارد الاقتصادية ما لم يمتلكها الأبيض، كما أباحت لهم حرية استغلال البشر والحجر كيفما شاءوا.[٣٢]

وأخيراً؛ عانى سكان المُستعمرات كثيرًا من ظلم وجَوْر الغُزاة، وكانت المعاناة تختلف من مكان لآخر، رغم تماثلها في الشدة والألم، فهناك المُعاناة الاقتصادية التي فرضتها هولندا على الاندونيسيين بإجبارهم على زراعة محاصيل لا حاجة للاندونيسيين فيها، ولكنها تدر على الهولنديين مبالغ هائلة، وكذلك كان البرتغاليون يضطهدون المسلمين دينيًا بتخييرهم بين الدخول في المسيحية أو القتل. كما عمل البريطانيون والفرنسيون، والأسبان –من قبلهم– على تنفيذ أبشع جرائم الإبادة في حق السكان الأصليين، وذلك في المناطق التي احتلوها ولاسيما في أمريكا الشمالية، إلا أن الوضع في أمريكا الجنوبية قد بلغ درجة أقل حدة، إذ كان السكان الأصليون يندمجون مع المُستعمرين في حياتهم ويتعلمون لغتهم، ويعملون في خدمتهم، ويعتنقون دينهم.

وبهذا يمكن القول؛ إن حركة الكشف الجغرافي الأوربي كانت جزءاً من اليقظة العامة التي انتابت أوربا في القرن الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر الميلادي، فكانت حركة دينية سياسية علمية تجارية في آن واحد، أحدثت انقلاباً كبيراً في أحوال أوربا الغربية وأفكارها وفي أحوال البلاد المكتشفة.[٣٣]

---

(٣٢) عبد الفتاح أبو علية، تاريخ الأمريكتين، ص ٥٠.

(٣٣) "نتائج الكشوف الجغرافية"، مشروع (لا أصل لمن ليس له تاريخ)، متاح بتاريخ ٣٠ أبريل ٢٠٠٩ على الرابط: (http://www.history11.jeeran.com)



لوثر يحرق صكوك الغفران

مارتن لوثر والإصلاح الديني البروتستنتي

مصلح ديني مسيحي ألماني ثار على الكنيسة الكاثوليكية وهو مؤسس البروتستانتية. ولد في مدينة ايسليبن بمقاطعة ساكس الألمانية سنة ١٤٨٣ لأب فلاح كانت أمنيته أن يدرس ابنه القانون لكن مارتن لوثر المحب للرهبانية منذ صغره عكف على الدراسات اللاهوتية الأكاديمية ، حتى حصل على الدكتوراه في هذا المجال من جامعة فيتنبرغ وصار أستاذا لدراسات الكتاب المُقدس (الإنجيل) فيها في عام ١٥١٢. زار لوثر في العام ١٥١٠ روما للحصول على بركة المقر الرسولي ، وكان يتمنى رؤية القديسين والرهبان الزهاد. غير أنه ما إن حل بروما حتى فوجئ بمدى الفساد المنتشر داخل الكنيسة الكاثوليكية على جميع المستويات. في القرن السادس عشر ، رفع مارتن لوثر —مؤسس حركة الإصلاح البروتستانتي -شُعلة الإصلاح الديني ، ساعياً إلى تطهير المسيحية من العقائد غير الأصيلة. كان أكثر ما يؤرق مارتن لوثر ، إيمان المسيحيين بفكرة صكوك الغفران. إلا أنه لم يكن في حُسبانه أن يتحول هذا الأرق إلى ثورة إصلاحية كبيرة ، لا تعم ألمانيا وحدها ، بل القارة الأوروبية بأكملها. ولم يكن يدور في خلده ، أن تُسفر مسيرته تلك عن صلح وستفاليا في عام ١٦٤٨ ذلك الصلح الذي وضع حجر الأساس لعلمنة الغرب. ولم يكن في حُسبان لوثر أيضا أن تتحول معارضته لصكوك الغُفران إلى حرب عارمة على البابوية ، ومنها إلى تأسيس العلمنة السياسية في أوروبا .

مارتن لوثر والإصلاح الديني البروتستنتي

حركة الإصلاح الديني – الفلاح السكسوني مارتن لوثر وبدعة صكوك الغفران – الحركات المتطرفة التي صاحبت الإصلاح الديني اللوثري[المطالبون بإعادة التعميد- حرب الفرسان- ثورة الفلاحين] – زوينجلي قائد حركة الإصلاح الديني في سويسرا- جون كلفن والإصلاح الديني البروتستنتي

ظهرت حركة الإصلاح الديني اللوثري كحركة دينية نصرانية في القرن السادس عشر الميلادي في أوروبا وأدت إلى ظهور البروتستانتية، وكان لها أثر كبير على الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية في أوروبا، بل لا تزال آثارها ملموسة حتى اليوم، كما ظهرت على إثرها العديد من الكنائس البروتستانتية الكبرى، وبعض الجماعات التي أصبحت تنافس الكنيسة الرومانية الكاثوليكية في كسب ولاء النصارى.

حركة الإصلاح الديني

كان هناك دافع ديني أدى إلى ظهور حركة الإصلاح، حيث شهدت القرون الثلاثة التي سبقت حركة الإصلاح صراعًا بين ملوك أوروبا والكنيسة، فبعد أن كانت للكنيسة سلطة مطلقة على الحكام المدنيين، سعى الملوك إلى استرداد سلطتهم المدنية. وبلغ الأمر أن اضطهد بعض الملوك البابا، ولجأ البابا إلى ترك روما لفترة معينة، الأمر الذي أضعف من سلطة الكنيسة.كما شهدت هذه الفترة أيضًا صراعًا داخليًا بين الكرادلة، وتنافسًا فيما بينهم حول منصب البابوية.

إضافة إلى أنه ظهرت في هذه الفترة مفاسد كثيرة داخل الكنيسة وإقبال على الدنيا بين رجال الدين النصارى الذين استغلوا جمع الأموال عن طريق بيع المناصب الكنسية وصكوك الغفران، واستخدام هذه الأموال في بناء القصور الفخمة، والانغماس في ملذات الدنيا. الأمر الذي أضعف سلطة الكنيسة الروحية ومكانتها الدينية. وقد تولى بعض المصلحين مثل جون ويكلف في إنجلترا، وجون هس في بوهيميا وغيرهما انتقاد هذه الممارسات والوقوف ضد تلك المفاسد، ولكنهم لم يستطيعوا إيقافها. وفي الوقت الذي أهملت فيه الكنيسة قيادتها الروحية، بدأ ينمو بين العامة شعور ديني عميق؛ الأمر الذي ولَّد نوعًا من القلق الشديد بين العامة ورؤسائهم الدينيين خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين.

ومن الناحية الثقافية؛ ظهر في الغرب منذ بداية القرن الرابع عشر الميلادي، ما يُعرف بحركة النهضة التي دعت إلى الاهتمام بالحضارات القديمة ودراسة آدابها وتاريخها وفلسفتها. وقد كان

لذلك أثر كبير على النصرانية، إذ إن الاهتمام باللغات القديمة مثل العبرية واليونانية مكّن العلماء من قراءة النصوص المقدسة في اللغات التي كتبت بها أصلاً، وبدراسة الفترة النصرانية المبكرة عرف العلماء كيف تغيرت الكنيسة خلال القرون. كما أن اختراع الطباعة المتحركة مكّن كثيرًا من الغربيين، من غير رجال الدين، أن ينالوا حظًا من التعليم والثقافة.

وكانت هناك أسباب سياسية واقتصادية وراء ظهور حركة الإصلاح، فقد شهدت الفترة التي سبقت حركة الإصلاح توسيع ملوك أوروبا من سلطاتهم السياسية في مقابل سلطة البابا والإمبراطور، وأصبح الملوك في إنجلترا وفرنسا وأسبانيا أكثر قوة، ونظموا شؤونهم المالية، وبنوا جيوشهم. وأصبح البابا لديهم مجرد قائد سياسي لدولة أجنبية لا سيطرة له ولا نفوذ على أقطارهم، وبعد بداية حركة الإصلاح انفصل بعض الملوك تمامًا عن سلطة البابا.

أما اقتصاد أوروبا خلال القرون الوسطى فقد كان اقتصادًا زراعيًا، ومعظم الناس كانوا فلاحين يعيشون في قرى صغيرة. وخلال القرن الثاني عشر الميلادي، بدأت تتكون المدن وتكبر لاسيما في إيطاليا والنرويج، وبدأت حركة تجارية نمت على إثرها ثروة المدن وأصبحت مستقلة، فرفضت إدارة الإقطاعيين المحلية وسيطرة الأساقفة. وقد لجأ التجار والأثرياء إلى الملوك والإمبراطور للحماية .وهكذا أدت هذه الأسباب مجتمعة، إلى ضعف الكنيسة وفقدان سيطرتها ومكانتها الدينية وأثرها على الجماهير.

خلاصة القول؛ يعد الإصلاح الديني أحد نتائج النهضة الأوربية وقد تضافرت عدة عوامل على قيام هذه الحركة ومنها تدهور الكنسية الكاثوليكية في روما، التحرر من القيود التي فرضتها الكنيسة على التفكير، ورغبة حكام ألمانيا في الوحدات السياسية في التخلص من سيطرة الكنيسة وتدخل البابا. ولقد كان مارتن لوثر ذلك الفلاح السكسوني الفقير البائس يعيش في بيئة فقيرة تمتلئ بالخرافات الدينية، حيث صورت المسيح عليه السلام كمارد منتقم ينتظر المخطئين ليذيقهم العذاب الأليم. وقد توصل لوثر إلى أن إيقاد الشموع والصلاة ليس إلا نوعاً من إسداء الشكر لله الرحيم، ولقد كان نزول حنا تتزل إلى روما لبيع صكوك الغفران هذا الحدث وهذه الصكوك كانت السبب المباشر في قيام هذه الحركة التي حلم لواءها مارتن لوثر وجعلت منه داعياً للإصلاح.



توضح الصورة مندوبي الكنيسة وهم يبيعون صكوك الغفران، وعُلّق تعميد البابا الخاص بالبيع على الصليب.

الفلاح السكسوني مارتن لوثر وبدعة صكوك الغفران

ولد مارتن في ١٠ نوفمبر ١٤٨٣ في آيزليبين في مقاطعة سكسونيا بألمانيا وعاش حياة تعيسة فقيرة، وكان والداه يشتغلان في فلاحة الأرض، وقد درس القانون في جامعة إرفوت. وفي عام ١٥٠٥ دخل ديرا يتبع طائفة القديس أوجستين وأصبح راهباً، وفي عام ١٥١١ زار روما في مهمة رسمية ممثلاً لهذه الطائفة، وقد أدهشه في روما انهيار المعايير الأخلاقية لدى رجال الدين والباباوات وانغماسهم في حياة التبذل والملذات فقال عبارته "إن من يذهب إلى روما يشعر بأن عقيدته الدينية تترنح تحت الضربات التي تصيبه من جراء ما يرى هناك".



سنة ١٥١٢ عين لوثر أستاذاً لكرسي اللاهوت في جامعة وتنبرج وأصبحت رسالته الأولى هي التدريس والوعظ. وفي ١٥١٧ هبط مدينة وتنبرج راهب يدعى حنا تتزل من أتباع طائفة الدومينكان الدينية وقد جاء لبيع صكوك الغفران، وخصص جزء صغير من حصيلة البيع إلى كبير أساقفة مانيز، والجزء الأكبر إلى خزانة البابا ليو العاشر للإسهام في نفقات المبنى الجديد لكنسية القديس بطرس في روما.

وكان هذا الراهب يدعو الناس إلى أن يشتروا الثواب وصك الغفران طواعية، وبلغت وقاحته في أنه زعم إذا ارتكب الرجل الخطيئة مع العذراء المباركة نفسها فإن هذه الصكوك كفيلة بأن تمنحه الغفران الكامل، وبذلك فقد تطاول على العذراء المباركة التي لها تقدير في نفوس الملايين من المسيحيين والمسلمين، ومن جهة أخرى كان ذلك بمثابة تحريض على ارتكاب الخطايا بإعفاء من العذاب.

الواقع أن؛ الغفران كما عرفه توماس أكونياس يقوم على ثلاث قواعد: الندم أو التوبة، الاعتراف، التكفير بالصلاة والصوم والزكاة. وكان البابا قادر على إصدار صكوك الغفران لأنه خليفة القديس بطرس الذي له ميزة توزيع فيض من الثواب وذلك لأنه هو خليفة المسيح، ولكن الباباوات استعاضوا الجزاء بالاشتراك في حرب صليبية أو الحج إلى روما في أول كل مائة سنة جديدة ويسمى ذلك الغفران اليوبيلي. وقد توسع البابا ليو العاشر في تطبيق مبدأ

الاستعاضة عن الجزاء حتى صارت هذه الاستعاضة تشمل زيارة قبول القديسين وتقديم الهبات إذا تعذر الحج وأن يسري هذا التعويض على الأموات.

ولكن الباباوات عهدوا إلى البنوك والمصارف في ألمانيا للقيام بعملية تحصيل هبات الأموال فأدى تدخل المصارف في مسألة التعويض عن الجزاء إلى مجرد عملية تجارية. فيكفي الإنسان أن يدفع مبلغاً ويحصل على شهادة صك الغفران.

وفي سنة ١٥١٥م توصل لوثر إلى أنه ليس من المعقول التخلص من الخطايا بشراء صكوك الغفران، وأنه ليس التخلص منها بالصلاة والعبادة وإنما بإسداء الحمد والشكر للإله الرحيم. وأن الإيمان هو شرط الغفران هو الثواب على الإيمان، وقد اهتدى لذلك من دراسته للكتاب المقدس وتعاليم القديس أوجستين وهذه العقيدة تعرف بـ "التبرير بالإيمان".

وبذلك فقد اغتصب البابا ليو العاشر ما كان مفروضاً من صفات الله وحده، بل أنه قادر على التجاوز عن العقوبة وقادر أن يمحو الخطيئة ذاتها، وانحطت الأخلاق في عصره واستطاع المذنب أن يشتري صكاً ليمحو كل خطاياه.

وقد أثارت التصريحات الحمقاء لحنا تتزل السخط في نفس لوثر فقام في ٣١ أكتوبر ١٥١٧ يوم الاحتفال بذكرى تدشين كنيسة وتنبرج بتعليق احتجاجاً مفصل على باب الكنيسة من خمسة وتسعين حجة ضد صكوك الغفران، وأن البابا ليو العاشر يمنح الغفران للناس ولا يستطيع شراءه لنفسه، فتلك صفة إلهية لا يجب اقتباسها وقد جعلها لنفسه، وأوضح لوثر أن الكتاب المقدس وحده هو القانون الذي يجب الاعتماد عليه في تفسير العقائد.

وكان احتجاجه باللغة اللاتينية إلى العلماء لمناقشتها والنظر فيها، لا إلى عامة الشعب. ولكن سرعان ما ترجم إلى اللغة الألمانية وانتشر في طول المانيا وعرضها. وهذه بعض بنود الاحتجاج:

❖ إن الله هو الذي يغفر الخطايا. وإن الإنسان لا يستطيع أن يشتري الغفران وخلاص نفسه بمبالغ معينة من المال. وأن الأعمال الصالحة لازمة، ولكنها لا تخلص الإنسان. وهي ثمرة الإيمان.
❖ إن الكتاب المقدس هو دستور حياتنا وهو فوق تقاليد الكنيسة. إننا نقبل التقاليد إذا كانت لا تتعارض مع ما يعلمه الكتاب المقدس.
❖ إن الأسرار المقدسة اثنان وليس سبعة، لأن المسيح لم يرسم إلا سرين (أو فريضتين) مقدسين هما المعمودية والعشاء الرباني.
❖ إننا نترك مسحة المائتين بالزيت.

- ❖ ولكننا لا نترك الزواج، وإن كنا لا نعتبره فريضة. والسبب في عدم اعتبار الزواج فريضة هو أن الناس كلهم يتزوجون منذ الخليقة.
- ❖ دعا لوثر الرهبان والراهبات والكهنة إلى الزواج إذ شاءوا ذلك. أما من أراد أن يبقى عازباً فإن حرية الخيار متروكة له وراجعة إلى ضميره.(١)

وفي عام ١٥١٩م وجد لوثر أنه يجب إصلاح الكنيسة من الخارج طالما أنها لم تستجب من داخلها للدعوات المتكررة بإصلاح نفسها بنفسها، فوجه الدعوة إلى حكام الولايات الألمانية من الأمراء ليتزعموا هذه الحركة الإصلاحية، وقد قبلها ورحب بها الأمراء نظراً للمكاسب السياسية والمادية التي تعود عليها من ورائها. وقد حدد لوثر أسس ومبادئ الإصلاح الديني في رسالته الأولى وهي:



مارتن لوثر

أولاً: أباح الطلاق للمسيحيين.

ثانيا: إلغاء الحج إلى روما.

ثالثاً: ليس للبابا الحق في احتكار تفسير الإنجيل.

رابعاً: إخضاع رجال الدين للسلطة المدنية.

خامساً: إباحة الزواج للقسس.(٢)

سادساً: عدم إنشاء أديرة جديدة وإلغاء عدد من الأديرة القائمة وتحويل نزلائها إلى الحياة المدنية وإلغاء الديرية والرهبنة.

ونتيجة هذا الهجوم من جانب لوثر أصدر البابا ليو العاشر في ديسمبر ١٥٢٠ قرار الحرمان ضد لوثر وذلك لأن أراءه جعلت منه مارقاً على المسيحية. وكان جواب لوثر على ذلك أن نشر رسالته الثانية عن الأسر البابلي للكنيسة لإظهار ضعف البابوية ومفاسد الكنيسة، وقام بحرق الحرمان علنا في ساحة كنيسة وتنبرج. وفي يناير ١٥٢١ استدعى لوثر للمثول أمام أول مجمع

---

(١) المطران داود حداد، حركة الإصلاح الديني في ألمانيا، مارتن لوثر/ القسم الرابع/الفصل الثامن، متاح بتاريخ ١٠ مارس ٢٠٠٩ على الموقع العربي الأول والوحيد عن المصلح مارتن لوثر: (http://www.lutherinarabic.org)

(٢) وقد تتزوج لوثر في عام ١٥٢٥م من راهبة تدعى كاترين بورا Catherine Bora. وعاش وإياها حياة هنية مع أطفالها في البناء الذي كان قبلاً ديرا له في ويتنبرج وهناك كتب المؤلفات الدينية ونظم الترانيم التي يرددها البروتستانت ألان. راجع:

يواقيم رزق مرقص، محاضرات في تاريخ الكنيسة الغربية، مارتن لوثر، متاح بتاريخ ٦ مارس ٢٠٠٩ على الرابط: (http://st-takla.org/Coptic-History/005-History-of-The-Western-Churches.html)

إمبراطوري لمناقشة أرائه بناء على طلب الإمبراطور تشارلز الخامس، وأصر لوثر في هذا المجمع على أرائه فاعتبر خارجاً على السلطة القائمة وحرم من حقوقه المدنية.

فقد طلب المجمع من مارتن العدول عن هرطقاته فكان جوابه: "لا يمكنني العدول أو التراجع عن كل ما كتبته أو قلته إلا بشرط واحد هو أن يبين لي أحدكم أن أقوالي وكتاباتي تناقض الكتب المقدسة أو تناهض مبادئ العقل والضمير، أو تثبتوا لي بأنها غير سليمة أو غير مستقيمة". وأنهى كلمته بالقول:" ما عدا ذلك لا يمكنني التراجع عن آرائي أو العمل بخلافها. علي هذا عاهدت نفس وسأكون علي العهد مقيماً أعانني الله .آمين"

في نفس اللحظة تم وضعه تحت الرقابة الإمبراطورية وسُمح له بالذهاب إلى منزله. لكن في طريقه إلى بيته وفي أحد الشوارع الضيقة انقضّت عليه مجموعة من الفرسان المقنعين فحملوه إلى قلعة ورتبورج. هذا حدث بإيعاز من صديقه فردريك حاكم سكسونيا الذي كان يخشى على حياة صديقه مارتن ولم يتمكن علناً من توفير الحماية له، فقرر على الأقل اختطافه ووضعه في مكان آمن. وخلال مدة العشرة شهور التي قضاها في القلعة قام مارتن لوثر بترجمة جديدة للكتاب المقدس من اليونانية إلى الألمانية فاعتبر ذلك العمل الضخم حجر الأساس في تاريخ الأدب الألماني.

في سنة ١٥٤٦ دُعي لفض نزاع قام في بلدة إيسليبن، وبعد أن أفلح في فض النزاع أصيب بنوبة برد ما لبث أن توفي في أثرها وذلك في ١٨ فبراير ١٥٤٦ودفن في نفس الكنيسة التي قام بتثبيت آرائه الدينية على بابها.[٣]




لوثر وزوجته

---

(٣) وقد أمر الإمبراطور فريدريك وليام الرابع سنة ١٨٥٨باستبدال أبواب الكنيسة القديمة بأبواب برونزية جديدة تحمل آراء لوثر. وقد تم تشييد نصب تذكاري للمصلح الكبير مع العبارة التالية:"إن كان هذا العمل من الله فسيكتب له البقاء، أما إن كان من صنع البشر فمآله الزوال". راجع:
محمود مسعود، مقال بعنوان" مارتن لوثر: المتهم البريء والمصلح الجريء"، السويداء نت، متاح بتاريخ ٣يناير ٢٠٠٩ على الرابط: (http://www.swaidanet.com/modules.php?name=News&file=article&sid=495)

والجدير بالذكر؛ أن اللوثرية تدين بالكثير لسياسي وباحث وجامعة، فكان فردريك منتخب سكسونيا هو الذي حمى لوثر من أعدائه ودبر له مخبأ بعيداً عن متناول أيديهم في قلعة وارثر برج وقد ظل لوثر هناك سنة ترجم فيها الإنجيل للألمانية، وقد أثر ذلك في إحياء الأدب وإطلاع عامة الناس على كتابهم المقدس. والباحث هو فيليب ملانكتون الذي أمد الدين الجديد في سنة ١٥٢١ بأول كتاب له في اللاهوت وهو "كلام معاد" ويرجع إليه الفضل في وضع فلسفة واضحة للإصلاح اللوثري. أما الجامعة فهي جامعة وتنبرج التي أصبحت المهد الأساسي لتعليم اللوثرية وجاء إليها طلاب العلم من جميع أنحاء ألمانيا.

وهكذا؛ نرى أن الظروف السياسية التي أحاطت بألمانيا ساعدت على انتشار الحركة اللوثرية، ولكن الظروف الاقتصادية والاجتماعية التي سادت في أرجاء ألمانيا جعلت الحركة تأخذ في مساراها اتجاهات معينة، فالبعض وجد في هذه الحركة فرصة لتنفيذ الآراء التي يؤمن بها مما أدى لوقوع اضطرابات وجعل حركة الإصلاح تقترن بالعنف والفوضى، وذلك شاعت حركات الإصلاح في ألمانيا.[٤]



Martin Luther’s Defining Moment

(٤) ولمزيد من التفاصيل عن حركة الإصلاح الديني ومارتن لوثر راجع:

شوقي عطا الله الجمل، عبد الله عبد الرازق إبراهيم، تاريخ أوروبا من النهضة حتى الحرب الباردة. – القاهرة: المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، ٢٠٠٠. ص ٤٣ – ٥٣.

Jesse Couenhoven, “Grace as Pardon and Power: Pictures of the Christian Life in Luther, Calvin, and Barth”.- Blackwell Publishing : The Journal of Religious Ethics, Vol. 28, No. 1 (Spring, 2000), pp. 63-88. Stable URL: http://www.jstor.org/stable/40015277

Paul Althaus, The Ethics of Martin Luther / Translated by Robert C. Schultz.- Philadelphia: Fortress Press, 1972.

John Dillenberger, Martin Luther: Selections from His Writings.- New York: Doubleday, 1951.

Gerhard Ebeling, Luther: An Introduction to His Thought/ Translated by R. A. Wilson.- Philadelphia: Fortress Press, 1970.

الحركات المتطرفة التي صاحبت الإصلاح الديني اللوثري

في ٣ ديسمبر سنة ١٥٢١م دخل بعض الطلبة وسكان المدينة في كنيسة الأبرشية - بيتنبرج وهم مسلحون بالمدى ، وطردوا القساوسة من المذابح، ورجموا بعض المصلّين،أمام تمثال (مريم العذراء)، لكن استخدام أسلوب العنف لم يلق تأييداً من لوثر فقد دعا إلى نبذه والابتعاد عن العصيان، وتجاوز المحتوى الطبقي للثورة بهدف كسب النبلاء إلى جانبها، وفي ذلك خير لخدمة الإصلاح، بينما العنف يولد العنف ويذهب الإصلاح أدراج الرياح، وعليه فتوجه إلى الفلاحين وجميع الأفراد بالدعوة لتحاشي الالتجاء إلى القوة، فالله منتقم جبار، ومما يبرر رفض اللجوء إلى العصيان أنه " ... غير معقول وهو بصفة عامة يضر الأبرياء أكثر مما يضر الآثمين، لذلك فإن العصيان ليس من الصواب في شيء ولأن الأضرار التي ينتجها تتجاوز قدر ما يتم من الإصلاح، وحتى لا يؤدي إلى الوقوع في ظلم فظيع على يد عبد يتخلص من قيده فلا يميز بين الخبيث والطيب".

وفي هذا يلتقي لوثر مع أرازموس الذي يدعو إلى نبذ العنف وإحلال السلام، وفي الوقت نفسه عبر لوثر عن تعاطفه مع المظلومين بقوله:" إن عواطفي ستكون دائماً ولسوف تظل مع أولئك الذين يوجّه التمرد ضدهم". في الوقت الذي دعا فيه جابريل تسفيلينج أحد زعماء الطائفة الأوغسطينية مستمعيه إلى إحراق الصور الدينية وهدم المذابح حيثما وجدت.

وانطلق أنصار الإصلاح الديني ولوثر من أن المرجعية العقدية لهم هي الإنجيل وحده، وأعلن (منتسر) و(نيكولاس ستورك) والعالم (ماركوس ستيبز) أنهم وحدهم مؤهلون ليكونوا مفسرين الكتاب المقدس من خلال اقتناعهم بأنه يوحى إليهم من الروح القدس، التي تأمرهم بأن يؤجّلوا (العماد) إلى حين بلوغ سن الرشد، وبأنّ القربان المقدس لا يكون له أثر إلا بالإيمان وهو أمر لا ينتظر من الأطفال.[٥]

والتعميد هو تغطيس الطفل في الماء ثلاث مرات على اسم الثالوث المقدس (الأب – الابن الروح القدس) وقالت هذه الطائفة إن تعميد الأطفال وهم في سن مبكرة لا يتمشى مع تعاليم الإنجيل فطالبت عام ١٥٢٥ بإعادة تعميدهم مرة أخرى حين يبلغون الحلم، وكانت حجة أفراد هذه الطائفة أن أركان التعميد الدينية الصحيحة لا تتوفر إلا في التعميد المتأخر، وقد أطلق على رجال هذه الطائفة المطالبون بإعادة التعميد أو المعمودية.

(٥) سامي الشيخ محمد، مقال بعنوان "حركة الإصلاح البروتستانتي (لوثر ، زونجلي ، كالفن)" ، دنيا الرأي، كتب ودراسات، متاح بتاريخ ٨ يناير ٢٠٠٦، على الرابط:
(http://pulpit.alwatanvoice.com/content-35520.html)

وقد تطرف دعاة هذه الحركة، ووقعت الاعتداءات والاضطرابات مما عرض الإصلاح الديني ذاته للخطر، فاضطر مارتن لوثر إلى الخروج من مخبأه كي يدعو هؤلاء المتطرفين إلى التزام الهدوء والحكمة، وقد ساعده في ذلك فيليب ملانكتون.(٦)

كانت حرب الفرسان هي الحركة المتطرفة الثانية التي صاحبت الإصلاح الديني اللوثري، فقد ترقب الفرسان الفرصة المواتية للثورة على الأمراء والبطاركة والممولين، في وقت كانت فيه أراضي الكنيسة مباحة يمكن الاستيلاء عليها بسهولة، ثم جاءت دعوة (هوتن) مترافقة مع دعوة (لوثر) الشعب الألماني إلى الثورة، وتطهير الأرض من مضطهديه، غير أن الثورة قد فشلت وخضع الفرسان للأمراء، بينما استمر نجم لوثر في الصعود، وإقبال الرهبان والقساوسة بكثرة على الزواج، ثم تردّدت كلمة "الله" في كنيستي (لورنز) و(زيبالدوس)بـ(نورمبرج)وهي العبارة التي أطلقها المصلحون على عقيدة الكتاب المقدس.

أما دور الوُعّاظ الإنجيليون فقد تحدد في تشييد مقابر جديدة والاستيلاء على المقابر القديمة، وباتوا يندّدون بالسادة الزمنيين باعتبارهم مبتدعين ظالمين، مما أدى إلى ازدياد أتباع لوثر من قبل العديد من السادة الزمنيين حتى أن (إيزابيلا) شقيقة الإمبراطور كانت من أتباع لوثر أما المجلس النيابي فقد بعث برد على مندوب البابا كلمنت السابع (الكاردينال لورزو كامبيجيو) الذي كلّف بنقل طلب القبض على لوثر في يناير ١٥٢٤م. بأن أي محاولة لقمع الحركة اللوثرية بالقوة سوف تنتهي بـ " ثورة وعصيان ومذبحة ودمار شامل".

وبعد أن أخفقت الثورة وكان لوثر وقتها يناصر الأمراء ضد استخدام الفلاحين للعنف. عاد من جديد إلى مناصرة الفلاحين، فندد بمواقف الأمراء والسادة الإقطاعيين من الإنجيل وظلم الناس، وبالتالي فإنهم يستحقون أن يهزموا من قبل الله، وإذا تمكن الفلاحون أن يكونوا حملة ضمير جيد، فسوف يقف الله معهم، حتى إذا تعرضوا لمعاناة الهزيمة والموت لفترة من الزمن فسوف يفوزون بالنصر في النهاية،" فالضمير الحي قبل التوجه إلى الله يعتبر الشيء الرئيسي" للإنسان.

أما ثورة الفلاحين؛ فكانت بسبب الشدائد والمظالم التي تعرض لها الفلاحون فجعلتهم يقومون باثنتي عشرة ثورة مما خلف اضطراباً محموماً في أذهان ونفوس الفلاحين، وازداد شدة بتحدي لوثر للبابا والكنيسة والأمراء، وجعْلهِ من كل إنسان قساً وإعلانه حرية الإنسان المسيحي، وشكلت طباعة الكتاب المقدس"العهد الجديد" بالألمانية تحدياً لرجال الدين عندما كشف عن شيوعية الرسل وعطف المسيح على الفقراء والمضطهدين، وعلى ذلك فقد كانت

(٦) جاد طه، محاضرات في تاريخ أوربا الحديث. – القاهرة: جامعة عين شمس، ١٩٩٧، ص ١١١. (غير منشور)

هزيمة رجال الدين شرطاً لانتصار الثـورة البروتسـتانية، كـذلك وجـد الفلاحـون والكـادحون في الكتاب المقدس ضماناً إلهياً مقدساً لإلغاء الملكية الخاصة وتوريث الفقراء الأرض.

وعلى الرغم من الدور الذي لعبه لوثر في إذكاء روح الثورة لـدى الفلاحـين إلا أن الأسـباب الحقيقية لقيام الثورة تكمن في المظالم التي حاقت بطبقة الفلاحـين أساسـاً، وبفضـل إنجيـل لـوثر ــ أي الترجمة الألمانيـة الـتي قـام بهـا (لـوثر) للإنجيـل ــ وأتباعـه مـن المتطـرفين، فقـد تحـول اسـتياء المضطهدين إلى نزعات طوباوية وإلى عنف وانتقام شديد.

وفي خضم هذا الصراع وجـدت بعـض النظريـات الـتي تـدعوا إلى العدالـة الاجتماعيـة، بـل وحتى الشيوعية، طريقها إلى الظهور، فتومـاس منتسـر أحـد واعظـي الشـتدت Waldshut يـرى: "أنّ كل شيء على المشـاع ويجـب أن يـوزع حسـب مـا تقضـي بـه الحاجـة وطبقـاً للاحتياجـات العديدة للمجتمع، وكل كُنت أو بارون، يرغب عن قبـول هـذه الحقيقـة بعـد تـذكيره بهـا في حـزم يجب أن تقطع رأسه أو يشنق".

وفي عام ١٥٢٤م شكل هانز ميلر – أحد قادة ثورة الفلاحين في ألمانيا عام ١٥٢٥م– رابطـة "الأخوة الإنجيلية" وعلى رأسها منتسر بناء على إيحاء وتعهـد بتحريـر المـزارعين في أرجـاء ألمانيـا، ورفعت شعارات ترفض الضرائب التي تفرضها الدولة، وضـرائب العشـور الكنسـية، والضـرائب الإقطاعية، متخذين من أسـلوب الكفـاح الإيجـابي منهجـاً نظريـاً وعمليـاً لهـم في آن واحـد، فقـد أقسموا على الحرية أو الموت وكانت الصيحة الـتي أطلقهـا منتسـر بـين رجالـه هـي " إلى الأمـام والحديد لا يزال ساخناً واجعلوا سيوفكم دائماً ساخنة بالدماء".

أشهر الفلاحون اثني عشر مبدأً (Zwölf Artikel) منحوا لأنفسـهم بموجبهـا حريـة انتخـاب رعاتهم وإبطال العشور والـرق والغرامـة علـى الإرث وحـق الصـيد بـراً وبحـراً، وقطـع الحطـب وكان كل مطلب مقرون بآية من الكتاب المقدس.(٧)

(٧)حدد الفلاحون و العامة في ألمانيا شكواهم في بيانات . بيانات الغابة السوداء الإثني عشر (Zwölf Artikel) الشـهيرة اعتمدت كمطالب نهائيـة . شمولهـا للمظـالم الاجتماعيـة و السياسـية و الاقتصـادية في ظـل الشـعبية متزايـدة للسـلك البروتستانتي وحّدت السكان في انتفاضة ضخمة اندلعت بدايةً في أواخر عام ١٥٢٤م ببلدة ستولينغن في منطقـة الغابـة السوداء وما لبث أن انتشر شمالا كالنار في الهشـيم. وسـرعان مـا وقـع تـأثيره علـى كـلِّ أرجـاء ألمانيـا ماعـدا بافاريـا واندفعت جموع الفلاحين إلى داخل القلاع وأجبرت النبلاء على الخضوع لرغباتهم. واتخذوا راية عُرفـت باسـم عصـبة الحذاء من قماشٍ أسود وأبيض وأحمر عليـها رسمٌ لحذاء من أحذيتهم. أنظر:
"The Twelve Articles of the Black Forest", available in 16 April 2009, at: (http://en.wikipedia.org/wiki/Twelve_Articles_of_the_Black_Forest)

صيغت المبادئ الاثنى عشر في مارس ١٥٢٥م فأشعلت لهيب الثورة في ألمانيا ومن هذه المبادئ: القوة والسلطان والسلطة والسياسة للزعيم المختار من الجماعة وحقها في عزله ــ وفي ذلك إرساء لأساس هام من أسس الديمقراطية. أما ضريبة العشور(٨) فيجب دفعها بطريقة صحيحة، وتوكل مهمة جمعها إلى رئيس الكنيسة الذي تعينه الجماعة ويمنح منها الراعي مرتباً متواضعاً وكافياً لمعيشته وأسرته وأن يوزع الباقي على الفقراء والمحتاجين الذين يعيشون في القرية نفسها، أما ضريبة العشر الصغيرة مثل الماشية فلن تدفع على الإطلاق، وإنّ ما يتفق وتعاليم الكتاب المقدس هو أن نكون أحراراً ولسوف نكون أحراراً هكذا.

أما الخضوع للحكام فيجب أن يكون عن طواعية والحكام المختارون والمعيّنون بمشيئة الله في جميع الأمور المسيحية، ولا ريب أنهم سوف يعملون على تحريرنا من نير العبودية أو يرونا في الإنجيل أننا أرقّاء، كذلك الشكوى من تزايد الخدمات من يوم إلى آخر، وفحص الأراضي المستأجرة من قبل أناس من الشرفاء وتحديد الإيجار العادل، لأن كل عامل يستحق أجره، كذلك ملكية المراعي يجب أن تكون كما كانت عليه يوماً ملكاً للجماعة. بالإضافة إلى العمل على إلغاء الضرائب المفروضة على الفقراء إلغاءً تاماً ولن نتحملها ولن يسمح بنهب أموال الأرامل والأيتام على هذا النحو المخجل، وأخيراً التراجع عن أي خطأ في هذه البنود إذ أيدت لنا أياً من أدلة الكتاب المقدس بطلانه.

(٨) العشور: هي ضرائب للكنيسة فُرضت في مطلع العصر النصراني، وقامت على بعض الأوامر في التوراة، إذ كان يُطلب من الناس دفع العشور أي عُشر دخلهم للكنيسة .وغالبًا ما كانوا يدفعون عُشر محصولاتهم أو حيواناتهم، وقد بُنيت مخازن العشور في القرى لحفظ تلك الحبوب. واستمرت التعريفة الجمركية والضرائب في الأسواق خلال العصور الوسطى في أوروبا، بينما بدأ العديد من المدن يجبي الضرائب على الأراضي والمباني، وكذلك ضريبة رؤوس على كل مواطن. وصار بعض المدن الأوروبية يفرض ضريبة على الأثرياء الذين كان يستوجب عليهم تقدير دخولهم بأنفسهم وهم يُقْسمون أمام مجلس المدينة. ومنذ العصور الوسطى، كانت الضرائب تُفرض على السلع الكمالية؛ على أساس أن من يستطيع شراءها يمكنه أن يدفع ضريبة فوق ذلك للحكومة لتميزه. ومن أمثلة تلك السلع الكمالية الشبابيك والمدافئ ومساحيق الشعر. فقد فُرضت الضرائب على الشبابيك في بريطانيا بين عامي ١٦٩٢ و ١٨٥١م على المنازل التي بها سبعة شبابيك أو أكثر. أما ضريبة المدفأة فقد فُرضت بين عامي ١٦٦٢ و ١٦٨٩م بينما أُعفي منها الفقراء. وفُرضت ضريبة مسحوق الشعر في بريطانيا بين عامي ١٧٩٥ و١٨٦٩م.
وقد أسهم فرض الضرائب غير العادلة في قيام الثورات والاضطرابات المدنية. فضريبة السفن التي فُرضت في الأصل على الموانئ البحرية، وسَّعها الملك تشارلز الأول عام ١٦٣٥م لتشمل المدن الداخلية في بريطانيا فكان هذا التغيير عنصرًا مساهمًا في الحرب الأهلية (١٦٤٢ – ١٦٥١م). ومن جهتها اعترضت المستعمرات الأمريكية على دفع الضرائب إلى بريطانيا في ظل قانون ضريبة رسم الدمغة لعام ١٧٦٥م. وتبنى المحتجون شعار لا ضرائب بدون تمثيل، وتمكنوا من إلغاء القانون في عام ١٧٦٦م. أما في فرنسا، فإن الأعباء الضريبية الثقيلة على الفقراء قادت إلى الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩م.

في الواقع؛ طرأت تبدّلات جذرية على مواقف لوثر، فمن داعية ثوري إلى داعية إصلاحي ثم إلى مُعارض لاستخدام العنف سبيلاً لتحقيق مطالب الفلاحين، فقد تمثل موقف لوثر بكتيب نشر في إبريل عام ١٥٢٥م، وعنوانه:" تنبيه إلى السلام" وفيه يثني على عرض الفلاحين الخضوع لأي قصاص، ينص عليه الكتاب المقدس، وفيه دفاع ضد التهم الموجهة إليه بأنه أشعل نار الثورة فأنكر مسؤوليته عنها، فقال: إنه كان يحث الناس على الخضوع للسلطة الدينية ولكنه لم يسحب نقده للطبقة الحاكمة. وأن الإصلاحية في فكره تستمد مبادئها من الكتاب المقدس، ثم توجه بالنصح إلى الأمراء والسادة الإقطاعيين لكي يعترفوا بعدالة كثير من بنود المبادئ الاثنى عشر، وحثهم على إتباع سياسة تتسم بالرأفة، في وقت توسل فيه إلى الفلاحين كي يحجموا من استخدام العنف وعن الانتقام، لأن العنف سيجعل الفلاحين في وضع أسوأ مما كانوا عليه من قبل، وتنبأ بأن أي ثورة سوف تَصِم بالعار حركة الإصلاح الديني، وأنه سوف يُلام على كل شيء، لأن حرية الإنسان المسيحي هي حرية روحية لا تتعارض مع العبودية ولا الرق.

في حين اتخذ ميلانكتون موقفاً سلبياً من مطالب الفلاحين فقال: "إن الفلاحين - مذنبون - وهو يدعو ضدهم جميع الشرائع الإلهية والبشرية ... وإذا كانت المعاملة اللينة لا تفيد، فيجب على الولاة أن يلقوا القبض عليهم كأنهم لصوص وقتله ... ولكن فليشفقوا على اليتامى عندما يصلون إلى القتل". أما المساواة بين الناس جميعاً كما نصّ عليها البند الثالث من مبادئ الثورة، فأمر مستحيل لأن مملكة دنيوية لا تستطيع أن تقف على قدميها ما لم تكن هناك درجات متفاوتة بين الأشخاص بحيث يكون البعض منهم أحراراً والبعض مسجونين والبعض سادة والآخرون رعايا.

أما حل المشكلات فيمكن أن يتحقق من خلال تبني الدعوة إلى الحل الوسط لحسم جميع الأمور بطريقة ودية بمشاركة بعض الأشراف والكونتات واللوردات، ولتحقيق هذا الغرض فقد توجه لوثر إلى السادة الحكام بالدعوة للتخلي عن عنادهم وأن يقلعوا قليلاً عن طغيانهم واضطهادهم حتى يتنفس الفقراء ويجدوا متسعاً للعيش، وكان قد حذّر الأمراء ليحرصوا من الآثار الناجمة عن سوء الحكم على عموم الناس، فقال مخاطباً الأمراء والأساقفة:" إنكم أنتم علّة هذا العصيان فإنّ صراخكم ضد الإنجيل وظلمكم الأثيم للفقراء هما اللذان أوقعا الشعب في اليأس، فليس الفلاحون يا سادتي الأعزاء هم الذين يقومون ضدكم، بل الله نفسه هو الذي يقاوم جنونكم، وإنما الفلاحون بيده آلة لإذلالكم".[٩]

---

(٩) ميرل دوبينياه، تاريخ الإصلاح في القرن السادس عشر/ ترجمة الشيخ إبراهيم الحوراني.- الطبعة الثانية .- بيروت: منشورات مكتبة المشعل بإشراف رابطة الكنائس الإنجيلية في الشرق الأوسط، ١٨٧٨، ص ٦٦.

في المقابل على الفلاحين أن يعلّموا أنفسهم ويتخلوا عن بعض المطالب التي ترتفع عن مستوى فهمهم وإدراكهم، ورأى أنه لأجل تقوية الإصلاح لا بد من تهذيب الفتيان وتحسين المدارس وإذاعة المعرفة الضرورية لدرس الكتب المقدسة بتعمق في كل العالم المسيحي، ومثل هذه المواقف وما سيليها تفسر مدى قرب لوثر من الأمراء وابتعاده عن الفلاحين الذين طالما وقف إلى جانبهم، ومحاولة تكريسه لسلطة الحكام وعدم الإطاحة بهم، ثم دعوة الفلاحين للخضوع والامتثال لسلطة الأمراء، ناعتاً إياهم بالقصور والسلبية، وغياب الوعي الصحيح لديهم.

وبناءً عليه فقد رفض في البدء العصيان وتوجه إلى مخاطبة الفلاحين بالمواعظ النصوحة لعلها تسكن عقولهم المضطربة فقال:"إن العصيان لا يحدث التحسين الذي نرغبه وهو مشجوب من الله". ثم تجذّر موقف لوثر المعارض لممارسات الفلاحين العنيّفة، ففي منتصف مايو ١٥٢٥م. وضع كتيباً عنوانه:" معارضة لجموع الفلاحين التي تقوم بالسلب والقتل" ينتقد فيه ممارسات الفلاحين الذين وعدوا أن يسلكوا الطريق المستقيم وأن يتعلموا، لكنهم تصرفوا كالكلاب المسعورة فنهبوا وسلبوا... فيجب وضع خطاياهم أمام أعينهم وعلى الحكام أن يتعلموا كيف يسوسون أنفسهم.(١٠)

وكان لوثر يجزم بإمكان تحقيق الإصلاح دون اللجوء إلى الثورة المسلحة، لأن الثورة تأتي معها بأرض مليئة بالقتل وسفك الدماء، وترمّل النساء وتيتّم الأطفال، وتقلب كل شيء رأساً على عقب، فيخاطب الفلاحين:" ضعوا نصب أعينكم أنه لا شيء أكثر فتكاً أو ضرراً أو خبثاً من الثورة"، ولعل أصول موقف لوثر مستمدة من أحداث ورد ذكرها في الكتاب المقدس لتبرير إدانته للعنف وضرورة التسامح، مثلما تصرف" المسيح" يوم شهر أحد تلامذته السيف وقطع أذن أحد المكلّفين بالقبض عليه فوبخه راجياً له المغفرة وأعاد أذنه إلى رأسه ،إيماناً منه بأنّ ما يؤخذ بالسّيف بالسّيف يؤخذ.

إن كثيرين من الذين قاموا بتحليل هذه الحوادث دهشوا من موقف لوثر إزاء الفلاحين عندما قال للأمراء الذين كانوا يحاربون الفلاحين الجملة التي سجلها له التاريخ" قاتلوا هؤلاء الفلاحين ككلاب مسعورة". إن هذا الرجل لم يدافع قط عن الإهانات الشخصية التي وجهت إليه، والذي حاول في كل الظروف التي مر بها أن يستعمل المحبة والصبر واللطف وكيف يمكن أن يأمر الأمراء بان يقاتلوا الفلاحين ككلاب مسعورة!! وستظل الجملة بلا جدال نقطة سوداء

(١٠) سامي الشيخ محمد، مقال بعنوان "حركة الإصلاح البروتستانتي (لوثر ، زونجلي ، كالفن)" ، دنيا الرأي، متاح بتاريخ ٨ يناير ٢٠٠٦، على الرابط:(http://pulpit.alwatanvoice.com/content-35520.html)

في تاريخ هذا الرجل العظيم. وكما يقول الأستاذ جرنر (Greiner) أن قولاً كهذا يعد عثرة ليس فقط لإنسان القرن العشرين بل حتى لإنسان القرن السادس عشر.[(١١)]

استهجن الفلاحون موقف لوثر وأحزنهم هذا التحول وعدّوه خائناً واستمروا في الثورة، فصعّدوا من وتيرة نشاطهم في وجه السلطات الدينية والزمنية، واقترحوا العمل على تصفية أملاك الكنيسة للوفاء بالحاجات الدنيوية، وإلغاء كل الرسوم للنقل والرسوم الجمركية، وألاّ يُستخدم في كل أنحاء أوروبا إلا نوع واحد من السكّة، ونظام واحد من الأوزان والمكاييل.

وفي ربيع عام ١٥٢٥م اشتعلت الثورة، وتم الاستيلاء على السلطات الإدارية وطرد القساوسة من بعض الكاتدرائيات وتحطيم التماثيل الدينية، فتخلّت المدن الخاضعة للسيادة الإقطاعية عن ولائها لهم، ونادت المدن الخاضعة للأساقفة بإنهاء امتيازات رجال الدين، الأمر الذي حدا بعدد ليس بقليل من السادة والأساقفة ورجال الدين من الرتب الدنيا الذين كانوا يمقتون السلطة الكهنوتية إلى الانضمام للثورة، في وقت رحّبت فيه معظم المدن قلبياً بثورات أهالي الريف.

في الحقيقة؛ لم يُقَدّر لثورة الفلاحين النجاح أمام زحف جيوش الخصوم التي تفوقهم عدداً وتنظيماً وتسامحاً، كذلك كان معظم الرجال في قوات الدوقات من الجنود المدربين بينما لم يكن الفلاحون منظمين، ولم يكن بحوزتهم إلا الأسلحة البسيطة، بالإضافة إلى تفشي الاضطراب في صفوفهم، وأعدم (بفيفر) ـ أحد قادة الثورة ـ وباقي القواد، وأُعفي عن الجنود مقابل دفع فدية، وأصبح هواء المدن تشيع فيه رائحة الموت نظراً لشدة آلاف القتلى، بينما استمرت الثورة في النمسا عام ١٥٢٦م لمدة عام بزعامة (ميكائيل جاسماير) الذي قدم أعظم البرامج الثورية ضد الكفرة من غير البروتستانت.

لقد هلكت ثورة الفلاحين حيث هلك نحو ١٣٠,٠٠٠ منهم و تم تنفيذ حكم الإعدام في ١٠,٠٠٠ رجل تحت حكم السوابية، وعلى الرغم من إخفاق الثورة، إلا أنها تألقت بألوان وأفكار بروتستانتية، وأصبحت التطلعات الاقتصادية تغلّف بعبارات أضفى عليها لوثر مسحة من القداسة، أما الشيوعية فلم تكن إلا مجرد عودة إلى الإنجيل. وبالرغم من إدانة لوثر لاستخدام أساليب العنف من جانب الفلاحين، فإن شارل الخامس يفسر "الثورة" بأنها "حركة لوثرية" أما المحافظون فقد نظروا إلى نزع البروتستانت ملكية رجال الدين بمثابة أعمال ثورية،

(١١) القس حنا جرجس الخضري، المصلح مارتن لوثر حياته وتعاليمه: بحث تاريخي عقائدي لاهوتي.- دار الثقافة: القاهرة، متاح بتاريخ ١١ مارس ٢٠٠٩، على الموقع العربي الأول والوحيد عن المصلح مارتن لوثر: (http://www.lutherinarabic.org)

مثل نهب الفلاحين للأديرة، وفي هذه الأثناء أُطلقت عبارات السخرية والتهكم والتصغير على لوثر.

فقد نعته البعض بـ "الدكتور الكذاب" و"المنافق صنيعة الأمراء"وظل سنوات بعد الثورة لا يحظى بأي شعبية فكتب يقول:" هاهم السادة والقساوسة والفلاحون يتجمّعون كلهم ضدي ويتوعدونني بالموت". وقد أقسم من بقي من حزب (منتسر) بإعدام حياته، أما الأمراء الذين قدّر لهم أن يحموه فقد تركوه. فشارل الخامس نفسه عقد بحقه مجمعاً جديداً قاصداً من ورائه أن يضرب الإصلاح ضربة مميتة. تلك الحروب الداخلية جعلته يتنهد ويئن، فكيف يقاوم كل هؤلاء الأعداء الكثيرين؟

إن المواقف الوسطية لمارتن لوثر هي التي جعلت كلاً من الأمراء والفلاحين يسخطون عليه، غير أن المواقف المتطرفة التي تعرض لها من الفلاحين جعلته يتخذ أشد المواقف تطرفاً في مواجهتهم، فقد أجاز قتل الفلاحين الثائرين وانقلب إلى خصم لهم في ٣٠ مايو عام ١٥٢٥م، كما أجاز استخدام الأمراء للعنف، في مواجهتهم بوصفهم ينفذون مشيئة الله حسب الكتاب المقدس، إن هذا التبرير في تأييده للحكام هو شبيه بالتبرير لثورة الفلاحين في مراحل معينة عندما اعتبرهم ينفذون مشيئة الله في حربهم ضد الأمراء.[(١٢)]

وفي خطاب مفتوح ضد الفلاحين يقول:" إن الفلاحين لن يصيخوا السمع، ففي آذانهم وقر ويجب أن تفتح بطلقات الرصاص حتى تقفز رؤوسهم من فوق أكتافهم، إنّ من لا يستمع إلى كلمة الله عندما ترتّل برفق، يجب أن يستمع إلى الجلاد عندما يأتي ومعه الفأس.. وأنتم يا من ترفعون عقيدتكم مطالبين بالرحمة.. لماذا لم تُبدوا الرحمة للأمراء والسادة الذين أرادوا أن يقضوا عليهم قضاءً مبرماً ؟".[(١٣)]

(١٢) سامي الشيخ محمد، مقال بعنوان "حركة الإصلاح البروتستانتي (لوثر ، زونجلي ، كالفن)" ، دنيا الرأي، متاح بتاريخ ٨ يناير ٢٠٠٦، على الرابط:(http://pulpit.alwatanvoice.com/content-35520.html)

(١٣) وعن مفهوم الرحمة والعفو عند لوثر وكلفن راجع:

Jesse Couenhoven, Grace as Pardon and Power: Pictures of the Christian Life in Luther, Calvin, and Barth.- The Journal of Religious Ethics, Vol. 28, No. 1.- Blackwell Publishing: (Spring, 2000), pp. 63-88

زوينجلي قائد حركة الإصلاح الديني في سويسرا

زوينجلي هولدريتش (١٤٨٤-١٥٣١م) زعيم حركة الإصلاح الديني البروتستانتي[١٤] في القرن السادس عشر الميلادي. تركَّز عمله وحياته في سويسرا، إلا أن نفوذه أثر على حركة الإصلاح البروتستانتي في ألمانيا وهولندا وإنجلترا. ولد زوينجلي في وادي ويلدهوس بالقرب من سانت جول بسويسرا، وفي عام ١٥٠٦م تم ترسيمه قسيسًا كاثوليكيًا، وبحلول عام ١٥١٤م صار زوينجلي تابعًا لعَالِم الحركة الإحيائية والفلسفة الإنسانية الهولندي الجنسية ديزيدريوس أرازمس. درس زوينجلي طبعة العهد الجديد التي أصدرها إرازمس وتبنى برنامج الدعاة الإنسانيين لإصلاح الكنيسة. حاول هذا البرنامج أن يتتبع ما استشعره الإنسانيون في العهد الجديد من بساطة العقيدة وما كان عليه النصارى الأوائل من إيمان.

اختير زوينجلي عام ١٥١٨م ليكون قسيسًا لكاتدرائية زيوريخ، فأضحى واعظًا إصلاحيًا ذا سطوة وقوة ينهج نهج وآراء أرازموس، وسرعان ما تمكن من قراءة أعمال المصلح مارتن لوثر. وبحلول عام ١٥٢٠م وضع زوينجلي نظرية لاهوتية بروتستانتية مخالفة لتلك التي وضعها لوثر، وفي أعقاب محاولة أسقف زيوريخ الكاثوليكي إسكات زوينجلي اهتم القضاة المدنيون بكافة الشؤون الدينية للمدينة. وفي عام ١٥٢٣م دعا القضاة لعقد اجتماع علني ليفصل بين المذهب الكاثوليكي والمذهب البروتستانتي الجديد الذي تزعمه زوينجلي ففاز فيه الجانب المؤيد لزوينجلي.

وفي عام ١٥٢٩م تقابل زوينجلي ولوثر في ماربورغ في ألمانيا ليناقشا اختلافهما حول تفسير وجود المسيح في العشاء الرباني!! وقد عدَّ لوثر هذا القربان المقدس وسيلة يظهر من خلاله كرم الرب على الناس. وهو يعتقد حضور المسيح حقيقة في الخبز والنبيذ .بينما يعد زوينجلي هذا القربان صلاة شكر لله على نعم سبقت، لاسيما من خلال الإنجيل. وهو يعد الخبز والنبيذ مجرد رمز لجسد المسيح ودمه. وقد قاد هذا الخلاف بينهما إلى أول انشقاق كبير في صفوف البروتستانت. وأثناء العامين التاليين ألغى القضاة النُصب الدينية، مثل التماثيل وتبنوا الطقوس الدينية البروتستانتية وأغلقوا الأديرة واستبدلوا العشاء الرباني بآخر. وبحلول عام ١٥٢٨م اقتنعت كبرى المدن الألمانية السويسرية بزعامة زيوريخ على الرغم من أن المناطق الريفية بقيت كاثوليكية. قُتل زوينجلي بينما كان يؤدي خدماته قسيسًا في صفوف القوات البروتستانتية وذلك إبان الحرب مع الكاثوليك.

(١٤) فرقة من النصرانية احتجوا على الكنيسة الغربية باسم الإنجيل والعقل، وتسمى كنيستهم بالبروتستانتية حيث يعترضون (Protest) على كل أمر يخالف الكتاب وخلاص أنفسهم، وتسمى بالإنجيلية أيضاً حيث يتبعون الإنجيل دون سواه، ويعتقدون أن لكل قادر الحق في فهمه، فالكل متساوون ومسئولون أمامه.

جون كلفن والإصلاح الديني البروتستانتي

خلال السنوات الثمانية والعشرين الواقعة بين وصوله الأول إلى جنيف في عام ١٥٣٦م، وموته في عام ١٥٦٤م عالج كالفن مسائل لا تحصى بوصفه بطل الإصلاح وداعيته في الخلاف مع الخصوم الكاثوليك الرومان وكمتأمل في النّزاعات الداخلية، ومناصرتها في ألمانيا وسويسرا، وكملهب ومشرف عام على النشاط التبشيري في موطنه الأصلي وأراضٍ غربية أخرى، وكدبلوماسي فعال للسياسات الدولية لفترة طويلة قبيل وفاته عام ١٥٦٤م. فلم تعد جنيف مجرد مدينة للجوء الكثير من المضطهدين من الأصقاع المختلفة ، لكنها أضحت مركزاً لرئاسة الحركة البروتستانتية المشتبكة في حرب بهذه الأراضي مع الكنائس في روما.[١٥]

وهكذا بات في مقدورنا منذ عام ١٥٢٩م تسمية حركة الإصلاح الديني الأوروبي باسم الحركة البروتستانتية التي لم تتوقف عن التطور والتحول، فقد أصدر ملك إنجلترا هنري الثامن قانون السلطة العليا ووضع بذلك الأسس التي قامت عليها كنيسة قومية وطنية في إنكلترا، هي الكنيسة الإنجليكانية، الملك فيها هو الرئيس الأعلى للكنيسة مع كل ما يستتبع ذلك من سلطة روحية، أما الفرنسيون البروتستانت فقد وضعوا وثيقتين بروتستانتيتين هما"الأهاجي" التي ظهرت عام ١٥٣٤م و"المؤسسة المسيحية" التي هي من وضع (كالفن) نفسه عام ١٥٣٦م، فقد كان الفرنسيون البروتستانت قد لجأوا إلى مدينة (نيوشاتل) في سويسرا التي تلتزم بتعاليم (زونجلي) ونظرياته، بينما كان (كالفن) قد أثار من جديد مطالب الإصلاح البروتستانتي، مضيفاً إليها نظريات جديدة بعد تمكنه من تجنب "المثالب التي وقع فيها كل من لوثر وزونكلي".

أما فلسفة كالفن ونظامه الديني؛ فقد تجلت في همه بـ" الحفاظ على سلطان الله وسيادته" وهو بوصفه من أتباع الفلسفة الاسمية، يجزم أن الله تتعذر معرفته. هذه اللاعرفانية ترى أنّه يستحيل على العقل البشري تفهمه وإدراكه حتى ولو بالمجاز، فالصور التي نقيمها له وننحتها عنه في ضمائرنا هي حماقة لا أكثر ولا أقل فالكتاب المقدس وحده يوحي لنا على قدر ما نستطيع أن نفهم ونستوعب وفيه ما يكفي لإثارة الخوف والمحبة فينا، وبواسطة الكتاب المقدس وحده نتعرف إلى الله عن طريق يسوع المسيح وبيسوع المسيح مرآة الله، ولكن أنى لنا أن نعرف الله نفسه معرفة حقيقية، ولنفهم الكتاب المقدس حق الفهم يجب الاستعانة بالروح القدس لأنه يجعل الكتاب المقدس سهل التناول".

---

(١٥) رولان موسنييه، تاريخ الحضارات العام/ تعريب يوسف أسعد داغر وفريد م. داغر.- الطبعة الأولى.- بيروت : منشورات عويدات، ١٩٦٩. الجزء الرابع: القرنان السادس عشر والسابع عشر : التحول الفكري العظيم الذي طرأ علي البشرية طلوع الحركة العلمية الحديثة سيطرة أوروبا، ص ٩٦.

وعليه يصبح الكتاب المقدس المرجع الأعلى في الحياة كما هو الحال عند لوثر. مع فارق جوهري بينهما يتمثل في إعلاء لوثر الأهمية للإنجيل على التوراة، بينما يرفض كالفن وضع التوراة منزلة أقل شأناً من الإنجيل وإنما يساوي بينهما مساواة تجعل منهما كتاباً واحداً، ودرس كالفن القانون بغبطة شديدة ورأى أن القانون وليس الفلسفة أو الأدب هو أبرز نتاج فكري حققته البشرية ،وأنه يصوغ نوازع الإنسان الفوضوية ويحولها إلى نظام وسلام.

نشر كالفن في ميدان اللاهوت "مبادئ الدين المسيحي" باللغة اللاتينية سنة ١٥٣٦م وأعاد نشره معدلاً سنة ١٥٣٩م، ثم ترجمه إلى الفرنسية عام ١٥٤١م، ويعد من أعظم ما أنتجته القرائح تأثيراً في النثر الفرنسي ، ومن خلاله حاول استمالة الملك فرانسيس ــ ملك فرنسا آنذاك ــ حيث استهلت الطبعة الأولى من الكتاب بـ " مقدمة إلى أعظم ملك مسيحي لفرنسا"[١٦] وهي مقدمة تفيض بالمشاعر وبأسلوب رصين.

وكان الأمر الملكي الصادر عام ١٥٣٥م ضد الفرنسيين البروتستانت ودعوته لميلانكتون وبوسر ـ وهما من كبار رجال الإصلاح الديني في ألمانيا ـ للحضور إلى فرنسا لترتيب تحالف بين الأمراء اللوثريين ضد شارل الخامس مع الملكية الفرنسية، أن هيأ لكلفن ظروف حوار جادة مع الملك فرانسيس، يقول كالفن:" لقد عرضت اعترافي عليك لكي تعلم طبيعة تلك العقيدة التي يستهدفها هذا الغضب ... وإني لأعلم جيداً الدسائس الأثيمة التي ملأوا بها أذنيك لكي تبدو قضيتنا بغيضة جداً في نظرك ... وأنت يا مولاي تستطيع أن تتبين الوشايا الزائفة وهي تفتضح كل يوم ... نحن الذين لم يسمعنا أحد نفوه بكلمة واحدة تثير الفتنة، نحن الذين عرفنا طوال حياتنا أن نعيش حياة هادئة مستقيمة عندما كنا نعيش تحت حكمك ولم نكفّ عن الصلاة لك بالنجاح، ولمملكتك بالرخاء، وإني لأدعو الرب ملك الملوك أن يوطد عرشك بالعدل والتقوى، وأن يعم في مملكتك القسط والإنصاف".

لقد كان كالفن رجلاً هائماً في حب الله، وكان يغلبه شعور بضآلة الإنسان وعظمة الله، أما الكتاب المقدس، فهو كلمة الله، وقد أظهر الله نفسه فيه، رأفة بعقل الإنسان، وعليه فالمرجع النظري الكالفاني هو التوراة، بوصفها السلطة السامية المعصومة عن الخطأ في جميع الأمور،أمّا موقفه من العقل فيتّضح من خلال وصفه له بـ "الزندقة، والانحراف والفجور ويصدر عنه ما هو فاسد وخبيث ... إن العقل يظل دائماً متورطاً في النفاق والخداع، والقلب يظل عبداً

(16) John Calvin, Institutes Of The Christian Religion/ Translated by Henry Bevridge, WM.B. Eerdmans.- Michigan : Publishing Company, Grand Rapids, 1995, P. 3.

لانحراف الباطني"، ويسلّم كالفن بأنّ حتمية القدر تتنافى مع العقل، وعليه فإنّ أي محاولة لتقصّي الأمور التي قرر الرب أن يخفيها عنا من جانب البعض لن تفلت من العقاب.

أما الكنيسة والدولة فهما مقدستان من وجهة نظر كالفن لأن الله خلقهما لكي يعملا في انسجام كالروح والجسد لمجتمع مسيحي واحد، ووظيفة الكنيسة تتحدد في وضع القواعد التي تنظم كل التفاصيل الخاصة بالعقيدة والعبادة والأخلاق وعلى الدولة أن تدعم هذه القواعد باعتبارها ذراع الكنيسة الطبيعي، وأن الكلمة الطاهرة هي الوحيدة التي يجب أن يتعلمها ويتلقاها الناس ، بينما الحكومة المثالية هي حكومة رجال الدين ويجب أن تعترف بالكنيسة التي تؤمن بالإصلاح الديني باعتبارها صوت الله.

إن مهمة الكنيسة يجب أن تنحصر في تدريب المؤمنين على القداسة والصّلاح لفئة أرستقراطية تتمتع بالحكمة لتفهم إرادة الله المسيطرة، أما الأساقفة فليسوا إلا رهبان حكموا بقوة سحرية يمتلكونها بأيديهم، بل بتفوقهم بالقداسة والمعرفة كطبقة مثقفة، وعدم الصلاح على نحو ما يراه المصلح الديني يكمن في خطأ تأويل التوراة والإنجيل، وخلافاً للرؤية السابقة للكنيسة يؤكّد كالفن فهمه الخاص بها بالقول:" إننا على طرفي نقيض، نقرّ أن الكنيسة ربما تتشكل من صورة غير منظورة، وإنّ تلك الصورة لم تندرج في المظهر الخارجي الفخم الخاص بها ... لكنها ذات دلالة أبعد، أعني التعليم الخاص لكلمة الله والخدمة الصحيحة للأسرار المقدسة".

أما الدولة فيخضعها كالفن لسيادة الكنيسة، على أن تُشكّل كنائس وطنية مستقلة، فقطع الصلة بالكنيسة الواحدة الجامعة، مما أدى إلى تقوية سلطة الدولة القومية على أساس طاعة أساقفة الكنيسة، والكنيسة هبة من الله، فقد أعطى الله في تحننه للبشر، الكنيسة، والكنيسة الحقيقية لا تقع تحت البصر فهي شركة كل الذين يعمل المسيح في وسطهم والذي يُجري فيهم روح القدس نعمته، إنّها شركة المعدّين منذ الأزل.

أمّا الكنيسة المنظورة فتتمثل في اجتماع المسيحيين في مكان معين، الذين يؤلفون رغبة واحدة تحت إدارة القس أو الواعظ، ومن المهام المناطة بوجود الكنيسة، الحيلولة، دون عمل الهراطقة والخارجين عليها وتأثيرهم على المؤمنين، وتمنع انتشار الأخلاق الرديئة ووظائفها الرئيسة أربع وظائف، (أعمال المحبة، الوعظ وخدمة الأسرار، التعليم، والمحافظة على النظام) ،و خلافاً لتعاليم (زونكلي) حافظ (كالفن) على الأسرار ليس كمجرد ذكرى بل كشهادة حق على نعمة الله، والسر لا يعمل من ذاته حسب التعاليم الكاثوليكية، وإنما يعمل بتدخل مباشر من الله، فالله له كل سلطان وسيادة "والحق أن كنيسة السيد المسيح قد عاشت وسوف تعيش طويلاً مثلما سيتولى السيد المسيح أمر العالم باليد اليمنى للآب".

إنّ التجربة الأساسية لـ كالفن والمجددين من البروتستانت ترتكز على الحس الدقيق بإرادة الله المسيطر وسلطته، فالله هو الحاكم العظيم وكلّي القدرة والخلاص بين يديه، وأن الغاية من خلق الإنسان هي تمجيد الله والتمتّع بحضرته إلى الأبد. في المقابل يشجع (كالفن) تعميق الشعور القومي فالفرح الأسمى هو التضحية بالحياة والضمير في سبيل مجد البلاد، ومفهوم الحياة المسيحية عند كالفن يتلخّص في أن الله أعد الناس للخلاص والقداسة وخضوع شديد لأوامره، وما الحياة الصالحة إلا حافز من أجل تقدم الحياة الأخلاقية.

أما المتتبع لنظام كالفن فسيجده يبتدئ بالحكم الديني وينتهي إلى مفهوم الحرية المدنية، بل والديمقراطية في جانب منها، والحرية المسيحية هي أن يتحرر الإنسان من أوامر الإنسان، وفي وجوب الخضوع التام حرفياً لقانون الله، لقد تأثر كالفن بعقيدة التبرير والاختيار بالإيمان اللوثرية، وتأثر بزونجلي وبنظريته عن القربان المقدس، وأخذ عن (بوسر) الثنائيات المتضادة التي ينسبها لمشيئة الله باعتبارها سبباً لكل ما يحدث، وأنكر الإصلاح الديني الكالفاني من جديد "النهضة" بأبعادها الفنية والأدبية، كما نجح في تحول آراء الناس من جديد إلى العالم الآخر ورفض انشغال علماء الإنسانيات بأفضلية الدنيا، فيقول:" إذا كانت السماء وطننا فماذا بمقدور الأرض أن تكون سوى منفى؟ ألا تكون الدنيا لحداً، إذا كان الرحيل عن هذا العالم معبراً إلى الحياة".

وليس بخاف أن البروتستانتية تدين بالكثير من أفكارها إلى العهد القديم بصفة عامة، ولعل كالفن في فكرته عن اختيار الله لبعض الناس أن يكون مديناً بها إلى الصيغة اليهودية في العقيدة ـ التي تقول بشعب الله المختار ـ فركز على الصفوة لأنه سواء كانت الصفوة معدمة أم لا، أرستقراطية أو وراثية، فأبناء الصفوة يصبحون بمشيئة الله من الصفوة بطريقة آلية.

الجدير بالذكر؛ أن أهم إنجازات كالفن تنحصر في إعادة تنظيم الكنيسة فقد عين المجلس الصغير القائم على شؤونها لجنة من خمسة من رجال الدين، وستة من أعضاء المجلس يرأسهم كالفن لصياغة قانون كنسي جديد، ثم قسّم الخدمة الدينية بين كهان أبرشيات ومعلمين وشيوخ كنيسة من المدنيين والشمامسة.

كما عمل على تعميق دور الحياة الروحية وسيادة السلطة الدينية على السلطة المدنية، ثم عمل على تنظيم عملية الوعظ بموافقة من الجماعة المبجلة - المجلس الصغير - وموافقة مجلس المدينة وجماعة المصلّين والتأكيد على حظر الرسامات الأسقفية وتنصيب القساوسة، في الوقت الذي أصبح فيه القساوسة الجدد تحت رئاسة كالفن أقوى منهم في أي نظام للقساوسة عرف منذ القدم، وأصبح قانون الدولة المسيحية الحقيقي عند المصلح الديني هو الكتاب المقدس - بعهديه

القديم والجديد – والمفسرون الحقيقيون لذلك القانون هم القساوسة، وعلى الحكومات المدنية الخضوع لهذا القانون ودعمه على نحو تفسير رجال الدين له، وعليه فالسيطرة والسلطة لرجال الدين على السلطات المدنية.

ويظهر من تعاليم كالفن وممارستها التشدد الكبير في التنفيذ إذ ادّعى لنفسه الحق في تنظيم العبادة الدينية وفرض السلوك الأخلاقي على كل ساكن، وإرسال قسيس أو شيخ للكنيسة لكي يزورا سنوياً كل بيت وكل أسرة، وحقهم في استدعاء أي شخص للمثول أمامهم، وزجر الآثمين أو حرمانهم من غفران الكنيسة، وكان حكمه المطلق حتى وفاته في عام ١٥٦٤م يعتمد على الإرادة والخلق والإيمان وبهذه السياسة انتصرت الكنيسة على الدولة، لكن الإنسان الفرد كان ضحية لتلك السياسات بحيث ألغى فرديته وقاوم كل محاولة تصدر عن أي فرد من أفراد المجتمع للتعبير عن أفكاره ومعتقداته على نحو يخالف الكنيسة والتفسيرات المعمول بها.[١٧]

لقد كانت معظم أفكار كالفن جدلية، ولم يسبق لأي مصلح نصراني آخر أن فعل ما فعله لدفع الناس إلى التفكير في المسائل الأخلاقية الاجتماعية النصرانية. ومن هذا التوجه الأخلاقي ومن أفكار لوثر، طور كالفن نمط الحكم الكنسي الذي يعرف اليوم باسم الكنيسة المشيخية. وقد نظَّم الحكومة الكنسية بصورة منفصلة عن الحكومة المدنية، حتى يكون هناك جهاز منظم من قادة الكنيسة قادر على العمل في سبيل الإصلاح الاجتماعي. وكان أول قائد بروتستانتي في أوروبا يجعل الكنيسة تحظى باستقلال جزئي عن الدولة.[١٨]

الجدير بالذكر؛ أن الحركة الكلفنية لحنا كلفن قد انتشرت أكثر لما تميزت به من صراحة وحققت مكاسب كبيرة للمذهب البروتستانتي خلال القرنين (١٦)، (١٧) لأن الكلفنيين كانوا أكثر جرأة و اندفاعاً و حماساً و صلابة من اللوثريين، و من هنا استطاعت الكلفنية الصمود أمام الكاثوليكية.



زوينجلي

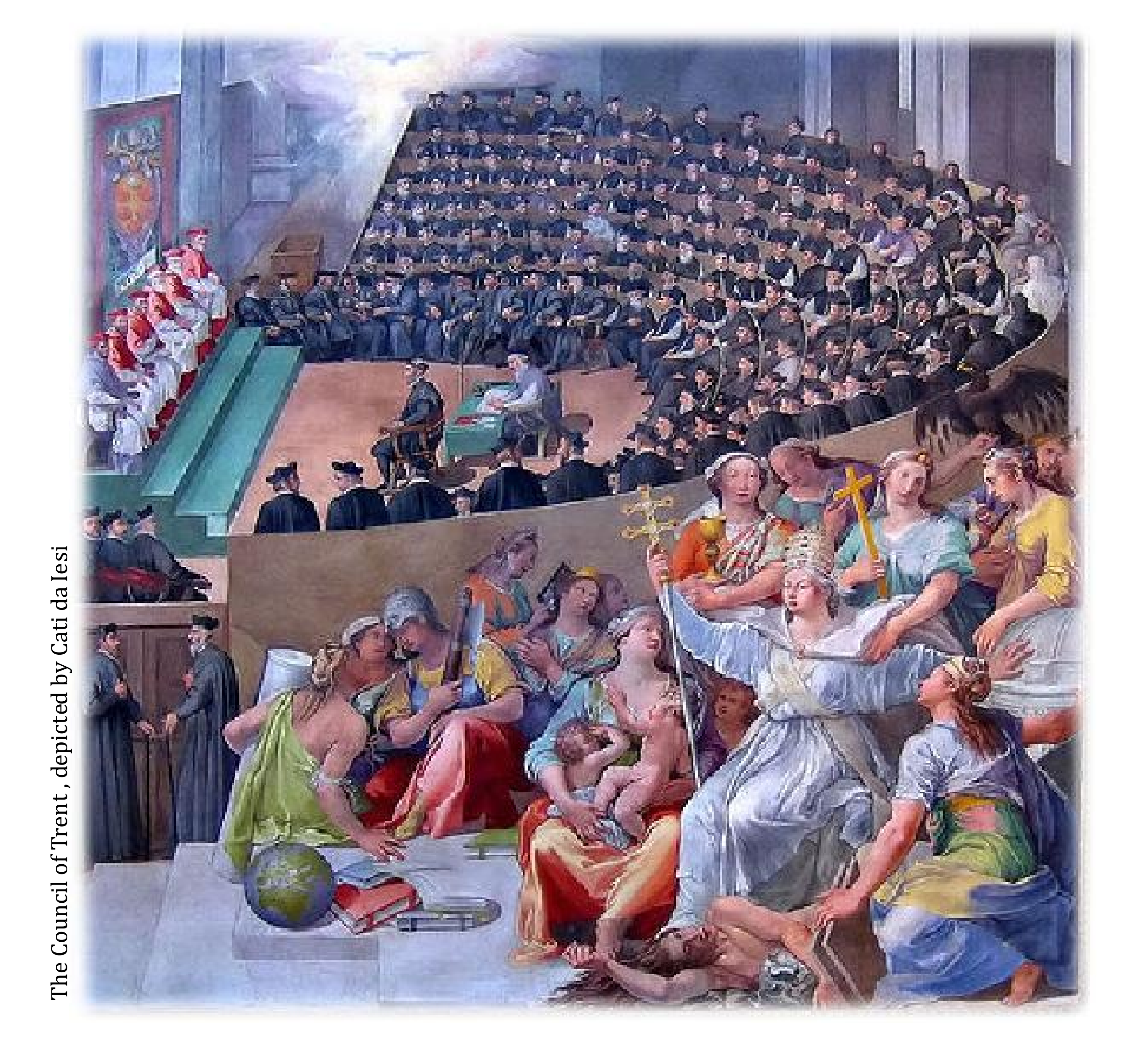


كالفن

(١٧) لمزيد من التفاصيل ، راجع:

حنا جرجس الخضري، جون كلفن: حياته وتعاليمه (١٥٠٩-١٥٦٤م)._ القاهرة: دار الثقافة، ١٩٨٩. (٢٦٥ صفحة)

(١٨) سامي الشيخ محمد، مقال بعنوان "حركة الإصلاح البروتستانتي (لوثر ، زونجلي ، كالفن)" ، دنيا الرأي، متاح بتاريخ ٨ يناير ٢٠٠٦، على الرابط:(http://pulpit.alwatanvoice.com/content-35520.html)



The Council of Trent , depicted by Cati da Iesi

الإصلاح الديني الكاثوليكي وقيام الكنيسة الإنجليكانية

يقول مؤلف كتاب الإصلاح الديني البروفيسور باتريك كولينسون -أحد كبار أساتذة جامعة كامبردج في بريطانيا-الإصلاح الديني في انجلترا حصل في عصر النهضة عندما تحولت انجلترا من المذهب الكاثوليكي إلى المذهب البروتستانتي وقطعت صلتها ببابا روما والفاتيكان ، وهو حدث خطير في تاريخ الانجليز بل ويشكل بداية الحداثة الدينية والفلسفية والسياسية لتلك البلاد. ويرى البروفيسور كولينسون منذ البداية أن الإصلاح الديني الذي حصل في القرن السادس عشر يشكل لحظة هامة ليس فقط بالنسبة للانجليز وإنما للحضارة الأوروبية بمجملها ، فهو الذي شكل هوية أوروبا الحديثة عندما قضى على عهد المملكة المسيحية المقدسة الذي ساد العصور الوسطى وفتح الباب أمام تشكل القوميات الحديثة من ألمانية ، وانجليزية ، وفرنسية ، الخ. فقبل ذلك كان الجميع ينتسبون إلى العالم المسيحي ولا يتمايزون عن بعضهم البعض إلا قليلا ، أما بعد الإصلاح الديني فقد انقسمت أوروبا إلى قسمين: قسم مع الإصلاح الديني وقسم ضده ، قسم مع بابا روما المعادي للإصلاح الديني ، وقسم ضده يدعى بالمذهب البروتستانتي.

الإصلاح الديني الكاثوليكي وقيام الكنيسة الإنجليكانية

الإصلاح الديني الكاثوليكي في القرن السادس عشر: [الإصلاح المضاد – مجمع ترنت (١٥٤٥-١٥٦٣م) – الجزويت – الفهرس (الكتالوج) – محاكم التفتيش] - إنجلترا وقيام الكنيسة الإنجليكانية.

انبثقت معظم الطوائف البروتستانتية من حركة الإصلاح الديني المعروفة التي قامت في أوروبا، ولكن بعضها تم تأسيسه قبل ذلك كالكنيسة المورافية[١]. وتمثل حركة الإصلاح قمة الدعوة إلى التجديد داخل الكنيسة الرومانية الكاثوليكية التي كان من معالمها ترجمة الكتاب المقدس من اللاتينية إلى اللغات المحلية، مما جعل التعاليم النصرانية في متناول كثير من الناس، ورغَّب في العودة إلى القيم والبساطة التي اتسمت بها النصرانية في عهودها الأولى. ثم ظهرت سلسلة من الحركات الدينية التي التقت جميعها في رفضها لسلطة البابا المركزية، ولكنها اختلفت فيما بينها نتيجة لعوامل ثقافية وجغرافية وسياسية ودينية.

الإصلاح الديني الكاثوليكي في القرن السادس عشر

تضم الحركات الإصلاحية المحافظة في القرن السادس عشر جماعات انشقت عن الكنيسة الكاثوليكية ولكنها احتفظت بكثير من العقائد الأساسية لتلك الكنيسة، ومن بين هذه الحركات وفقًا لتاريخ ظهورها : اللوثرية وقد تم تأسيسها وفقًا لتعاليم مارتن لوثر، وتعد من أوائل وأكبر الحركات البروتستانتية التي انتشرت بسرعة شديدة في شمالي ألمانيا وبين الأمم الاسكندينافية خلال العشرينيات من القرن السادس عشر. ويتفق اللوثريون عمومًا على أهمية الإيمان بسُلْطة الكتاب المقدس، ولكنهم اختلفوا اختلافًا كبيرًا، على شكل الطقوس وحكومة الكنيسة، وأدت تلك الاختلافات إلي نشأة طوائف عديدة.

---

(١) من أهم الطوائف البروتستانتية (الإنجيلية):
الكنيسة اللوثرية - الكنائس المصلحة - كنيسة الأدفنست (السبتيون) - الكنيسة المورافية
أنظر: الموسوعة الثقافية (http://www.almaoso3a.com)

وهناك أيضًا الإصلاحية أو المشيخية[٢] وقد تطورت بدرجة كبيرة من تعاليم اثنين من المصلحين؛ زوينجلي هولدريتش(١٤٨٤ – ١٥٣٢م) وجون كَالْفِن (١٥٠٩-١٥٦٤م). ففي عشرينيات القرن السادس عشر شجع زوينجلي على القيام بإصلاحات أكثر تطرفاً من إصلاحات لوثر. وقد أثرت تعاليمه، بدرجة كبيرة في كل من إنجلترا وفرنسا وهولندا واسكتلندا، وعرف أتباعه في إنجلترا باسم البيوريتان (المتطهرين) وفي فرنسا باسم الهوغونيين. كما عمل جون نكس على إدخال تعاليم كَالْفِن إلى اسكتلندا.

الواقع أن؛ أوربا انقسمت نتيجة حركة الإصلاح الديني اللوثري بين الأقطار الكاثوليكية في الجنوب، والأقطار البروتستانتية في الشمال، فنشأت طوائف بروتستانتية كثيرة في مناطق عديدة من أوروبا، وقد أوجدت تلك الحياة الدينية المتنوعة روحًا من التسامح الديني واحترامًا لأهمية ضمير الفرد، كما أثارت حركة الإصلاح المضادة.[٣]

فقد بدأت حركات الإصلاح في الكنيسة قبل أمد بعيد من ظهور البروتستانتية، فخلال القرن الخامس عشر بدأ عدد من رجال الدين النصارى مثل جيرولامو سافونارولا في إيطاليا، وفرانسيسكو خمينيس في أسبانيا بإثارة ضمير الكنيسة ضد المساوئ التي تطورت خلال عصر النهضة. لكن الشرارة التي أحدثت تجديدًا تامًّا في المعتقد الكاثوليكي وممارسات الكنيسة الكاثوليكية، كانت هي رفض المصلحين البروتستانت للبابا، وقد أيقظ هذا الحدث الحماس عند الكاثوليك لتطهير الكنيسة في الرأس والأعضاء بدءًا بالبابا ثم نزولاً إلى غيره.

وصف البابا أدريان الخامس[٤] الكنيسة كما كانت قبل الإصلاح البروتستانتي بقوله:" نحن نعترف بصراحة أن الله سمح باضطهاد الكنيسة بسبب آثام الناس، خاصة الأساقفة ورجال

(٢) الكنيسة المشيخية: تشكل مجموعة كبيرة من الطوائف البروتستانتية في البلدان النَّاطقة بالإنجليزية. وتُدعى هذه الكنائس في خارج هذه البلدان، الكنائس الإصلاحية مثل الكنيسة الإصلاحية الهولندية. وأحد شعارات هذه الكنائس الإصلاح الدَّائم. وتنتمي زهاء ١٠٠ طائفة نصرانية إلى الاتحاد العالمي للكنائس الإصلاحية. وتشير كلمة مشيخي إلى نموذج مميَّز من أشكال إدارة الكنيسة. ويدير أعضاء الكنيسة المشيخية مجالس تسمى الجلسات أو المجامع الكنسية المؤلفة من قس وعدد من الشُّيوخ العلمانيين غير الكهنوتيين. وتبعث الجلسات ممثلين عنها إلى مجالس الكنيسة التي تُدعى مجامع أعضاء الكنيسة أو الشُعب التي تشرف على التجمعات في المنطقة. وتتمثل مجمعات أعضاء الكنيسة في المجامع الكنسية أو الجمعية .وتعمل الإدارة النيابية على جميع المستويات، بحيث يشارك شيوخ علمانيون في الإدارة مع القساوسة، ويكونون جميعهم على قدم المساواة. ويكون لجميع القساوسة مرتبة متساوية.

(٣) الإصلاح المضاد اسم كان يطلق في الغالب على الحركة التجديدية في الكنيسة الكاثوليكية الرومانية خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر. وقد كان كثير من علماء الكاثوليك يفضلون استعمال مصطلحات مثل، الإصلاح الكاثوليكي أو الصحوة الكاثوليكية على هذا الاسم، وذلك تفاديًا لما يتضمنه، من كونه ردَّة فعل للإصلاح البروتستانتي.

(٤) تولى المنصب البابوي عام ١٥٢٢م وتوفي في السنة التالية.

الدين، ونحن نعرف جيدًا أنه لسنوات طويلة كانت هناك أشياء تستدعي الاشمئزاز قد تجمعت حول الكرسي الأسقفي المقدس، وأن أشياء مقدسة قد أسيء استعمالها، وأن الأوامر الإلهية قد انتهكت وكل شيء قد تغير نحو الأسوأ".

وقد اتخذ الإصلاح المضاد طريقين؛ إعادة الإيمان بين النصارى وإعادة تقييم المبادئ، ويقوم بهذا قادة الكنيسة. وقد أثير الحماس الديني عن طريق إقامة أنظمة دينية جديدة في أوائل القرن السادس عشر. ومع تأسيس جمعية المسيح (الجيزويت) عام١٥٣٤م، أصبح الإصلاح المضاد حقيقة واقعة.

وقد أوضح مجمع ترنت، وهو عبارة عن مجموعة من المؤتمرات التي عقدتها الكنيسة الرومانية الكاثوليكية في ترنت بإيطاليا بين ١٥٤٥ – ١٥٦٣م الطريقة التي ينبغي أن يجدد بها الكاثوليك حياتهم وعبادتهم.(٥)

فكانت دعوة البابا بولس الثالث إلى انعقاد المجمع في ١٥٤٢م، وتم افتتاحه في ١٣ديسمبر ١٥٤٥م. وانعقد المجمع خلال ثلاث فترات منفصلة، ثم عاقت الحروب والنزاعات الدينية عمله. وخلال الفترة الأولى من ١٥٤٥م إلى ١٥٤٧م أعلن المجمع أن الإنجيل والتقاليد هما المصدران الصحيحان للإيمان الكاثوليكي. وقد أصدر المجمع مرسومًا يقضي بأن للكنيسة الحق الأوحد في تفسير الإنجيل، أما التقاليد فتشتمل على كتابات الرُسُل، ومراسيم البابوات والمجامع، والعادات التي مارسها الكاثوليك على مدى تاريخ الكنيسة، ورفض المجمع أيضًا وجهات النظر البروتستانتية حول الخلاص والخطيئة.

أما في الفترة الثانية التي امتدت من سنة ١٥٥١م إلى سنة ١٥٥٢م، فقد عرّف مجمع ترنت طبيعة الأسرار السبعة، وأعاد توكيد مبدأ التحويل وهو الاعتقاد بأن الخبز والخمر قد تم تحويلهما إلى جسم المسيح ودمه فيما يسمونه القربان الأقدس. وفي الفترة النهائية من ١٥٦٢ إلى ١٥٦٣م، فقد دافع المجمع عن صُكوك الغفران، وأقرّ كذلك الصلوات من أجل القديسين، وعَرَّف ذبيحة القُداس، وكثيرًا من العقائد النصرانية. وأمضى المجمع إصلاحات مثل تأسيس مدارس اللاهوت لتدريب الكهنة، وتحقيق مطلب عيش كل أسقف في منطقته الخاصة. وقد صدق البابا بيوس الرابع في ٢٦ يناير سنة ١٥٦٤م على كل المراسيم التي صدرت عن المجمع، والتي أصبحت فيما بعد جزءًا من العقيدة الكاثوليكية.

لقد حاول المجمع أن يعرف المعتقدات الكاثوليكية، وأن يُبطل تعليمات البروتستانت، فقام المجمع بعدة إصلاحات في إجراءات الكنيسة الكاثوليكية خلال القرنين ١٦، ١٧م. فحدد طبيعة

(٥) راجع موقع مجمع ترنت على شبكة الإنترنت: (http://www.thecounciloftrent.com/index.htm)

الرحمة، والإنقاذ من الخطيئة، والتضحية للجماهير (للقداس)، والكهنوت والأسرار المقدسة السبعة وسلطة الكنيسة. وهو أيضًا الذي خوّل للمعاهد الدينية أنْ تدرِّب القساوسة، وشرع لباسًا كهنوتيًا لرجال الدين. وأصدر كتابًا مشتملاً على خلاصة العقيدة، وطالب الكهّان أن يقيموا في أسقفياتهم. إضافة إلى ذلك شجع المجلس على إنشاء المدارس، وألحَّ على أن يعيش الكهَّان، والراهبات عيشة متقشفة؛ وشجع على بعث الإرساليات التنصيرية في كل أنحاء العالم. وقد أثرت المبادئ التي أصدرها المجمع تأثيرًا كبيرًا في الكنيسة منذ ذلك الحين.

وتجدر الإشارة إلى؛ أن تجديد الإيمان أثّر بين الكاثوليك في كل أشكال الفنّ، فمثلاً حركة الباروك في الرسم، والنحت، والهندسة المعمارية، كثيرًا ما يجري تعريفها مع الإصلاح المضاد. وقد اتسمت هذه الحركة بأعمال فنية درامية وعاطفية. وفي مجال الأدب قام الشعراء الكاثوليك الإنجليز ريتشارد كراشو، وجون درايدن، وروبرت ساوثهويل بكتابات مُكثَّفة لأعمال شعرية روحية مطابقة لتلك الروح في الإصلاح المضاد.

وفي الحقيقة؛ لقد أسهم اكتشاف العالم الجديد والثورة الصناعية في نجاح حركة الإصلاح المضاد. وقد ساعد استعمار الأمريكتين الشمالية والجنوبية الكنيسة في تحقيق رغبتها في أن تمد حدود النصرانية، كما جاء التصنيع بأعداد كبيرة من الكاثوليك من المناطق الريفية إلى المناطق المدنية، وأدت هذه الهجرة إلى تكوين أبرشيات ومدارس كاثوليكية، وإلى تطوير ثقافة كاثوليكية متميزة.

وكان من دلائل انتعاش الكاثوليكية نشاط الطوائف أو الجامعات القديمة مثل الفرنسسكان والدومنيكان، ثم ظهور طوائف وجماعات دينية جديدة. وكان الجزويت أهم هذه الجماعات الجديدة ذات الأثر البعيد في المحافظة على كيان الكنيسة. ومؤسس هذه الجماعة رجل نشأ بين الشعب الأسباني المغرق في تعصبه للكاثوليكية هو دون اينجو لوبيز دي ريكالدى Don Inigo Lopez do Recalde وقد اشتهر في كتب التاريخ باسم اجنات ليولا Ignatins Loyola أو "انياس لايولا" (١٤٩٠ – ١٥٥٦م).[٦]

نشأ اجنات ليولا رجلاً كبير المطامع محباً للشهرة والفخفخة، فاتخذ صناعة الجندية سلماً لأطماعه رجاء أن ينال بتبريزه فيها مقاماً بين الناس محموداً، ولكنه في حصار بامبولين أصيب بكسر في فخذه قضى عليه من الوجهة العسكرية. وبينما كان يُمرض في المستشفى أعطي إليه كتاب في حياة القديسين ليطالعه في وحدته، فأكب عليه وتأثر بما فيه غاية التأثر وعزم أن يتبع

(6) J. A. Wylie LL.D., History of the Jesuits: Excerpted from the massive 2 vol. History of Protestantism, Chapter 1, available in 30 October 2008 at: (http://reformation.org/jesuits1.html)

طريق الدينيين، وجال في خاطره عند ذاك تأسيس طائفة دينية ولكنه أدرك أن جهله لا يسمح له بالتطلع لهذا المركز الرفيع، فأكب على دراسة العلوم وسنه ثلاث وثلاثون سنة وصار يتنقل من جامعة إلى جامعة لتحصيل الفلسفة العالية حتى نال مكاناً عالياً منها.

كان مارتن لوثر في هذا العهد يمهد طريق الإصلاح الديني البروتستانتي، فأجمع اجنات ليولا على معاكسته وصد الناس عن سبيله. فكان كلما أرشد لوثر إلى اعتبار العقل واستشعار الحرية في البحث والمناقشة وتأييد الحكومة الحرة المدعمة على القوانين، كان اجنات يتشدد في وجوب الطاعة بلا تردد لأحكام الدين، وبتقرير حكومة مطلقة يقودها ملك فرد، فكان يرمي في تعاليمه إلى جعل أتباعه أشبه بالجنود في ساحة الوغى يجب عليهم الاستسلام لقائدهم يوجههم ويرمي بهم حيث أراد.

تعرف اجنات ليولا أثناء إقامته بباريس ببعض الطلاب في علم اللاهوت وهم بيبر لوفيفر وورود ريجز وفرانسوا كسافييه وثلاثة من الإسبانيين مثله وهم جان لينز ونيكولا بوباديلا والفونس سالميرون. فاجتمع بهم في ١٥ أغسطس سنة ١٥٣٤م في مكان تحت الأرض من كنيسة مونتمرتر، وهنالك تعاهدوا على العفاف والفقر وإرشاد الكفار إلى الدين، وحج الأراضي المقدسة. ولما كانت الحروب قائمة بين الأوروبيين والأتراك في ذلك العهد عدلوا عن الحج إلى إرشاد الكفار للدين وقرروا أن يتفرقوا في الأقطار على أن يجتمعوا في فنيز سنة ١٥٣٧م أي بعد تعاهدهم بثلاث سنين ليقدم كل منهم بياناً عما فعله في تلك المدة.

وفي أكتوبر من السنة التالية اجتمع لايولا ولوفيفر ولينز وشخصوا إلى روما فقابلوا البابا بولس الثالث وعرضوا عليه مشروعهم من تكوين طائفة دينية لنشر مبادئ الديانة الكاثوليكية وتأييد مركز الكنيسة الرومانية، فأظهر ارتياحه لعملهم وأصدر أمره بتأسيس تلك الطائفة في ١٧سبتمبر سنة ١٥٤٠م وسمى ليولا طائفته بالجزويت مصداقاً لمشهد روحاني شهده كما قال رأى فيه الآب مع ابنه حاملاً صليباً طويلاً وهو يشكو من آلامه، فأوصى الآب المسيح بليولا وأوصى ليولا بالمسيح خيراً .(٧)

كان اجنات ليولا يرمي بهذه الجمعية إلى تحقيق غرضين أولهما هداية الكافرين إلى المسيحية وثانيهما تكوين جيش محارب لنصر البابا، فوضع اجنات ليولا نظام هذه الطائفة ولما خلفه تلميذه لينز غيّر كثيراً من ذلك النظام وخفف من صرامته. وينقسم أعضاء هذه الطائفة إلى خمسة أقسام:

(٧) جاد طه، تاريخ أوربا الحديث، ص ١٣٦ – ١٣٧.

(١) الأعضاء الزمنيين وهم الذين يمكثون سنة تحت التمرين تؤخذ عليه عهود بسيطة ويشتغلون بأعمال يدوية ويؤدون الوظائف الدنيئة.

(٢) الأعضاء الجدد وهم شبان متعلمون معتني بانتخابهم. يحرم عليهم الاشتغال بأي درس مدة سنتين ولا تؤخذ عليهم عهود، وبعد مضي السنتين يسمح لهم بدراسة الأدب والفلسفة والعلوم، فإذا بلغوا الثامنة والعشرين أو الثلاثين بدأوا بدراسة علم اللاهوت ثم عينوا قسوساً، وإذ ذاك ينقطعون سنة كاملة عن كل درس أو اختلاط مع الناس، وتسمى هذه السنة بمدرسة القلب وبعدها تؤخذ عليهم العهود المقررة.

(٣) الأعضاء المسمين بالتلاميذ هم رجال متعلمون أخذت عليهم العهود السرية المقررة ووظيفتهم الدعوة والإرشاد وقيادة الضمائر.

(٤) الأعضاء الروحيون وهم أرقى من السابقين تؤخذ عليهم عهود عالية ووظيفتهم مساعدة الأساتذة.

(٥) الأساتذة وهم الطبقة العليا من هذه الطائفة اختيروا من خلاصة الأشياع وهم الأعضاء الحقيقيون لجماعة الجزويت العارفون بأسرار طائفتهم ولأجل أن يبلغ الرجل إلى هذه المكانة يجب عليه أن يتعهد برعاية الرهبنة وإيثار الفقر والإخلاص المطلق للبابا وأن يقبل أي مهمة تسند إليه.[٨]

وكانت رئاسة هذه الطائفة تسند إلى واحد من قسم الأساتذة يشغلها مدة حياته. وعليه أن يقيم بروما وله سلطة مطلقة على أشياعه اتباعاً لهذا الأصل الذي وضعه ـ اجنات ليولا ـ مؤسس هذه الطائفة وهو "على كل عضو من هذه الطائفة أن يطيع كما لو كان جثة هامدة أو عصا في يد رجل هرم". ولما جاء البابا جول الثالث زاد في امتيازاتهم فجعلهم غير خاضعين لأي سلطة في الأرض إلا سلطته وسلطة رئيسهم، وقد عرف الجزويت كيف يستفيدون من هذا المركز الاستثنائي فبذلوا جهدهم لتحقيق أمنيتهم وهي قيادة العالم والسيطرة على أرواحهم.

تذرع هؤلاء الناس بالصبر والحلم والمداخلات والثبات، فلم يهنوا أمام كارثة، ولم يتشددوا أمام جبار كيلا يكسرهم، بل عرفوا كيف يداورن وكيف يتدخلون ويحتاطون بالأكابر والأصاغر كل على قدر عقله ورتبته حتى أنك كنت تجدهم مع الملوك وعند نديماتهم ومع القادة والمقودين على السواء، لذلك لم يحدث حدث سياسي أو اجتماعي إلا ولهم يد فيه، فكانوا يؤيدون الوزراء أو يسقطونهم، ويهيئون الثورات أو يفشلونها، ويروجون الإشاعات ويبطلونها، فكانوا هم الحاكمين حقيقة خلف كل ملك ووراء كل قائد آمر.

---

(٨) الموسوعة العربية: بوابة عربية إسلامية شاملة، فرق ومذاهب دينية / جزويت. – متاح بتاريخ ٢٠ مارس ٢٠٠٩ على الرابط : (http://aarabiah.isoc.ae)

كان مما قرره مؤسس طائفتهم عليهم من القيام على هيئة من الهيئات أنه يجب على كل منهم أن يكون رأسه منخفضاً إلى الأمام غير مائل إلى أحد الجانبين، وأن تكون عينه دون مخاطبه بحيث لا يراه إلا اختلاساً، ويجب أن تكون شفتاه لا مفرطتين في الانطباق ولا مفتوحتين، وأن لا يجعد جبهته ولا أنفه وأن يظهر مسروراً محبوباً لا حزيناً عبوساً . كانت كل مجهودات الجزويت ترمي إلى غرض واحد وهو توزيع جيشهم الجرار في كل مكان بحيث إذا أعطيت لهم إشارة قاموا دفعة واحدة في آن واحد لتحقيق مراد داعيهم الأكبر .

ثبت تدخل الجزويت في الجرائم السياسية كمقتل هنري الرابع، فاضطرت بعض الأمم لطردهم من بلادها فقد طردوا سنة ١٥٧٨م من أنفير، وسنة ١٥٩٨ من هولندا، حيث ثبتت عليهم المؤامرة على قتل موريس ناسو، وسنة ١٦١٨ من بوهميا، وسنة ١٦١٩ من مورافيا، وسنة ١٦٤٣من مالطة، وسنة ١٧٢٣ من روسيا، وسنة ١٧٥٩ من البرتغال حيث تآمروا على قتل الملك، وسنة ١٧٦٧ من أسبانيا حيث كدروا صفو الأمن العام، وسنة ١٧٦٧ من سيسيليا، وسنة ١٧٨٦ من بارم .[٩]

اشتهر الجزويت في جميع أقطار الأرض بتحريك السواكن والعمل في الخفاء لأغراض بعيدة، فرمتهم الأمم عن قوس حتى أن البابا كليمان الرابع عشر لما اضطر لتحسين سياسته مع ملوك أوروبا إلى إقفال مدرستهم في روما سنة ١٧٧٢، ثم أصدر أمره في السنة التالية بمحو طائفتهم .

كان عدد الجزويت عند نكبتهم هذه (٢٢٥٥٩) فلم تنثن عزيمتهم ولم تفتر همتهم بل ضموا صفوفهم وجعلوا لهم رئاسة سرية، وقد أعاد البابا اعتبار طائفتهم سنة ١٨٠١ تحت اسم طائفة القلوب المقدسة وتمكن سنة١٨١٤ من إصدار أمر بابوي ملغيا لأمر كليمانس الرابع عشر وأعاد لطائفة الجزويت حقوقها كافة، ولكنها لتهم أفرادها ومداخلاتهم استجلبت سخط الممالك من جديد فابتدأت تطاردها.

الواقع أن؛ طائفة الجزويت امتازت بغرض بعيد وهو أنها رأت أن المسيحية جاءت لتخلع الناس عن هذه الحياة فلم تنجح، وحاول رجال القرون الوسطى أن يعيدوا شباب مبادئها هذه ففشلوا، فكان الفارق بين المسيحية وروح العصور كبيراً جداً فأراد الجزويت أن يخففوا من هذا التشدد ليجذبوا الناس إلى ديانتهم. رأوا أن الناس كلهم لا يأتون إليهم فذهبوا هم إلى الناس، ورأوا أنهم لا يحضرون إلى الكنائس فحملوا الكنائس إليهم، وآنسوا أنهم أصبحوا يحبون التقرب من الطبيعة فاعتبروها وجعلوا لها من مباحثاتهم شأناً. فقال هنري مارتان الكاتب

(٩) شبكة الفيصل نت، مقالات: أديان ومعتقدات / جزويت، متاح بتاريخ ٨ سبتمبر ٢٠٠٧، على الرابط: (http://www.fesal.net/articles)

الفرنسي: "فلو أضافوا إلى هذه الأغراض الحاذقة استقامة وحرية وروحاً دينية حقيقية لاستطاعوا أن يردوا إلى الطبيعة حقوقها بدون أن يمسوا بقوانين الحق والفضيلة الأزلية".

كان من الأمور التي تركها مجلس ترنت عند انتهائه ليتصرف فيه البابا نفسه اختيار فهرس بأسماء الكتب التي تريد الكنيسة تحريم قراءتها على رعاياها.

فقد كان الباباوات من أواخر القرن الخامس عشر يفرضون العقوبات على المؤلفين وأصحاب دور الطباعة والنشر والمشترين والقارئين الذي يتداولون الكتب المهرطقة أي التي تحمل بين طياتها كفراً وزندقة، وتدخل تحت هذا العنوان الكتب التي تتعارض مع المذهب الكاثوليكي أو التي ترمي إلى رقابة كاملة على جميع المطبوعات المتداولة في روما والولايات البابوية، وكان المقصود من إدراج الكتب في الفهرس أو الكتالوج هو وجوب إحراق هذه الكتب.



البابا بول الرابع (١٤٧٦ - ١٥٥٩)

وفي أثناء الفترة التي توقفت فيها جلسات مجمع ترنت وامتدت عشر سنوات (١٥٥٢ – ١٥٦٢م) وضع البابا بول الرابع[١٠] في عام ١٥٥٩م أول الفهارس وكان من ضمن الكتب المحرمة في الفهرس كتب المصلحين مثل لوثر وزونجلي وكلفن.

وقد نقد مجلس ترنت هذا الفهرس لقصوره ونقص محتوياته، وعلى ذلك فقد أعد فهرس جديد عام ١٥٦٤، ثم تكررت مراجعة هذا الفهرس عدة مرات حتى عام ١٥٩٦. واستمر معمولاً بهذا الفهرس الأخير مع بعض الإضافات من وقت لآخر إلى نحو القرن الثامن عشر. وقد ظهرت آثار تحريم تداول الكتب على البلاد الكاثوليكية مثل إيطاليا وأسبانيا والبرتغال وبلجيكا، إذ ضرب على هذه البلاد ستار كثيف حال دون انتقال ثقافة وعلوم الشعوب البروتستانتية في شمال أوربا إلى البلاد الكاثوليكية، مما أدى إلى وضع الحواجز الخطيرة أمام انتشار العلم والمعرفة.



أما محاكم التفتيش فكانت الوسيلة الأخرى التي لجأت إليها كنيسة روما في حركة الإصلاح الديني المضاد، وقد نشطت محاكم التفتيش Inquisition في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، وكانت مهمتها اكتشاف مخالفي الكنيسة ومعاقبتهم.

إستُخدِمَت بشكل عام لمحاكمة المهرطقين بواسطة الكنيسة الرومانية الكاثوليكية. وكان ذلك من خلال محاكمات

(١٠) وُلد بول في كانينو قرب بنيغينتو في إيطاليا. وكان اسمه الكامل هو جيان بيترو كرافا. وكان زاهدًا في الحياة. وصل بول إلى منصب كاردينال عام ١٥٣٦م وقاد الإصلاح الديني اللوثري إلى حد ما في روما. وابتداءً من عام ١٥٥٠م ترأس تحقيقات روما وأصبح مشهورًا بالعنف الذي لا يعرف الاستسلام. انتخب للبابوية عام ١٥٥٥م. وكانت له اتجاهات قوية في مقاومة حركة التجديد الكنسي وهو الاتجاه المسمى بالإصلاح المضاد .وكان بول صارمًا رافضًا أي صلح مع الحركة البروتستانتية أثناء الإصلاح الكنسي. ولم يعترف بالتسويات الدينية السلمية التي قام بها أوغسبورغ عام ١٥٥٥م. واعترف فيها باللوثرية في ألمانيا. وكان ينظر نظرة تشكك إلى أي انحراف عن الأرثوذكسية الجامدة .ووسَّع أنشطة التحقيقات، حتى تم وضع أول قائمة بأسماء الكتب الممنوعة. راجع:

النسخة التجريبية من (NNDB)، متاحة بتاريخ ٢٠/ ٣/ ٢٠٠٩ على الرابط: (http://www.nndb.com/people)

Leopold von Ranke, "Portrait of Pope Paul IV", available in 1 August 2004 at: (http://www.umass.edu/wsp/methodology/ranke/paul.html).

J. Loughlin, Pope Paul IV. In The Catholic Encyclopedia. New York: Robert Appleton Company. Retrieved March 20, 2009 from New Advent: (http://www.newadvent.org/cathen/11581a.htm)

"Pope Paul IV Biography", in Biography Base, Available in 20 March 2009 at: (http://www.biographybase.com/biography/Paul_IV_Pope.html)

إكليريكية أو المحاكم التي كانت تقيمها الكنيسة الرومانية الكاثوليكية لقمع أو مكافحة الهرطقة، وكانت مهمتها اكتشاف السحرة ومعاقبتهم حيث قامت محاكم التفتيش بحرق (٥٩) امرأة باسبانيا، (٣٦) بإيطاليا و(٤) بالبرتغال، بينما قامت محكمة القضاء المدني الأوروبي بمحاكمة (١٠٠) ألف امرأة، (٥٠) ألف منهم تم حرقهم، (٢٥) ألف بألمانيا خلال القرن السادس عشر بواسطة أتباع مارتن لوثر. وكانت سلطة محاكم التفتيش على أتباع الكنيسة من المعمدين فقط، والذين كانوا يشكلون الغالبية من السكان، لكن كان ممكنًا لغير المسيحيين أيضًا أن يحاكموا بتهمة سب الدين.(١١)

وكان استخدام وسائل التعذيب في حق من كان يُظن أنه من الهراطقه أمر مألوف كأسلوب بشع للعقاب من قطع أوصال وحرق الناس أحياء، فوصلت الأعداد التي تم تعذيبها ثلاثمائة ألف من البروتستانت ومائة ألف بلغاري وفرنسي وأرثوذكسي.

وفي القرن السادس عشر أصبحت اسبانيا أكبر قوه كاثوليكية في العالم آنذاك، وكانت موضع حسد من العالم البروتستنتي في الشمال، وكانت إسبانيا نموذجًا لدولة دينيه سلطويه، فتتحكم وتعين الكنيسة فيها الملوك والأباطرة الذين يحكمون بحاكميه تسمى ظل الله في الأرض أو قانون الحق الإلهي، وللقضاء على ما سموه وقتها بالفساد واستهدفت من ثم إجبارهم على اعتناق المسيحية من المسلمين و اليهود(١٢) ، ثم استهدفت المعتقدات المسيحية الأخرى وخاصة البروتستانتية وظهرت كلمة الهرطقة، وهى وصف لمن اختلف معهم في الشرح المحدد للنص الإنجيلي من قبل الملتزمين في الكنيسة الكاثوليكية.

وكان توماس توركوما دا، وهو رجل دين منتسب للمسيحية يرأس هيئة التفتيش للبحث عن هؤلاء الهراطقه، فيقوم بوعظهم وتعذيبهم وقتلهم إن لم يعودوا إلى كنف الكنيسة الكاثوليكية، وكان يسمى بالمفتش العظيم أو جراند إنكويستر، وكان يعدم واحدًا على الأقل من كل عشرة أشخاص يمثلون أمام محكمته وكان ذلك بأسلوب خجلت منه الكنيسة الكاثوليكية واعتذرت عنه للعالم. كما كانت محاكم التفتيش وسيلة ملوك أسبانيا الصليبيين لتطهير أسبانيا من الهراطقة و جميع من يعتقد بغير الكاثوليكية، و ذلك برغم المعاهدة الموقعة منهم.

أما محاكم التفتيش الروماني Roman Inquisition فكانت نظاماً من المحاكم أنشأه الحبر الأعظم أثناء النصف الثاني من القرن السادس عشر، وكان مسئولاً عن ملاحقة الأفراد المتهمين

(11) David Burr, “INQUISITION: INTRODUCTION”, available in 15 February 2009 at: (http://www.fordham.edu/halsall/source/inquisition1.html)
(12) Robert Green Ingersoll, “Spain And Spaniard” available in 20 March 2009 at: (http://www.infidels.org/library/historical/robert_ingersoll/spain_and_spaniard.html)

بأي جريمة من قائمة طويلة من الجرائم المتعلقة بالهرطقة، ومنها السحر والشعوذة وعدم احترام المقدسات، وللرقابة على المؤلفات المطبوعة. وقد غطت هذه المحاكم القسم الأكبر من شبه الجزيرة الايطالية ، فضلا عن مالطة والمناطق المعزولة من الولايات البابوية في أوروبا ، بما في ذلك افينيون في فرنسا.(١٣)

وقد نجحت محاكم التفتيش الرومانية في القضاء على البروتستانتية في إيطاليا من جهة، كما نجحت في إذكاء روح التعصب في الكنيسة. ويحدد تأسيس هذه المحاكم في عام ١٥٤٢ بداية عهد الإصلاح الكاثوليكي في إطاره الضيق، أي الإصلاح المستند على استخدام وسائل العنف والقوة التعسفية لإرجاع الكنيسة إلى مكانتها، وذلك بالقضاء على الذين يريدون الإصلاح الكاثوليكي على أساس التسامح والتساهل مع البروتستانتية من جهة، ثم القضاء على أتباع البروتستانتية من جهة أخرى.

ولقد كان نجاح محاكم التفتيش نجاحاً هزيلاً، فهي لم تنجح نجاحاً تاماً في القضاء على المذاهب المخالفة للكاثوليكية سوى في إيطاليا واسبانيا، وكان هذان الإقليمان أقل البلاد تقبلا للمذاهب الجديدة، ولذلك كان أتباع هذه المذاهب من قلة العدد بحيث كان تأييدهم ضعيفاً جداً في المجتمعات الايطالية والاسبانية، وفيما عدا ذلك فقد أثارت محاكم التفتيش بإجراءاتها الشاذة وأحكامها غير الإنسانية مزيداً من العداوة بين البروتستنت في شمالي أوربا وغربها، وجعلتهم يصرون على الابتعاد عن كنيسة روما ومقاومة المحاولات التي كانت تبذل لإرجاعهم إلى حظيرة الكاثوليكية.

ولذلك؛ يقرر أغلب المؤرخين أن جهود جمعية الجزويت وقرارات مجمع ترنت هي التي أسهمت إلى حد كبير في النجاح الذي حققته حركة دعم الكنيسة الكاثوليكية في نهاية القرن السادس عشر، أما محاكم التفتيش فلم يكن لها أدنى أثر في هذا النجاح.(١٤)

(13) “historical overview of the inquisition”, available in 5 December 2008 at: (http://galileo.rice.edu/lib/student_work/trial96/loftis/overview.html)

(١٤) جاد طه، تاريخ أوربا الحديث، ص ١٤٣.

إنجلترا وقيام الكنيسة الإنجليكانية

أما الإنجليكانية أو الأسقفية، فقد بدأت في إنجلترا نتيجة لقانون السيادة لعام ١٥٣٤م الذي أعلن فيه الملك هنري الثامن استقلاله عن البابا وأصبح بذلك الرأس الأعلى للكنيسة في إنجلترا، ورغم أنه ظل كاثوليكيًا، ولم يشجع أفكار البروتستانت مثلهم، فإنه أمر بترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة الإنجليزية. ونتيجة لذلك وبعد جدال طويل وسفك للدماء، تأسست الكنيسة الإنجيلية في إنجلترا. وفي عام١٥٥٩م أسست الملكة إليزابيث الأولى نموذجًا معتدلاً من البروتستانتية عرف فيما بعد الإنجليكانية.[(١٥)]

مصطلح الأنجليكان و(الكنيسة الأنجليكانية)Ecclesia Anglicana يستخدم لوصف الناس والمؤسسات والكنائس فضلا عن التقاليد الدينية والطقوس والمفاهيم المتقدمة التي أنشئت في كنيسة إنجلترا الإنجليكانية.[(١٦)] الإنجليكانيون تقليديا يؤرخون نشأة كنيستهم في انكلترا إلى كبراء أساقفة كانتربري، القديس أوغسطين في نهاية القرن السادس، لكن المصادر في مجلس الكنيسة تمتد إلى أبعد من ذلك، بعد أن اكتسبت المسيحية أول موطئ قدم لها أثناء الاحتلال الروماني قبل القرن الخامس وربما منذ القرن الأول. أول شهيد مسيحي سجل في بريطانيا هو القديس ألبان ، الذي يُعتقد انه عاش في أوائل القرن الرابع، وله أهمية في هاغيوغرافية الانغليكان تتجلى في عدد من كنائس الأبرشية الذي كان راع لها. الانجليكانيون الايرلنديون هم أيضاً يحددون أصولهم إلى فترة تأسيس القديس الراعي (القديس باتريك) لايرلندا المسيحية، وهو بريطاني روماني جاء قبل المسيحية الانجلوسكسونية.[(١٧)]

فبينما يعترف الانجليكانيون بأنهم نبذوا السلطة البابوية على يد هنري الثامن وتحولوا إلى كنيسة إنجلترا القائمة ككيان مستقل، فإنهم لا يزالون يؤكدون على استمرارية الكنيسة الحالية مع كنيسة ما قبل الإصلاح. بغض النظر عن العادات والصلوات الخاصة، إلا أن الآلية التنظيمية لكنيسة إنجلترا كانت قد وضعت في عامي ٦٧٢-٦٧٣ عندما استطاع مجلس الأساقفة لأول مرة من العمل كشخص واحد تحت قيادة رئيس أساقفة كانتربري.

---

(١٥) موسوعة الواحة ، الإنجليكانية، متاح بتاريخ ١١ مارس ٢٠٠٨، على الرابط: (http://www.coptreal.com)

(16)Paul. "What is Anglicanism?", in The Study of Anglicanism, ed. S. Sykes and J. Booty (London: SPCK,1988), pp. 417-19.

(17) González, Justo L., The History of Christianity, Volume I: "The Early Church to the Dawn of the Reformation", San Francisco: Harper, 1984.

إن أثر قانون هنري لضبط العمل في الاستئناف (١٥٣٣)، وأعمال السيادة (١٥٣٤) كان لمجرد إعلان بان التاج الإنكليزي هو"أعلى سلطة على الأرض لكنيسة انكلترا، سميت Anglicana ecclesia " وان أسقف روما ليس لديه "أي سلطة أضافية في انكلترا من أي أسقف أجنبي". فالإصلاح الإنكليزي في البداية كان مدفوعا لأهداف هنري الثامن الذي في سعيه للحصول على قرينة التي ستحمل له الوريث الذكر، ولكن وجد هذا وسيلة لإحلال سيادة التاج البريطاني بدل السيادة البابوية.

حين يتم فحص القوانين الأولى عن قرب، يُقترَح انه لم يكن في نية هنري تأسيس كنيسة جديدة. وهو على دراية كافية عن التاريخ ليعرف أن السلطات التي كان يطالب بها كانت هي تلك التي مارسها ملوك أوروبا على الكنيسة في الملاك منذ وقت قسطنطين العظيم وأن ما تغير منذ ذلك الحين حتى وقته كان نمو قوة البابوية.

القوانين الأصلية رأت أن تعكس ذلك وتضع هنري على رأس الكنيسة، التشريعات اللاحقة لوضع أشياء بروتستانتية على جدول أعمال هنري، تقديم فكرة نسخة جديدة مترجمة للإنجيل في ١٥٣٨ باللغة الإنكليزية أدى إلى ترجمة واسعة لعدد كبير من الكتب ، كما أن حل الأديرة في سنة ١٥٤٠ أدى إلى كميات كبيرة من أراضي الكنيسة والممتلكات أن تصبح تحت سلطة التاج ،وفي النهاية يصب في مصلحة مجلس النبلاء.

أنشأت هذه المصالح، التي تقدم حافزا قويا، لدعم مادي لكنيسة مسيحيه مستقلة في إنجلترا تحت سيادة التاج. وبحلول ١٥٤٩ ، قامت عملية خلق جديدة ومتميزة تماما لكنيسة وطنية بالبدء خلال نشر أول كتاب للصلاة The Book of Common Prayer وتنفيذ تشريعات التوحيد، الذين قاموا بإحلال اللغة الانكليزية كلغة رسمية لشؤون العبادة.

خلال العهد القصير لـ ادوارد السادس ابن هنري، اتجهت كنيسة إنجلترا كثيراً نحو البروتستانتية وكان هذا واضح في وضع كتاب صلاة ثاني (١٥٥٢) و في المقالات التسعة والثلاثين لمواد الدين (الأصل اثنان وأربعون). وقد انعكس هذا الإصلاح فجأة في عهد الملكة ماري التي كانت كاثوليكيه ، حين قامت بإعادة تثبيت السيادة البابوية. إلا أنه فقط خلال عهد الملكة إليزابيث الأولى كانت كنيسة إنجلترا كنيسة مُصْلَحَة كاثوليكية تتضمن جوانب من اللاهوت البروتستانتي.

توماس كرانمر (١٤٨٩–١٥٥٦)
رئيس أساقفة كانتربري والمحرر الرئيسي
لأول وثاني كتاب صلاة في عهد هنري الثامن

في القرن السادس عشر كانت الحياة الدينية هي جزء هام من الاسمنت التي عقدت المجتمع مع بعضه البعض ،وشكلت قاعدة هامة لتوسيع ودعم السلطة السياسية. كما أن الاختلاف في الدين في ذلك الوقت كان قد يؤدي إلى الاضطرابات المدنية على الأقل الخيانة والاحتلال الأجنبي بوصفها التهديدات الحقيقية. طريقة إليزابيث في حل مشكلة إراقة الدماء من أجل الدين كانت في توحيد ديني الذي أصبح واضحاً بشكل كبير حينما تمت تنمية كتاب صلاة مشتركة في ١٥٥٩. هذه النسخة من كتاب الصلاة جمعت بين العناصر الكالفينية البروتستانتية ١٥٥٢ والنسخة التقليدية من ساروم القداس الكاثوليكي ١٥٤٩. مراجعة كتاب الصلاة كانت مدعومة عن طريق تنقيح تشريعات مواد الدين، وأيضاً فيما يتعلق بأثواب التقديس والقداس. كان هدف إليزابيث إنشاء كنيسة ذات شكل عبادة ثابت التي فيها الجميع يتنظر أن يشارك، وأيضاً نظام عقائدي يجب أن يكون قادرا على تقديم مجال ثيولوجي واسع لكي يستطيع الجميع أن ينضموا إليه.

معظم السكان قبلوا فكرة إليزابيث بدرجات متفاوتة من الحماس أو الاستقالة، ولكن المقاومة البروتستانتية (ما يسمى المتشددون) وأولئك الذين ما زالوا يعترفون بسيادة البابوية عارضوا الفكرة، والشقوق في وحدة الواجهة الدينية في إنجلترا بدأت بالظهور. في القرن اللاحق خلال عهود جيمس الاول وشارلز الأول، و في الحرب الأهلية الانكليزية وفي محمية اوليفر كروموبل، صار هناك تحولات كبيرة ذهابا وإياباً بين فصيلتين:المتشددون و آخرون متطرفون الذين أرادوا إصلاح واسع النطاق، و بين الكهنة الأكثر محافظة الذين أرادوا إبقاء المعتقدات والممارسات التقليدية. ولعدة قرون قادمة ، في عهد جيمس الأول و تشارلز الأول انتهاءً بالحرب الأهلية الإنكليزية وتولي اوليفر كروموبل الحكم، كان هناك تأرجح بالرأي بين فريقين : بعض المتعصبين دينياً الذين ناشدوا بإعادة تشكيل بعض المعتقدات الدينية، والفريق الآخر من الأشخاص المحافظين الذين فضلوا الحفاظ على التقاليد والعادات الدينية. إن عدم قبول السياسيين والاكليريين "الكنسيين" بما ناشد به المتعصبون كان من أحد الأسباب لنشوب الحرب.

حسب المقاييس العالمية، إن العنف لأسباب دينية لم يكن مرتفع لكن الإصابة شملت الملك تشارلز الاول و رئيس الأساقفة وليام لاود في كانتربري Canterbury. تحت محمية كومنويلث انكلترا "The Protectorate of the Commonwealth of England" من ١٦٤٩ إلى ١٦٦٠ ، لم يُعترف بالكنيسة الانغليكانية ، أُلحقت المشايخ الكنسية بالنظام الأسقفي ، وقد تم استبدال بنود القانون باعتراف من الوزارة الغربية ، وقد تم إبدال كتاب الصلوات الاعتيادي عن طريق قسم العبادة . بالرغم من ذلك ربع الكهنة الإنكليز رفضوا الموافقة.

وبعد عودة الملك تشارلز الثاني، عادت الإنجليكانية أيضاً إلى عهد مشابه كثيرا لما كانت عليه أيام الحكم الاليزابثي، أن أحد الاختلافات هو أن فكرة شمل الإنكليز كلهم لمنظمة دينية واحدة قد تم إلغائه. إن المواقع الدينية لانكلترا وُضعت على الشكل التالي : الكنيسة الإنجليكانية في الوسط والكنيسة الكاثوليكية التي عارضت مؤسسي الإنجليكانية وبسبب صعوبة دمج الاثنين اضطرت إلى أن تُكمل مسيرتها خارج الكنيسة الوطنية بدلا من السيطرة عليها. لقد فشل العهد الاليزابثي في مصالحة جميع الأطراف في انكلترا وترك الناس الذين في الجزر الإنكليزية. مع ذلك أن الإنجليكانية منتشرة الآن في جميع أنحاء العالم وان انتشارها كان مخالف لجميع التوقعات في القرنين (١٦)، (١٧).[١٨]

---

(١٨) وعن نشأة الكنيسة الإنجليكانية (كنيسة انجلترا) كأصعب الطوائف البروتستانتية تشدداً وهي التي تكون منها التيار الصهيوني المسيحي بهدف العودة إلى اليهودية (تهويد المسيحية) يقول القس مرقس البراموسى:

كان أحد ملوك انجلترا له ابنان وأراد أن يعمل تحالف سياسي مع ملك اسبانيا لضمها إلى انجلترا فأرغم ابنه الكبير على الزواج بابنة ملك اسبانيا الدميمة سيئة السمعة وتسمى كاثرين لكن ابنه مات دون إنجاب فأرغم ابنه الأصغر ويدعى هنري (الذي صار الملك هنري الثامن) على أن يتزوج أرملة أخيه لضمان استمرار الاتحاد وأنجب هنري من كاثرين أبناء لم يعيش منهم إلا فتاة تدعى مارى. وبعد موت الملك الأب وتولى هنري المملكة ، أراد أن يبطل زواجه بكاثرين لأنه أعجب بوصيفتها التي تدعى آن بولين فذهب يطلب من بابا رما أن يبطل الزواج استناداً إلى موقف يوحنا المعمدان من الملك هيرودس لكن البابا افهمه أن أخيه قد مات وهو لا يفعل شيء خطأ ورفض إبطال زواجه لان هذا معناه أن البابا السابق الذي زوجهما قد اخطأ وهذا ضد مبدأ عصمة بابا روما من الخطأ. وقد اغتاظ الملك هنري فاستدعى مارتن لوثر واخبره برغبته في استقلال انجلترا عن باباوية روما وان يكون الملك هو رئيس الكنيسة المستقلة فرحب لوثر بهذا وأذن له فاستقل الملك عن تبعية بابا روما وأسس كنيسة خاصة به مظهرها من الخارج الكاثوليكية وداخلها تنادى بالتعاليم البروتستانتية.

عيّن الملك الأساقفة الذين أرادهم وكانوا موافقين لآرائه ولما طلب منهم إبطال زواجه من كاثرين وافقوا فسجن زوجته وابنتها في القصر في مكان خاص وتزوج بالوصيفة آن بولين وأنجب منها ابنة اسماها اليزابيث. وقد اكتشف الملك أن زوجته الثانية تخونه فطلقها وتزوج بثالثة أنجب منها ابن اسماه ادوارد وكتب الملك وصيته انه بعد موته يتولى العرش ابنه ادوارد ثم ابنته مارى ثم ابنته اليزابيث وشدد أن تكون انجلترا انجليكانية وليست كاثوليكية. وقد تملك ادوارد بعد موت والده مدة ٦ سنوات لكنه كان صغير السن مريض فمات سريعاً فتولت أخته مارى الحكم وكانت تدعى مارى الدموية إذ أنها سعت للانتقام من الانجيليكان لما لحقها هي وأمها من ذل وإهانة وكانت مدة تملكها ٥ سنوات وكانت من أصعب السنوات التي مرت على انجلترا وأخذت توقع أوامر قتل أتباع الانجيليكان في كل مكان وأعادت محاكم التفتيش وأعادت الكاثوليكية مرة أخرى.

لما ماتت تولت أختها اليزابيث المُلك فأعادت إلى انجلترا الإنجليكانية لكنها كانت شغوفة بالمظاهر والثياب البراقة والاحتفالات وأجبرت الأساقفة على ارتداء ملابس رجال الدين الكاثوليك المزركشة فرفض كثيرين هذا وانفصلوا عن كنيسة انجلترا واسموا أنفسهم (الطهوريين) وهاجروا إلى ايرلندا ثم جينيف واستقبلهم هناك جون كلفن الذي كان أصعب من مارتن لوثر في تعصبه ضد الكاثوليك فقتلهم وعمل معهم ما كان أصعب من سابقيه فهاجر الطهوريون المضطهدون إلى أمريكا وهنا التقوا وتزاوجوا مع المطرودين من فلسطين وكانت الفئتين تحت ضغوط نفسية صعبة فظهر منهم ما يسمى التيار الصهيوني المسيحي.

نقلا عن: مرقس البراموسي، محاضرة بعنوان"انشقاق الكنيسة وظهور الطوائف"، دراسات صيف ٢٠٠٧ / المحاضرة الثانية، الإسكندرية : بطريركية الأقباط الأرثوذكس ٢٠٠٧.



لوحة تظهر معركة الجبل الأبيض ١٦٢٠

ألمانيا وحرب الثلاثين عاما

أوائل القرن السابع عشر بدأت عمليات التضييق على أتباع المذهب البروتستانتي ، وخاصة في عهد القيصر فرديناند الثاني الذي حاول إجبار السكان على أتباع المذهب الكاثوليكي في انتهاك واضح لمبدأ حرية الأديان المكفولة آنذاك. وهو الأمر الذي ساهم في اندلاع الانتفاضة البوهيمية في براغ. وكانت هذه الانتفاضة بمثابة شرارة بدء حرب الثلاثين عاما التي استمرت من عام ١٦١٨ وحتى عام ١٦٤٨. هذه الحرب التي بدأت كحرب دينية سرعان ما تحولت إلى حرب أوروبية واسعة النطاق شاركت فيها كل من النمسا واسبانيا وفرنسا والسويد والدنمارك إلى جانب الدويلات الألمانية المختلفة. وكانت الأراضي الألمانية المسرح الأساسي للمعارك الطاحنة خلال هذه الحرب التي دمرت مناطق واسعة وأدت إلى خسائر بشرية هائلة. وبنتيجة ذلك تراجع عدد السكان إلى النصف مقارنة بفترة ما قبل الحرب كما يقول المؤرخون. وبعد مفاوضات طويلة انتهت هذه الحرب بإبرام ما يدعى صلح ويستفاليا (نسبة إلى منطقة ويستفاليا الواقعة غرب ألمانيا) في عام ١٦٢٤. وبموجب هذا الصلح تم الاعتراف بالمساواة بين الطوائف الثلاثة الكاثوليكية واللوثرية والكالفانية. كما تم بموجبه ترسيخ تقسيم المملكة الألمانية إلى قرابة ثلاثمائة دويلة وإمارة كانت تحظى باستقلال كامل تقريباً ، ما يعني الحد من صلاحيات القيصر ألألماني إلى حد كبير. وقد استمر الوضع الذي تميز بازدواجية السلطة بين الحكم المركزي ممثلا في القيصر وبين الأمراء الطامحين للاستقلال سنوات طويلة.

ألمانيا وحرب الثلاثين عاما ١٦١٨ - ١٦٤٨

أسباب حرب الثلاثين عاما – أدوار الحرب الأربعة: الدور البوهيمي البلاتيني (١٦١٨ - ١٦٢٣) - الدور الدنماركي (١٦٢٥ - ١٦٢٩) - الدور السويدي (١٦٣٠ - ١٦٣٥) الدور السويدي الفرنسي (١٦٣٥ - ١٦٤٨)- صلح وستفاليا

لقد نشبت حرب الثلاثين عاماً بسبب الفتنة الدينية في بوهيميا، وقد كان من الممكن تحديد ميدانها ولكن أتيح لها أن تنتشر، مما أدى إلى أن تدخل معظم الدول الأوربية الصراع بدرجات متفاوتة، وعلى الرغم من أن الدنمارك والسويد وفرنسا وإنجلترا وسافوى والأراضي المخفضة قد لعبت دوراً في هذه الحرب، فقد كانت ألمانيا بصفة خاصة هي المسرح الأصيل لهذه المأساة. كما أن أهل بوهيميا كانوا أوفر هذه الشعوب حظاً من الخسائر.

وإذا أردنا أن نتصور الظروف التي اندلعت فيها هذه الحرب أو بمعنى آخر أن نتقصى أسباب هذه الحرب، نجد أن صلح أوجزبرج كان قد أنهى الحرب الدينية في ألمانيا في عام ١٥٥٥ وقد حاول هذا الصلح التوفيق بين مطالب الكاثوليك والبروتستنت على السواء، ولكن هذه المحاولة أخفقت. وكان من أهم أسباب هذا الفشل ما جاء في صلح أوجزبرج بشأن المحافظة على ممتلكات الكنيسة الكاثوليكية في ألمانيا، حيث أن هذه الممتلكات سرعان ما صارت – بعد هذا الصلح – موضع أطماع البروتستنت المنتصرين.

كما أن أوجزبرج لم يعترف بالعقيدة الكلفنية أو بمبدأ التسامح الديني بصفة عامة، وظلت الكلفنية في ألمانيا لا تجد أي أساس قانوني يمكنها الارتكاز عليه، ومع ذلك فقد ساد السلام مدة طويلة في ألمانيا بالرغم من هذا القصور الواضح في صلح أوجزبرج، ولعل السبب في ذلك هو وجود نوع من التوازن في القوى بين تلك الجماعات أو القوى الثلاثة: الكاثوليك، وأتباع لوثر، وأتباع كلفن، مما أدى إلى ذلك الهدوء العجيب بينهم لأن الصدام المسلح قد يؤدي إلى أوخم العواقب، الأمر الذي منع هذه الجماعات من التطرف في تعصبها.

ومن ناحية أخرى؛ فقد بدا أن هذه الهدنة الطويلة بعد هذا الصلح كانت بصفة عامة في صالح البروتستنت، فقد استطاع اللوثريون والكلفنيون العمل على نشر مذهبهم دون أن يلقوا معارضة عنيفة، حتى أصبحت ألمانيا الشمالية بروتستنتية، كما تسرب هذا المذهب الجديد إلى الجنوب أي في النمسا وبافاريا.

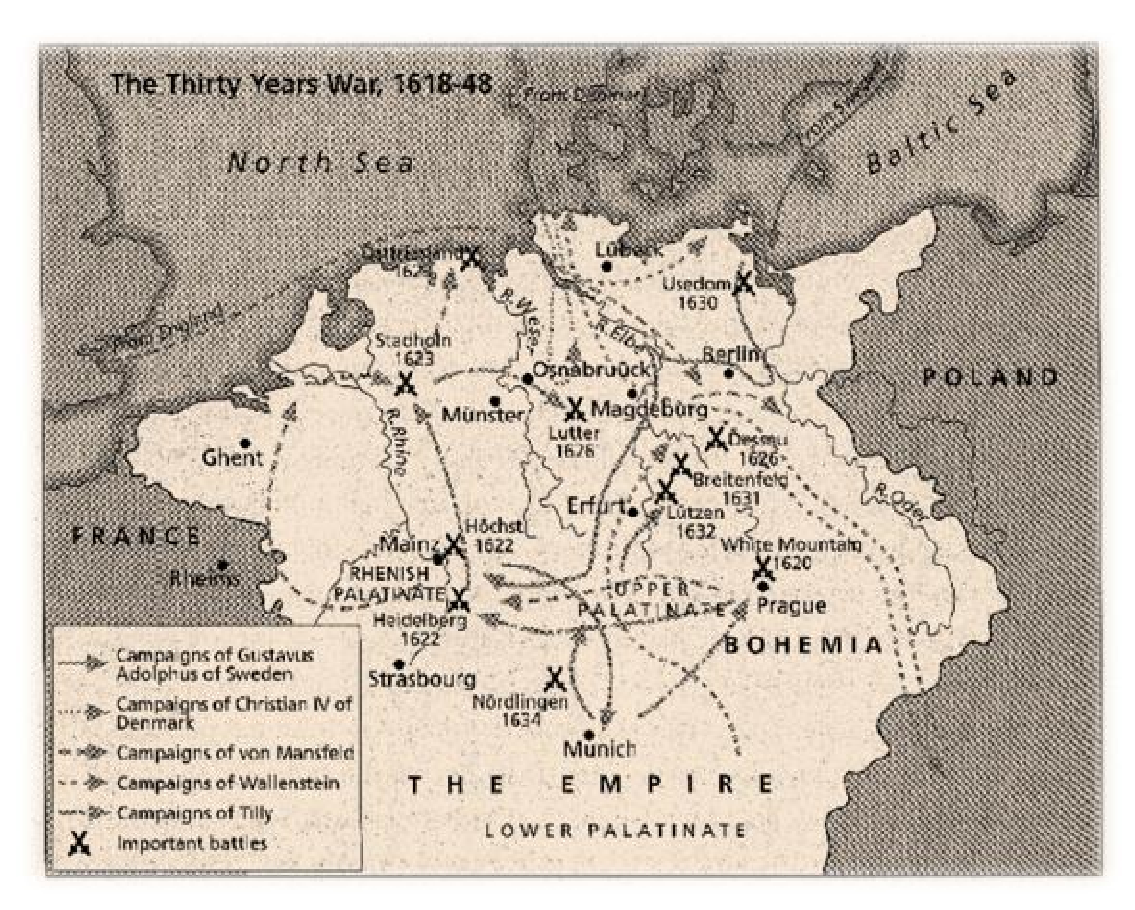
أما الكاثوليك؛ فلم يكن من المتوقع أن يظلوا صامتين إزاء هذا الانتشار البروتستنتي في معاقلهم السابقة، وخاصةً بعد أن استمدوا قوة كبيرة من حركة الإصلاح الكاثوليكي، وكان الفضل الأكبر لهذه المواجهة الكاثوليكية للانتشار البروتستنتي راجعاً إلى مجهودات الجزويت اليسوعيين. ففي عهد الإمبراطور رودلف الثاني (١٥٧٦ - ١٦١٢) استطاع الجزويت أن ينفذوا إلى كثير من مظاهر النشاط في حذر ودون ضجة، فخدموا في الإمارات المختلفة كآباء يقومون بسماع الاعتراف، أو كوزراء للأمراء وفي هذه الحالة كانوا هم الذين يوجهون سياسة هؤلاء الحكام، وأسس الجزويت المدارس، وبعثوا بالمنصرين إلى أماكن مختلفة ونشطوا في تدعيم الكاثوليكية.

وفي بداية القرن السابع عشر، كان نجاح الجزويت كبيراً لدرجة أن البروتستنت اضطروا إلى التآلف فيما بينهم لمواجهة الخطر، فألفوا فيما بينهم الاتحاد البروتستنتي، فلم يلبث الكاثوليك أن واجهوا هذا الإتحاد البروتستنتي بتأسيس الحلف المقدس في عام ١٦٠٩. ومنذ ذلك التاريخ انقسمت ألمانيا إلى معسكرين كبيرين، وكان الكاثوليك أقوى تنظيماً برئاسة مكسيليان دوق بافاريا بينما ظل البروتستنت مترددين بسبب انقساماتهم القديمة بين لوثريين وكلفنيين، فلم يؤيدوا رئيس الاتحاد البروتستنتي تأيداً كاملاً وهو فردريك الخامس ناخب البلاتين ومن أتباع كلفن.

وكان المحرك الأول للحرب يسوعياً من الجزويت تقلد تاجاً وهو فرديناند صاحب أستيريا، والذي أصبح فيما بعد الإمبراطور فرديناند الثاني، وكان فرديناند أول طالب يتلقى علومه في كلية يسوعية يصل إلى العرش الإمبراطوري، وكانت تعاليم الجزويت قد أفعمته بالتعصب حتى سيطرت عليه عاطفة دينية متأججة قوامها المقت الشديد للبروتستنت والتصميم على اجتثاث جذورهم من ممتلكاته فأنزل بهم سلسلة من الاضطهادات في أستريا عام ١٦١٨ وواصلها في بوهيميا ثم تابعها في سائر أنحاء أملاكه النمساوية، ونجح في تحقيق هدفه وهو تصفية المارقين ووضع الحياة الدينية والفكرية في بلاده تحت حكم جماعة الجزويت الشديد الوطأة، إلا أن الثمن كان باهظاً وهو التدمير الشديد الذي أصاب المجتمع البوهيمي كله، ثم ما أعقب ذلك بطريقة غير مباشرة من اندلاع حرب الثلاثين عاماً.[١]

(١) ناجح العبيدي، "حرب الثلاثين عاماً وإضعاف القيصرية"، ضمن تاريخ ألمانيا: من شارلمان الكبير إلى صعود بروسيا (الحلقة ١)، مؤسسة دويتشه فيله (DW)، متاح بتاريخ ١٠ يونيو ٢٠٠٧، على الرابط:
(http://www.dw-world.org/dw/article/0,,2375000,00.html)
Myron P. Gutmann, "The Origins of the Thirty Years' War", Journal of Interdisciplinary History, Vol. 18, No. 4. (Spring, 1988), pp. 749–770.

وقد مرت هذه الحرب الطويلة في أربعة أدوار: الدور البوهيمى البلاتـيني (١٦١٨ - ١٦٢٣) والـدور الـدنماركي (١٦٢٥ - ١٦٢٩)، والـدور السـويدي (١٦٣٠ - ١٦٣٥) وأخـيراً الـدور السويدي الفرنسي (١٦٣٥ - ١٦٤٨).[٢]



Map of the Thirty Years War, 1618-1648

خريطة حرب الثلاثين عام ١٦١٨ - ١٦٤٨

المصدر: Germany Gen Web Project

http://www.rootsweb.ancestry.com

---

(٢) الحرب البوهيمية (١٦١٨ - ١٦٢٣) وفيها سحقت ثورة البروتستانت في بوهيميا واحتلت أسبانيا البلاتينايت، والحرب الدانمركية (١٦٢٥ - ١٦٢٩) وفيها هزم آل هابسبورغ القوات الدانمركية (البروتستانتية)، والحرب السويدية (١٦٣٠ - ١٦٣٥) وفيها غزا غوستاف الثاني ملك السويد (البروتستانتي) ألمانيا وهزم جيوش آل هابسبورغ، والحرب الفرنسية (١٦٣٥ - ١٦٤٨) وفيها دخلت فرنسا الحرب ضد آل هابسبورغ وانتصرت عليهم. وقد انتهت حرب الأعوام الثلاثين بتوقيع صلح وستفاليا عام ١٦٤٨. راجع:

بوابة عمان ، موسوعة الدول، متاح بتاريخ ٢٣مارس ٢٠٠٩، على الرابط: (http://www.omanss.com/book/data/data6/7499.html)


فيرديناند الثاني قيصر
الإمبراطورية الرومانية المقدسة
١٥٧٨ - ١٦٣٧

الدور البوهيمي البلاتيني ١٦١٨ - ١٦٢٣

في هذا الدور طلب الإمبراطور فرديناند مؤازرة الحلف الكاثوليكي المقدس فأجابه إلى رغبته مكسيميليان دوق بافاريا Maximilian رئيس هذا الحلف بالإضافة إلى أن البروتستنت في بوهيميا لم يلبثوا أن أعلنوا انتخاب رئيس الاتحاد البروتستنتي فردريك الخامس ناخب بلاتينه "الراين" ملكاً عليهم عام ١٦١٩ فأراد مكسيميليان أن يخلع غريمه فردريك عن هذا العرش.

وهكذا؛ اندلعت نيران هذه الحرب ولكن سرعان ما انهزم ملك بوهيميا في واقعة التل الأبيض خارج براغ في نوفمبر ١٦٢٠ أمام قوات الحلف الكاثوليكي وقوات الإمبراطور فرديناند الثاني، واستولى الإمبراطور على بوهيميا وأخذ يعمل لعودة الكاثوليكية واستقرارها بها.

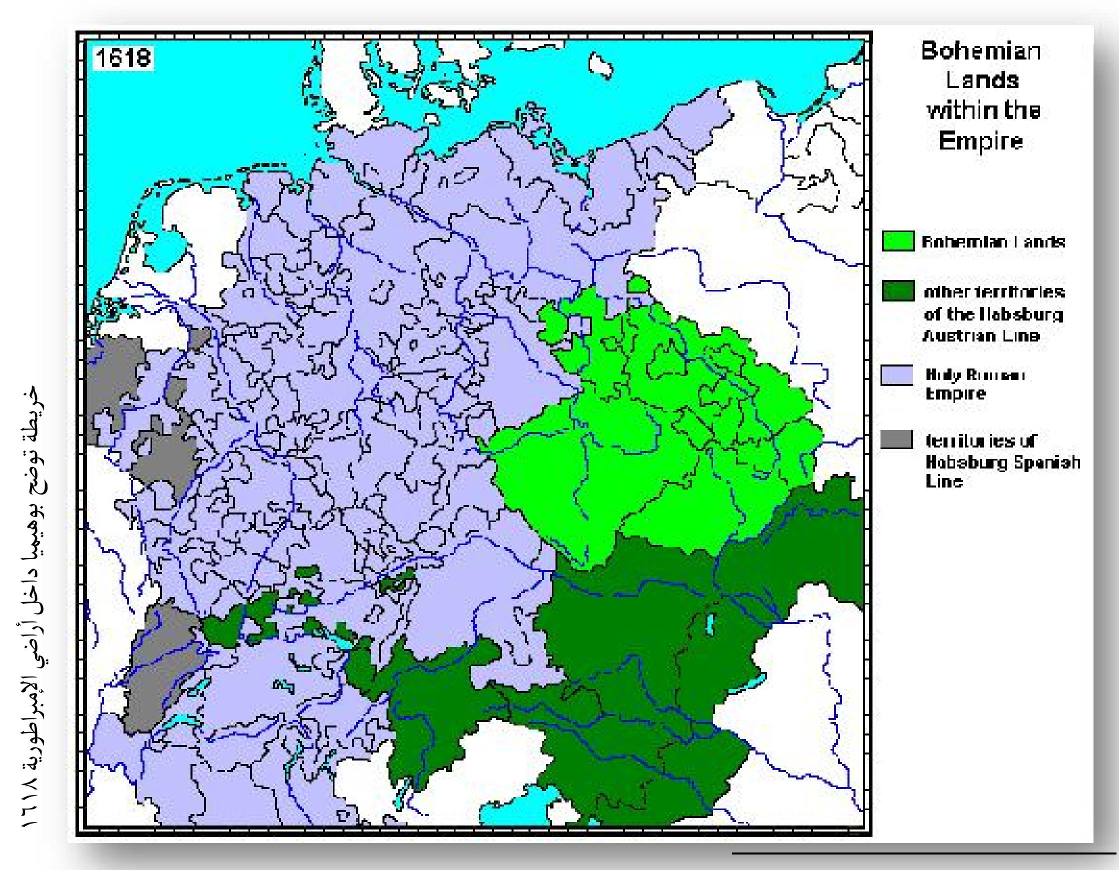
وكادت تنتهي الحرب إلا أن الإمبراطور لم يكتفِ بذلك، فإنه لم يلبث أن أعلن خلع فردريك ثم جرده من أملاكه ومنحها لمكسيميليان دوق بافاريا وأعطاه الحق في الاستيلاء على هذه الممتلكات، إلا أن هذه الممتلكات كانت موزعة ومتناثرة في جنوب ألمانيا من حدود الراين إلى بوهيميا، وتعرف باسم البلاتينات، فصار من واجب مكسيميليان الاشتباك في عدة معارك قبل أن ينجح في الاستحواذ على هذه الممتلكات تنفيذاً لقرار الإمبراطور.[٣]


فريدريك الخامس
لوحة رسمها Gerrit von Honthorst
عام ١٦٣٤ بعد عامين من وفاة فريدريك

(3)Alexander Ganse, The Bohemian Lands in the 30 Years War, part of World History at KMLA, available in 12/11/2004 at (http://www.zum.de/whkmla/region/germany/30yearsczech.html)

ثم أنه سرعان ما استجد عامل آخر، وأخرج هذا النضال من هذا النطاق المحلي إلى مجال أوسع، وذلك أن البروتستنت في أوربا أفزعهم الانهزام الذي أصاب البروتستنتية في ألمانيا، كما أن تجريد فردريك الخامس من أملاكه جذب إليه عطف البروتستنت في أوربا. وكان في مقدمة العاطفين عليه جيمس الأول ملك إنجلترا وهو الذي كان زوج ابنته إليزابيث، ولكن جيمس الأول لم يرد التدخل في هذه الحرب خوفاً من إغضاب أسبانيا الكاثوليكية، وكان جيمس الأول يبني سياسته الخارجية على أساس وجود تفاهم بين إنجلترا أكبر دولة بروتستنتية، وأسبانيا أكبر دولة كاثوليكية، من أجل تحقيق السلام في أوربا، وعلى ذلك آثر جيمس المفاوضة والوصول إلى حل للمسألة بالطرق السلمية، إلا أن آماله في التدخل الأسباني لفض المنازعات في ألمانيا لم تتحقق.

كما أن شارل عمانويل Charles Emanuel صاحب سافوى كان من الذين عطفوا على البروتستنت في ألمانيا، وقد قدم لهم الأموال التي استخدمت في تجنيد جيش من المرتزقة لمعاونة الاتحاد البروتستنتي. وفي عام ١٦٢٥ استجاب الملك كرستان الرابع Christian IV ملك الدنمارك لنداء البروتستنت في ألمانيا وعندئذ بدأ الدور الثاني الدنماركي في حرب الثلاثين سنة.(٤)



خريطة توضح بوهيميا داخل أراضي الإمبراطورية ١٦١٨

(4)The Columbia Encyclopedia, Sixth Edition.- New York : Columbia University Press, 2007, available in 03/04/2009 at (http://www.bartleby.com/65/th/ThirtyYe.html).

الدور الدنماركي ١٦٢٥ – ١٦٢٩(٥)

لم يستجب ذلك الملك اللوثري لنداء البروتستنت فقط لاهتمامه البالغ بالعقيدة البروتستنتية، فقد كان يحدوه إلى ذلك – بدرجة أعلى – شهوة جارفة للحصول على مغانم الكنيسة الكاثوليكية، وكان من بين أهدافه الحصول لأبنائه على حصة محترمة من إيرادات بعض الأسقفيات في شمال ألمانيا. ولم تكن الرغبة في أملاك الكنيسة أمراً مقصوراً على الدنمارك وإنما شارك فيها على نطاق واسع الأمراء البروتستنت في سكسونيا، وهكذا مع بعض التشجيع من الملكية الإنجليزية قام نوع من التحالف بين الطامعين، كما تم حشد جيش ووضعت خطة للمعركة.

وبينما كان يدبر كل هذا في الشمال، طرأ تغيير عام على التوجيه الحربي في بوهيميا والبلاتين لم تحرزها القوات الإمبراطورية تحت قيادة فرديناند، وإنما أحرزتها الفرق الألمانية تحت قيادة مكسيميليان صاحب بافاريا، على أن اعتماد الإمبراطور بهذه الصورة على جار يحميه وقد يصبح منافساً له كان أمراً لا يطيقه الإمبراطور، وبذلك تطلعت سياسته إلى جيش إمبراطوري يخضع لقيادة الإمبراطورية، ونبعت من هذه السياسة شخصية غامضة وقوية هي شخصية ألبرت وينلاس فون والنشتين أمير فريدلاند الذي عُرف غالباً باسم والنشتين Wallenstein . وقد تقدم هذا الرجل إلى الإمبراطور وعرض عليه أن يقدم له جيشاً على نفقته الخاصة غير مشترط شيئاً سوى أن يحتفظ جيشه بالمغانم، بينما يكون نصيب الإمبراطور ما يغنم من المدفعية والذخائر.

وقد نجح والنشتين في جمع جيش كبير نتيجة الوعود التي أخذ يبذلها بشأن إعطاء الجنود المرتبات الكبيرة عدا الأسلاب والمغانم، فالتف حوله عدد كبير من الجنود المرتزقة والمغامرين والذين ضموا بينهم كذلك عدداً من البروتستنت، وهؤلاء جميعاً لم يكن يعنيهم انتصار الكاثوليكية أو انهزامها، حيث لم تكن تربطهم غير الرغبة فقط في الحصول على المغانم من هذه الحرب.


ألبرت وينلاس فون والنشتين – أمير فريدلاند

(٥) راجع: عبد العزيز نوار، محمود جمال الدين، التاريخ الأوربي الحديث، ص ١٤٨ – ١٥٠.
“Thirty Years' War - Danish intervention”, available in 20 January 2009 at: (http://www.experiencefestival.com/a/Thirty_Years_War/id/385103)

أما والنشتين نفسه، فمن المعروف أنه لم يكن يبغي مجرد خدمة الإمبراطور فحسب، بل إنه كان هو الآخر لديه مشروعات للقضاء على حكم الأمراء المحليين في ألمانيا، ثم إنشاء دولة ألمانية قوية على أنقاض هذه الإمارات على أن تكون هذه الدولة خاضعة للإمبراطور، وبطبيعة الحال يستحوذ والنشتين على النفوذ الداخلي في الدولة الجديدة.

وقد بدأت الحرب في هذا الدور بأن انتصر تيلى Tilly على جيش الملك كريستيان الرابع في موقعة لوتر Lutter في أغسطس ١٦٢٦ إلا أن انتصار والنشتين في واقعة كوزل Cozel كان له نتائجه الخطيرة، فقد اندفع والنشتين بعد هذا النصر الكبير إلى داخل الأراضي الدنماركية ولم يمنعه من فتح الدنمارك ذاتها سوى عدم توفر أسطول لديه.

ولم تكن أغراض والنشتين في هذا النضال دينية بقدر ما كانت سياسية، فقد بذل والنشتين جهده من أجل إحياء سلطة الإمبراطورية وتدعيم سيطرتها، على أنقاض السلطات المحلية في الإمارات، الأمر الذي أثار كراهية النبلاء الكاثوليك والبروتستنت على السواء وتسبب في عدائهم لوالنشتين، على أن والنشتين لم يلبث أن تزايدت مطامعه، فأسس لنفسه إمارة في ساجان Sagan ثم حصل من الإمبراطور فرديناند الثاني على دوقية مكلبزج. وقد نقم الأمراء على والنشتين لذلك، لأنهم وجدوا أن هذا المغامر قد وصل إلى مرتبة مساوية لمرتبتهم، هذا بالإضافة إلى أنهم وجدوه قد أصبح صاحب الأمر والنهي ويتصرف كما يشاء في الأراضي الألمانية.

ولقد كان من أهداف والنشتين كذلك وضع قوة بحرية ألمانية في البحار الشمالية كي يتمكن من إخضاع الممالك الاسكندينافية، ولذلك فقد أخذ يعمل لفرض سيطرته على ساحل البلطيق الجنوبي، فاحتل ويسمار ثم قام بمحاصرة سترالسند Straslund إلا أن أهلها دافعوا عنها دفاعاً بطولياً، ثم تقدم لمساعدتهم ملك السويد جوستاف أدولف، وكان هذا الملك يخشى من انتصارات والنشتين، ومن أن يتوطد سلطان الإمبراطورية في بحر البلطيق، فأرسل أسطولاً صغيراً لمساعدة سترالسند، ومن ناحية أخرى لم يشأ الحلف الكاثوليكي أن يبعث بقائد جيوشه (تلى) لمساعدة والنشتين خوفاً من سطوة هذا الأخير، فكان أعضاء الحلف الكاثوليكي بموقفهم هذا قد آثروا أن تتعرض الكاثوليكية ذاتها للخطر، على أن تتعرض سلطتهم وإماراتهم للضياع.

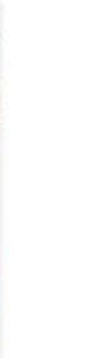
ولم تلبث أن تزايدت صعوبات والنشتين عندما وجد أن السويد والدنمارك قد نبذتا الخلاف القائم بينهما واتفقتا على مواجهة والنشتين، وبدا أن هناك إجماعاً من إنجلترا وفرنسا وهولندا على معاونة الدنمارك، وعلى هذا طالب والنشتين بالصلح مع الدنمارك، وتم عقد الصلح بالفعل

بين الطرفين في لوبك Lubeck عام ١٦٢٩ على أساس أن تسترد الدنمارك الأراضي التي أخذت منها في نظير أن تتعهد بعدم التدخل مرة أخرى في شئون ألمانيا.

على أنه في غضون ذلك الوقت، كانت الانتصارات الكاثوليكية قد بلغت ذروتها في ألمانيا، فقد أخرج صلح لوبك الدنمارك من النضال، ولم يبق في ألمانيا جيش قادر على مقاومة الإمبراطور، وعلى ذلك بات متوقعاً أن يستغل الإمبراطور هذا النجاح لقمع البروتستنتية في ألمانيا، وبالفعل صدر مرسوم في مارس ١٦٢٩ لاسترجاع أملاك الكنيسة، وبمقتضى هذا المرسوم كان على البروتستنت أن يعيدوا للكنيسة الكاثوليكية الأراضي التي كانوا قد استولوا عليها من معاهدة بساو Passau في عام ١٥٥٢ وصلح أوجزبرج في عام ١٥٥٥ وعلى هذا تجمعت قوى البروتستنت لمواجهة تلك الأخطار المحدقة بها.

وكان مما بعث الأمل في إحياء قوة البروتستنت في هذه الظروف التي ظهر فيها كأنما قد تم القضاء تماماً على البروتستنتية في ألمانيا، أن الإمبراطور اتخذ قراراً بالاستغناء عن والنشتين وطرده من خدمته، وقد اضطر الإمبراطور إلى إصدار هذا القرار لأن جيش والنشتين أخذ يعيث في البلاد فسادً شديدًا، ثم أن والنشتين كان قد أثار عداء النبلاء الكاثوليك بسبب مشروعاته في إعادة السيطرة الإمبراطورية، وفي هذا ما فيه من انتقاص لسلطاتهم ومكانتهم. وهكذا طلب الحلف الكاثوليكي برئاسة مكسيمليان دوق بافاريا في يوليو ١٦٣٠ عزل والنشتين من قيادة الجيش، ولقد اضطر الإمبراطور في أخر الأمر إلى إجابة الحلف إلى طلبه خوفاً من خروج هذا الحلف عليه.

وبذلك تخلى والنشتين عن قيادة الجيش وحل محله (تلى)، وهكذا نجد أنه في الوقت الذي ظهر فيه كان الإمبراطور قد تحرر نهائياً من سلطان الحلف الكاثوليكي، وقطع شوطاً كبيراً في سبيل توحيد سيطرته وتركيزها في ألمانيا، استعاد الحلف الكاثوليكي مكانته السابقة وفقد الإمبراطور الأداة التي تجعل سيطرته ممكنة.



كريستيان الرابع ملك الدنمارك
لوحة رسمها Pieter Isaacsz
١٦١١-١٦١٦
Source: www.riksarkivet.no

الدور السويدي ١٦٣٠ – ١٦٣٥[٦]

وفي غضون ذلك الوقت حدث تغير آخر في قصة هذه المأساة أو تلك الحرب الطويلة، إذ تدخل ملك السويد تدخلاً فعلياً في هذه الأحداث، وبذلك بدأ الدور الثالث من هذه الحرب أو ما يعرف بالدور السويدي.

ففي الوقت الذي أرغم فيه والنشتين على التنحي عن القيادة نزل في ألمانيا جيش السويد بقيادة جوستاف أدولف، وكان هدف ملك السويد الفعلي من هذه الحرب هو جعل بحر البلطيق بحيرة سويدية، وعلى ذلك فقد أنزعج الملك السويدي من تدعيم نفوذ الإمبراطور فرديناند الثاني في ألمانيا الشمالية، ورأى أنه من الضروري القضاء على بيت الهابسبورج في ألمانيا من أجل المحافظة على كيان وصيانة مصالح السويد الحيوية التجارية والسياسية في بحر البلطيق والأرض الشمالية الألمانية، ويجب أن لا ننسى في هذا المضمار أن ملك السويد كان بروتستنتياً صميماً ويؤلمه أن يرى تلك السيطرة الكاثوليكية على ألمانيا كلها بفعل انتصارات القوات الكاثوليكية.

وهكذا نزل جوستاف بجيشه (حوالي ١٥٠٠٠ مقاتل) إلى الأراضي الألمانية وطلب من الأمراء البروتستانت الانضمام إليه في مواجهته للكاثوليك إلا أن هؤلاء الأمراء البروتستنت أظهروا عدم ارتياحهم لتسليم بلادهم إلى ملك أجنبي، إلا أنه في غضون ذلك الوقت لم يلبث أن وقعت بعض الأحداث التي جعلت الأمراء البروتستنت يغيرون من موقفهم، فقد حدث أن تحالفت فرنسا – عملاً برأي وزيرها ريشليو – مع جوستاف أدولف، وإن كانت فرنسا لم تقدم لحليفها سوى الأموال التي تستعين بها السويد على مواصلة القتال ضد الإمبراطور.

كما أن جيش الحلف الكاثوليكي قام في غضون هذه الفترة بمهاجمة مدينة مجدبرج Megdeburg في عام ١٦٣١ وأوقع (تلي) وجنوده بأهلها مذبحة عظيمة، وكانت هذه الكارثة كافية لأن يبادر الأمراء البروتستنت بالانضمام إلى ملك السويد. وهكذا تقدم جوستاف أدولف في سبتمبر ١٦٣١ لملاقاة قوات الحلف الكاثوليكي، وأمكن الملك السويدي أن يوقع بتلي وجيشه هزيمة ساحقة في براتينفلد Breitenfeld بالقرب من ليبزج. وقد ترتب على ذلك نتائج هامة، فقد نجحت البروتستنتية، كما صارت ألمانيا بأسرها وفي وقت قصير تحت رحمة ملك السويد، وهكذا بدأ الكاثوليك يشربون من نفس الكأس التي سبق أن أذاقوها للبروتستنت.

---

(٦) جاد طه، تاريخ أوربا الحديث، ص ١٨٧ – ١٩٠.
"Thirty Years' War - Swedish intervention", available in 20 January 2009 at: (http://www.experiencefestival.com/a/Thirty_Years_War/id/385103)

وقد غدا أسلوب جوستاف في الحرب نموذجاً يتدارسه طلاب المدارس العسكرية في كل أنحاء أوربا، فقد تقدمت القوات البروتستانتية نحو براغ شرقاً ونحو ماينز Mainz وورمز Worms غرباً، ثم جاءت هزيمة (تلى) الأخيرة في ليك ي بافاريا، وأصيب (تلى) نفسه بجروح قاتلة، وتوج جوستاف هذه المجهودات بدخوله ميونخ مقر الحلف الكاثوليكي، وصارت فيينا ذاتها وهي مقر الإمبراطور مهددة، وقد أصبحت كل هذه الانتصارات عملاً جليلاً يبهر الأبصار ولكن المظهر في الانتصارات السويدية كان يفوق الجوهر، إذا لم يكن من المتوقع أن يرضى الألمان عن جيش أجنبي لا يتقاضى أجور كافية، ولا يعيش إلا على خيرات البلاد، فتواني بروتستنت ألمانيا في مساعدة السويديين واتهموا بأن الحصول على أراضي ألمانية كان أحد أغراضهم الرئيسية.

وعلى الرغم من آمال ريسيليو، فإن الكاثوليك وقد أثارتهم عمليات السلب المنظم التي قام بها الجند السويديون لم يعتبروهم أصدقاء لهم وإنما اعتبروهم أعداء، وعلى ذلك هاجمت كل من السويد وبافاريا الأخرى بدلاً من الهجوم المشترك على قوات الإمبراطور.

وقد خرج جوستاف من هذا الصراع منتصراً، إلا أنه كان في انتظاره جيش إمبراطوري أعاد تكوينه والنشتين وأصبح قائداً له، وكان في انتظاره ليحاسبه حساباً عسيراً، كان هذا الجيش من القوة – خاصة بعد أن انضمت قوات مكسيميليان – بحيث استطاع أن يوقع أول هزيمة بجيوش جوستاف في نورمبرجNuremberg، إلا أن جوستاف لم تهن عزيمته، بل أوقع بولنشتين وجيشه هزيمة ساحقة في لتزن Lutzen نوفمبر ١٦٣٢. غير أن خسارة البروتستنت كانت فادحة لأن قائدهم جوستاف لقي حتفه في المعركة، وذُكر أنه عندما سأله أحد رجال الدين عن أسمه عندما كان ملقى على الأرض مثخناً بجراحه القاتلة قال: "أنا ملك السويد الذي يوقع على عقيدة الشعب الألماني وحريته بدمه".



جوستاف أدولف

في معركة براتينفلد ١٦٣١

Gustavus Adolphus at the Battle at Breitenfeld

واستمرت الحرب؛ وقد فقدت بوفاة جوستاف البقية الباقية من مُثلها العليا البروتستنتية، ولم تكن السويد لتقبل الانسحاب من حرب أعطتها غنائم كثيرة في المدن الألمانية الغنية ومنحتها صوتاً مسموعاً في أوربا، وإذا كان جوستاف قد اختفى من الميدان فقد كان هناك الوصي على العرش السويدي في فترة قصور ابنة الملك الراحل الطفلة كريستينا، وكان هذا الوصي سياسياً حكمياً شارك الملك جوستاف في مسئوليات الحكم وحمل مدة طويلة أعباء الحكومة الداخلية.

وقد صمم ذلك الوصي اكزنستيريا Oxenstierna على أن يحتفظ للسويد بالزعامة على ألمانيا البروتستنتية، وفي عهده حاولت السويد الانتصار في الحرب التي استمرت بعد وفاة جوستاف معتمدة على ضباط جوستاف وجيشه، إلا أن الإمبراطوريين استطاعوا هزيمة الجيش البروتستنتي في نوردلنجن Nordlingen سبتمبر ١٦٣٤ وهكذا دارت الدائرة مرة أخرى على البروتستنت وأمكن للكاثوليك أن يؤمنوا مواقعهم في ألمانيا مرة أخرى، ولم يكن والنشتين هو قائد جيش الإمبراطور عند انتصار نوردلنجن، بل كان يقوده فرديناند ابن الإمبراطور.ويبدو أن وفاة جوستاف أدولف التي حرمت البروتستنت من قائدهم الممتاز كانت قد أزالت الباعث على الاستنجاد أصلاً بوالنشتين، كذلك بدا أن والنشتين لديه مخططات واسعة للاستيلاء على السلطة، وعلى أية حال فقد أتهمه الإمبراطور بالخيانة وتخلص منه بقتله في ٢٥ فبراير ١٦٣٤ وقبل موقعة نوردلنجن بستة أشهر.

على أن هزيمة نوردلنجن أوضحت أن السويد من غير قائدها العظيم لا تستطيع مواصلة النضال ضد الإمبراطورية، وتلك حقيقة أقنعت ريشيليو وزير فرنسا بأن التدخل الفعال قد صار ضرورياً في هذه الحرب الطويلة وهكذا بدأ الدور الرابع والأخير من أدوار حرب الثلاثين عاما.



The victory of Gustavus Adolphus at the Battle of Breitenfeld (1631)

الدور السويدي - الفرنسي ١٦٣٥ – ١٦٤٨[٧]

الواقع أن؛ هذا الدور من أدوار الحرب طور علماني تماماً فقد فقدت الحرب ذلك الطابع الديني الذي تميزت به أصلاً واختفى في غمرة النضال بين أسرتي البوربون والهابسبورج للسيطرة على أوربا، والواقع أن روح الحرب الدينية كانت قد تـوارت تقريباً في نضال اتحدت فيه فرنسا الكاثوليكية والسويد البروتستنتية مع جمهورية هولندا البروتستنتية في معاهدة كومبين Compiene في ٢٨ أبريل ١٦٣٥ ضد ألمانيا اللوثرية والنمسا الكاثوليكية وأسبانيا الكاثوليكية، وأخذت سافوي تبيع صداقاتها تارة لهذه وتارة أخرى لتلك، وعندما أصبحت المسائل الخطيرة موضع النزاع لا تتعلق بالعقيدة أو الطوقس الدينية، وإنما تتعلق بإمكان السماح للسويد بالاحتفاظ بمورانيا ولفرنسا باستبقاء الألزاس فقدت الحرب الجانب الأكبر من دوافعها الحماسية للعقيدة ولكنها امتلأت بعمليات الزحف والتراجع والحصار والتسليم والحرق عمداً والقتل، وكل ألوان النكبات التي كان في مقدور الفرق المرتزقة المتوحشة الجائعة أن تنزلها بشعب لا حول له ولا قوة.

وبدخول فرنسا في هذه الحرب الطويلة لم تصبح هذه الحرب حرباً ألمانية، أما تقرير فرنسا التدخل تدخلاً مباشراً فكان مبعثه الغبة في خدمة مصالحها السياسية، ذلك أن إنهزام البروتستنت في موقعة نوردلنجن جعل هؤلاء يرتمون في أحضان فرنسا وإذا كان ريشلو قد امتنع في الدور السابق عن التدخل المباشر في الحرب، فالسبب في ذلك أن النفوذ الأكبر كان حين إذن من نصيب السويد وملكها جوستاف أدولف، أما الآن فقد نجم عن فشل السويد أن صار الطريق ممهداً لتغلب النفوذ الفرنسي إذا شاءت فرنسا الدخول في الحرب، وكان واضحاً أن فرنسا سوف تتمكن حين إذن من تحقيق مأربها السياسية بفضل هذا النفوذ المتفوق وذلك ما يتوقعه ويرديه وزيرها ميشيليو.

ثم من الأسباب التي حملت ريشيليو على التعجيل بالتدخل، أنه كان هناك أمل بعد هزيمة البروتستنت في نورد لنجدن أن تنتهي الحرب في ألمانيا، وانتهاء الحرب على هذه الصورة معناه ضياع الفرصة على فرنسا لخدمة مصالحها، والسماح بتقوية سلطان الهابسبورج في ألمانيا وذلك ما كانت تخشاه وتأباه فرنسا.

(٧) عبد العزيز نوار، محمود جمال الدين، التاريخ الأوربي الحديث، ص ١٥٤ – ١٥٨.

جاد طه، تاريخ أوربا الحديث، ص ١٩١ – ١٩٥.

“Thirty Years' War - Swedish-French intervention”, available in 20 January 2009 at: (http://www.experiencefestival.com/a/Thirty_Years_War/id/385103)

أما فكيف كان هناك أمل في إمكان إنهاء الحرب بعد واقعة نوردلنجن في سبتمبر ١٦٣٤ فتفسير ذلك أن بعد الأمراء من البروتستنت وفي مقدمتهم جون جورج ناخب سكسونيا كانوا يخشون من تغلب نفوذ السويد ومن تغلب فرنسا على السواء في ألمانيا بسبب هذه الحرب التي كانت تتحول سريعاً من حرب تهتم بمسألة المذهب والعقدية إلى حرب أوربية تهتم بالمسائل والمصالح السياسية.

لذلك كان من نتائج هزيمة نورد لنجن أن بادر جون جورج ناخب سكسونيا إلى استئناف المفاوضات مع الإمبراطور فرديناند الثاني، وفي يونيو ١٦٣٥ توصل الفريقان إلى عقد لصلح في براغ ، وبمقتضى هذا الصلح أعيد النظر في مرسوم استرجاع أملاك الكنيسة الذي كان قد صد في عام ١٦٢٩ فتم الاتفاق في صلح براج على تحيد عام ١٦٢٧ تاريخاً لاسترجاع أملاك الكنيسة التي أخذت بعد هذا العام وذلك بدلاً من سنة ١٦٥٢ التي كانت قد تحددت تاريخاً لذلك في مرسوم الاسترجاع الذي صدر في مارس ١٦٢٨ وبناءاً على ذلك فإن الأراضي والأملاك التي تكون فعلاً سوم ١٢ نوفمبر ١٦٢٧ في حوزة أصحابها سواء كان هؤلاء قد استولوا عليها قبل صلح أوجزبرج في ١٥٥٥ أم بعد هذا الصلح، تبقى في حوزة أصحابها وتستمر في حوزتهم لمدة ٥٠ عاماً أو أنها تعاد لأصحابها إذا كانت قد أخذت منهم تطبيقاً للمرسوم السابق أي للمرسوم الذي صدر في ٦ مارس ١٦٢٩ وعلى أن تبقى في حوزتهم لنفس المدة المنصوص عليها وفي بحر هذه المدة يجرى اتفاق بشان هذه الأراضي والأملاك بالطريق الودي، ومعنى ذلك أن صلح براج جعل تنفيذ مرسوم ١٦٢٩ يتأجل فعلاً ٥٠ سنة وفي ذلك ترضية للبروتستنت.

وعلى أية حال؛ فقد اعترف غالبية الأمراء بصلح براج لأنه كان في الواقع تسوية طيبة وحكيمة بقدر ما سمحت به الظروف حين ذلك، فقد حصل الموقعون البروتستنت على ضمان حريتهم وعلى استبقاء الأراضي والإيرادات التي كانوا قد أخذوا من الكنيسة الرومانية مدة ٥٠ عاماً.

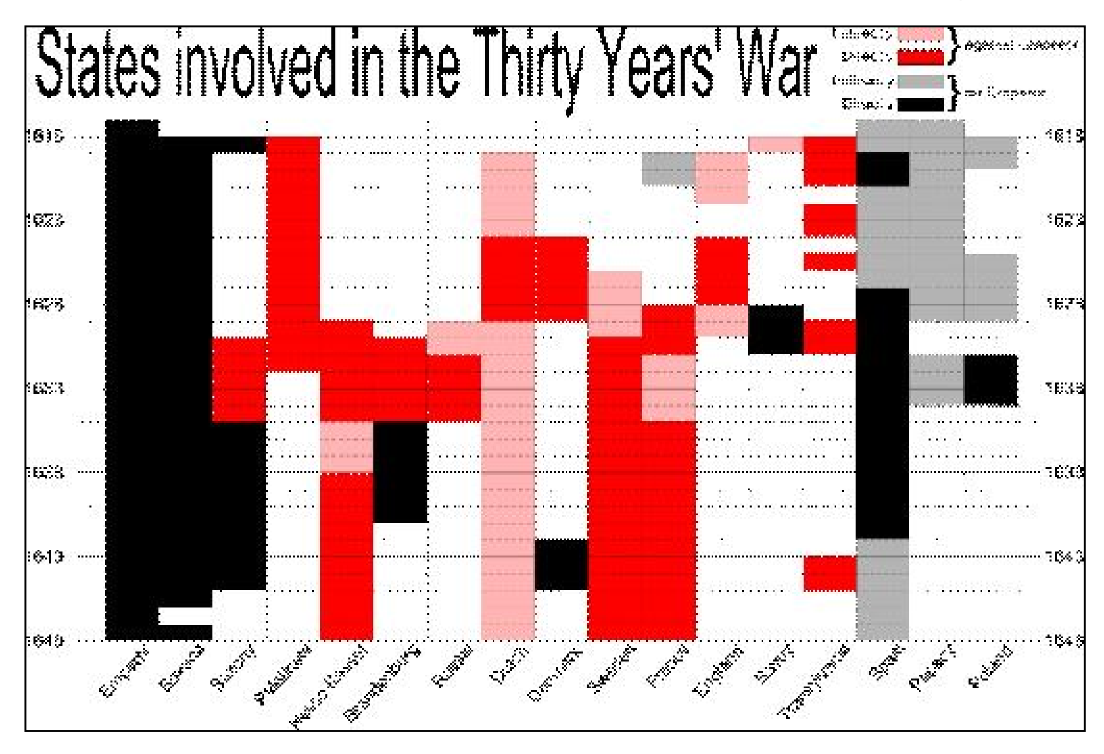
ومما يجب ملاحظته أن صلح براج لم يشمل الكلفنيين ومع ذلك فإن قبول أكثر الأمراء البروتستنت لهذا الصلح كان كافياً لأن يكفل عودة السلام إلى ألمانيا ١٦٣٠ لو أن المصالح الأجنبية لم تتدخل على يد فرنسا لتحريك الحرب ثانيةً، ولذلك فقد أصبحت حرب الثلاثين عاما في هذا الدور الأخير حرباً سياسية بحتة أساسها النضال بين أسرة الهابسبورج والبربون للسيطرة على أوربا.[٨]

(8) "Thirty Years' War - Swedish-French intervention", available in 20 January 2009 at: (http://www.experiencefestival.com/a/Thirty_Years_War/id/385103)

وكان هناك ميدانان للحرب أحدهما تشغله الحرب من جانب فرنسا التي تقدمت بنشاط في داخل ألمانيا، والآخر تشغله الحرب من داخل السويد التي تقدمت من ناحية البلطيق إلى قلب ألمانيا وبذل الإمبراطور قصارى جهده لوقف هذا الزحف المزدوج، أما الشعب الألماني نفسه فقد كان موقفه من هذا النضال موقف المتفرج لأنه كان قد أنهكه التعب وصار لا يرغب سوى في نهاية هذه الحرب بأية صورة من الصور ولمصلحة أي من الطرفين المتنازعين.

وقد انتصر الإمبراطوريون في عام ١٦٣٦ وأجبروا السويديين على الانسحاب والارتداد إلى السويد، كما دفعوا الفرنسيين أمامهم حتى صاروا يهددون باريس ذاتها.ولكن أمد هذه الانتصارات كان قصير، فلم يلبث أن تمكن الفرنسيون من إجلاء أعدائهم عن بلادهم، واستطاع السويديون بقيادة بانر Baner أن يحرزوا انتصاراً حاسماً في واقعة وتستوك Wittstock في أكتوبر ١٦٣٦ ونتيجة لهذا الانتصار سقطت في قبضة السويد كل من براندبرج، وبوميرانيا، وسكسونيا، وثورينيجا،وجزء من فرنكونيا. وكان لوفاة الإمبراطور فرديناند الثاني في بداية ١٦٣٧ وتولي فرديناند الثالث – وكان أقل منه كفاءة – أثره في إضعاف موقف الإمبراطوريين.

واستمرت الحرب في صالح فرنسا والسويد فاستطاع الفرنسيون في الغرب الاستيلاء على الألزاس في ١٦٣٩ وحاول البابا عدة مرات أن يعقد صلحاً ينهي هذه الحرب دون جدوى، أما السويديون فقد تقدموا عام ١٦٤١ حتى باتوا يهددون فيينا ذاتها. وفي عام ١٦٤٦ انضمت القوات الفرنسية إلى القوات السويدية وفي معركة زوسمار شاوسن Zusmarshauesn مايو ١٦٤٨ أوقع القائدان السويدي والفرنسي بخصمها مكسيميليان البافاري هزيمة ساحقة.



صلح وستفاليا ١٦٤٨[٩]

وبعد هذه الواقعة الأخيرة؛ اضطر الإمبراطور إلى قبول الصلح بعد أن تبين عجزه التام عن متابعة الحرب منفرداً وقد تم التوقيع على الصلح في مونستر في وستفاليا في ٢٤ أكتوبر ١٦٤٨ وبهذا الصلح انتهت حرب الثلاثين عاماً.

ويعتبر صلح ويستفاليا من التسويات فائقة الأهمية في تاريخ أوربا الحديث لأنه ظل الأساس الذي تستند عليه الدول الأوربية في علاقاتها الرسمية منذ وقت إبرامه ١٦٤٨ إلى قيام الثورة الفرنسية ١٧٨٩. كذلك تبدو أهمية هذه الوثيقة التاريخية الهامة – الصلح – لأنه تناول مسائل متنوعة سواء كانت داخلية خاصة بألمانيا أم دولية خاصة بالدول المعنية الأخرى.

كانت أهم الموضوعات التي تناولها هذا الصلح هي وضع قاعدة جديدة للسلام بين البروتستنت والكاثوليك فقد اعتمد هذا الصلح المبادئ التي قررها صلح بساو عام ١٩٥٢ وصلح أوجزبرج ١٥٥٥ مع فارق هام هو أن صلح ويستفاليا اعترف رسميا بمذهب كلفن فشمل التسامح الديني أتباع كلفن كما شمل أتباع لوثر من قبل، والواقع أن هذا الصلح لم يمنح التسامح للأفراد بل أبقاه كما كان العهد سابقاً مقصوراً على الأمراء.

أما فيما يتعلق باسترجاع أملاك الكنيسة الكاثوليكية، فقد اعتبر عام ١٦٤٢ تاريخاً يجرى على أساسه الفصل في الأملاك التي تبقى في حوزة كل من الكاثوليك والبروتستنت من أسقفيات وأراضي الكنيسة فيبقى كل فريق منهما محتفظاً بما كان في يده في أول يناير ١٦٤٢ وذلك بدلاً من ١٥٥٢ وهو التاريخ الذي تحدد في مرسوم ١٦٢٩ وبدلاً من عام ١٦٢٧ وهو التاريخ الذي جاء في صلح براج في مايو ١٦٣٥ وأهمية هذا القرار أنه أبقى في يد الكاثوليك جميع الأسقفيات الكاثوليكية في الجنوب، بينما أبقى في أيدي البروتستنت جميع الأسقفيات والأراضي في الجهات الشمالية.

أما الموضوع الهام الثاني الذي تناوله هذا الصلح هو موضوع اقتسام الغنائم بين المنتصرين فقد حصلت السويد على عدة أسقفيات في الشمال، ثم حصلت على الجزء الأكبر من بوميرانيا الغربية وبفضل هذه الأملاك الجديدة صارت للسويد رقابة فعالة على مصبات الأنهار الألمانية وهي الأودر Oder وإلب Elbe ووزر Wesser وبذلك أحرزت السيطرة التي كان يريدها جوستاف أدولف على بحر البلطيق. أما فرنسا فقد استولت على أراضي الألزاس النمساوية

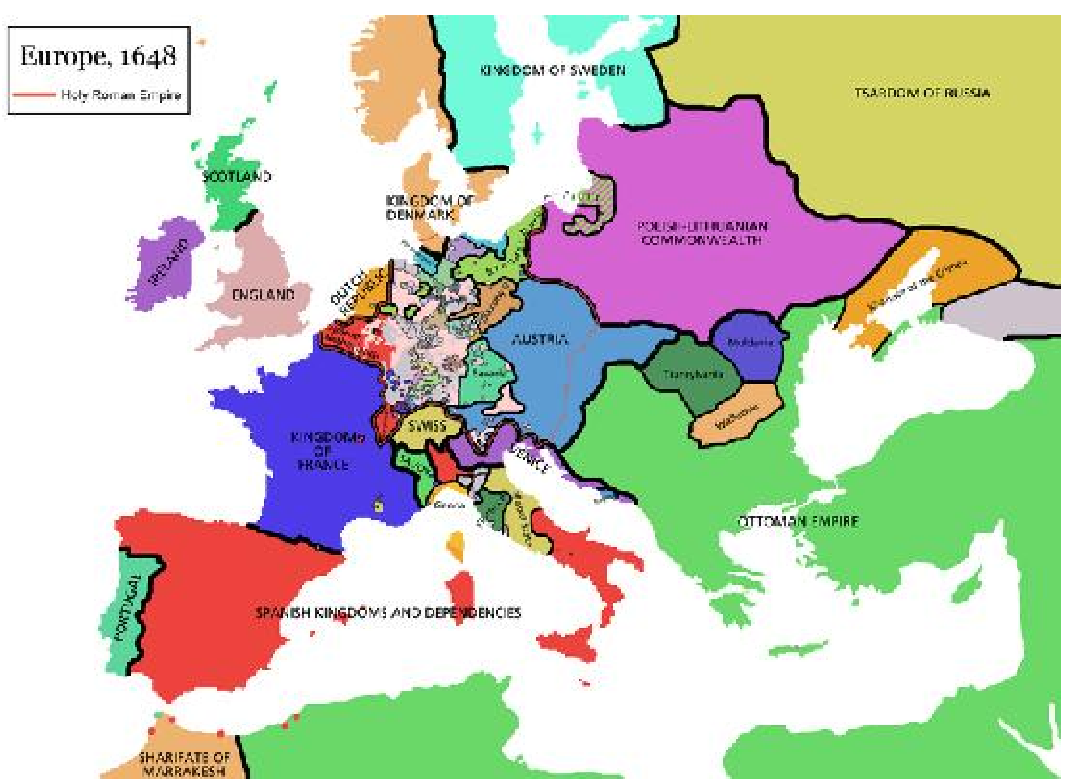
(٩) عبد العزيز نوار، محمود جمال الدين، التاريخ الأوربي الحديث، ص ١٥٥ – ١٥٧.
جاد طه، تاريخ أوربا الحديث، ص ١٩٥ – ١٩٧.
"Thirty Years' War - The Peace of Westphalia", available in 20 January 2009 at: (http://www.experiencefestival.com/a/Thirty_Years_War/id/385103)

ومعها بريساك Breisack وبعض المناطق الأخرى الأقل أهمية التي ظلت في حوزة الأمراء الذين كانوا تابعين للإمبراطورية.

أما الموضوع الهام الثالث الذي حواه هذا الصلح الفريد فكان يمس الأوضاع في ألمانيا ذاتها، فقد نال الأمراء الألمان في هذا الصلح تأكيدات بحقوقهم في السيادة فصار لهم الحق في عقد المحالفات فيما بينهم، أو مع الدول الأجنبية فأصبحت الإمارات من الناحية القانونية في حكم المستقلة الأمر الذي ترتب عليه أن صار تفكك أوصال ألمانيا كاملاً.

وقد نال ناخب برندبرج تعويضاً عن بوميرانيا الغربية التي أخذتها السويد، فأعطى أسقفيات مجدبرج وهالرشتاد Halherstad ومينون Minoen وكامين Camin ثم تدعمت حقوقه الوراثية على بوميرانيا الشرقية وأعيدت له السيطرة على دوقيات كليف ورافنزبرج Ravenzberg وبذلك أصبح ناخب براندبرج أعظم الأمراء الألمان قاطبة ويلي الإمبراطور فقط في الأهمية، كما أن هذا التوسع الجديد أعطى براندنبرج الفرصة لتنمو باطراد حتى تصل لمرتبة المملكة (مملكة بروسيا) ثم تستطيع منافسة النمسا والتغلب عليها ، ثم يمكنها في النهاية إحياء ذلك الإتحاد الألماني الذي عمل صلح ويستفاليا للقضاء عليه وبعثه من جديد في ألمانيا.

وقد احتفظ مكسيميليان دوق بافاريا بأقاليم البلاتينات العليا وبلقب الناخب في الإمبراطورية، وأما البلاتينات السفلى فقد أعيدت إلى شارل لويس ابن فردريك الخامس وأعطى أيضاً لقب ناخب في الإمبراطورية.



Map of Europe in 1648, after the Peace of Westphalia.
Small German states within the Holy Roman Empire are shown in grey

الواقع أن؛ ألمانيا خرجت من هذه الحروب مفككة الأوصال مضعضعة القوى، بل إن صلح وستفاليا أكد الكيان المستقل لثلاثمائة وخمسين ولاية (٣٥٠) ألمانية لكل منها الحق في انتهاج سياسة خارجية خاصة. وعلاوة على ما سبق، فقد اعترف صلح وستفاليا بانفصال سويسرا عن الإمبراطورية كذلك انهي هذا الصلح رسمياً الحروب الطويلة بين أسبانيا والأراضي المنخفضة الهولندية واعترف باستقلال هولندا نهائياً.

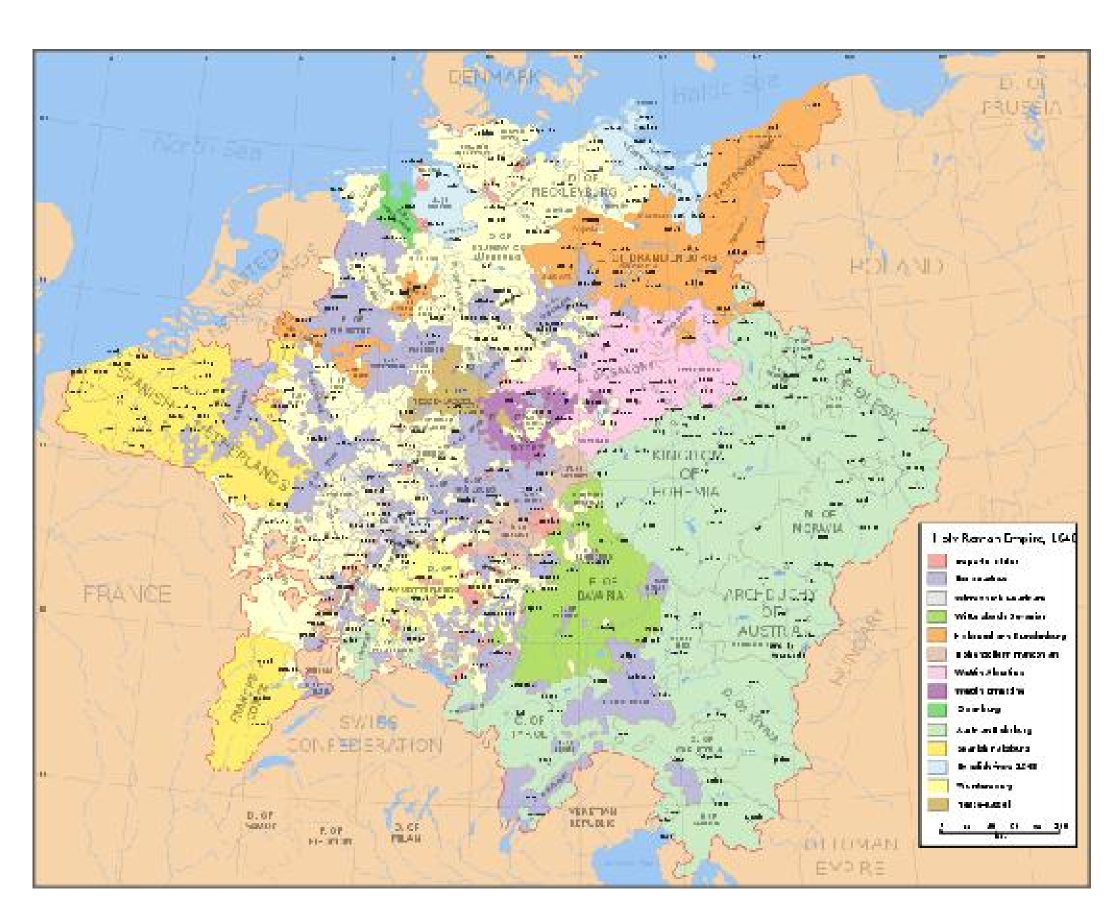
وتبدو أهمية هذا الصلح من الناحية الدينية في أنه يشكل بداية عهد جديد في تاريخ الحضارة الأوربية، فقد أقر هذا الصلح بعد فترة الحرب الدينية الطويلة مبادئ من شأنها نجاة البروتستنتية نهائياً من الأخطار التي أحاقت بها، ومع أن صلح وستفاليا لم يمنح التسامح الديني للأفراد فقد اختفى الاضطهاد الديني منذ هذا الحين وصار من الأمور الشاذة. وفي المائة وخمسين سنة التالية تغلغل مبدأ التسامح الديني في المجتمعات الأوربية لدرجة المبادئ التي اعترفت بها الإنسانية قاطبة.

الجدير بالذكر؛ أنه في النصف الثاني من القرن السابع عشر عاد التوازن بين الأسعار والأجور واختفت أكبر عوامل الاضطراب الاقتصادي والاجتماعي والديني، وخرجت الحكومات من هذه الاضطرابات وهي أقوى مما كانت عليه بفضل زيادة مواردها ثم زوال الانقسامات الداخلية. وهكذا كان في إمكان الدولة الاعتماد على نفسها دون مساعدة الكنيسة، بل وكان في إمكانها أن تبذل جهودها للحد من سيطرة الكنيسة في داخل حدودها، حقيقة بقي احترام العقيدة ذاتها لدرجة أن لويس الرابع عشر مثلاً استطاع أن يتذرع بولائه واحترامه للعقيدة فيضطهد الهوجونوت في فرنسا. ولكن الدولة في هذا القرن كان في مقدورها انتهاج السياسة التي تريد السير عليها في علاقاتها مع الدول الأخرى مسترشدة في ذلك بمصالحها التجارية والسياسية الخالصة.

وأخيراً؛ كان الأثر الرئيسي لحرب الثلاثين عاماً هو تدمير مناطق بأكملها تركت جرداء من نهب الجيوش، فقد انتشرت خلال الحرب المجاعات والأمراض و هلك العديد من سكان الولايات الألمانية، بينما أُفقرت العديد من القوى المتورطة في الصراع. وانخفض عدد سكان ألمانيا بمقدار ٣٠ ٪ في المتوسط، و في أراضي براندنبورج بلغت الخسائر النصف، في حين أنه في بعض المناطق مات ما يقدر بثلثي السكان، و انخفض عدد سكان ألمانيا من الذكور بمقدار النصف تقريبا، كما انخفض عدد سكان الأراضي التشيكية بمقدار الثلث. [١٠]

(10) "Thirty Years' War - Political consequences", available in 20 January 2009 at: (http://www.experiencefestival.com/a/Thirty_Years_War/id/385103)

و قد دمّر الجيش السويدي لوحده ٢٠٠٠ من القلاع و ١٨٠٠٠ قرية و ١٥٠٠ مدينة في ألمانيا أي ثلث عدد جميع المدن الألمانية، فقد ذكر ويل ديورانت في موسوعة "قصة الحضارة" تحت عنوان: إعادة تنظيم ألمانيا (١٦٤٨-١٧١٥):" هبطت حرب الثلاثين بسكان ألمانيا من عشرين مليونا إلى ثلاثة عشر ونصف مليونا، وبعد عام أفاقت التربة التي روتها دماء البشر، ولكنها ظلت تنتظر مجيء الرجال. وكان هناك وفرة في النساء وندرة في الرجال. وعالج الأمراء الظافرون هذه الأزمة البيولوجية بالعودة إلى تعدد الزوجات كما ورد في العهد القديم. ففي مؤتمر فرنكونيا المنعقد في فبراير ١٦٥٠ بمدينة نورنبيرغ اتخذوا القرار الآتي:" لا يقبل في الأديار الرجال دون الستين... وعلى القساوسة ومساعديهم (إذا لم يكونوا قد رسموا)، وكهنة المؤسسات الدينية، أن يتزوجوا... ويسمح لكل ذكر بأن يتزوج زوجتين، ويذكر كل رجل تذكيراً جدياً، وينبه مراراً من منبر الكنيسة، إلى التصرف على هذا النحو في هذه المسألة".(١١)



Central Europe at the end of the Thirty Years' War,
showing the fragmentation that resulted in decentralization

(١١) ويل ديورانت، قصة الحضارة، ص ١١١٠٧.

“Thirty Years' War - Casualties and disease”, available in 20 January 2009 at: (http://www.experiencefestival.com/a/Thirty_Years_War/id/385103)

قائمة بالمعارك التي حدثت أثناء حرب الثلاثين عاما

- ***Bohemian Revolt***
    - Battle of Pilsen (1618 November 21)
    - Battle of Záblatí (1619 June 10)
    - Battle of Vestonice (1619 August 5)
    - Battle of White Mountain (1620)
    - Battle of Wiesloch (1622 April 25)
    - Battle of Wimpfen (1622 May 6)
    - Battle of Höchst (1622 June 20)
    - Battle of Fleurus (1622)
    - Battle of Stadtlohn (1623)
- ***Danish Intervention***
    - Battle of Dessau Bridge (1626)
    - Battle of Lutter am Barenberge (1626)
    - Battle of Stralsund (1628)
    - Battle of Wolgast (1628)
- ***Swedish Intervention***
    - Battle of Frankfurt on the Oder (1631)
    - Battle of Magdeburg (1631)
    - Battle of Werben (1631)
    - Battle of Breitenfeld (1631)
    - Battle of Rain (1632)
    - Battle of Fürth (1632)
    - Battle of Lützen (1632)
    - Battle of Oldendorf (1633)
    - Battle of Nördlingen (1634)
- ***Swedish-French Intervention***
    - Battle of Wittstock (1636)
    - Battle of Rheinfelden (1638)
    - Battle of Breisach (1638)
    - Battle of Chemnitz (1639)
    - Battle of Breitenfeld (1642)
    - Battle of Rocroi (1643)
    - Battle of Tuttlingen (1643)
    - Battle of Freiburg (1644)
    - Battle of Jüterbog (1644)
    - Battle of Jankau (1645)
    - Battle of Mergentheim (1645)
    - Battle of Nördlingen (1645)
    - Battle of Zusmarshausen (1648)
    - Battle of Prague (1648)
    - Battle of Lens (1648)



العثمانيون والعالم الأوربي

العثمانيون ، آل عثمان ، الأتراك: سلالة تركية حكمت في تركية (البلقان و الأناضول) و في أراض واسعة أخرى ، مابين سنوات ١٢٨٠-١٩٢٢ م. ينحدر العثمانيون من قبائل الغز (أوغوز) التركمانية ، تحولوا مع موجة الغارات المغولية عن مواطنهم في منغوليا إلى ناحية الغرب. أقاموا منذ ١٢٣٧ م إمارة حربية في بيتينيا (شمال الأناضول ، و مقابل جزر القرم). تمكنوا بعدها من إزاحة السلاجقة عن منطقة الأناضول. في عهد السلطان عثمان الأول (١٢٨٠-١٣٠٠ م)، و الذي حملت الأسرة اسمه ، ثم خلفاءه من بعده ، توسعت المملكة على حساب مملكة بيزنطة (فتح بورصة: ١٣٧٦ م ، إدرين: ١٣٦١ م). سنة ١٣٥٤ م وضع العثمانيون أقدامهم لأول مرة على أرض البلقان. كانت مدينة غاليبولي (في تركية) قاعدتهم الأولى. شكل العثمانيون وحدات خاصة عرفت باسم الإنكشارية (كان أكثر أعضاءها من منطقة البلقان). تمكنوا بفضل هذه القوات الجديدة من التوسع سريعا في البلقان و الأناضول معا (معركة نيكبوليس: ١٣٨٩ م). إلا أنهم منوا بهزيمة أمام قوات تيمورلنك في أنقرة سنة ١٤٠٢ م. تلت هذه الهزيمة فترة اضطرابات و قلائل سياسية. استعادت الدولة توازنها و تواصلت سياسة التوسع في عهد مراد الثاني (١٤٢١-١٤٥١ م) ثم محمد الفاتح (١٤٥١-١٤٨١ م) والذي استطاع أن يفتتح القسطنطينية سنة ١٤٥٣ م و ينهي بذالك قرونا من التواجد البيزنطي المسيحي في المنطقة.

العثمانيون والعالم الأوربي

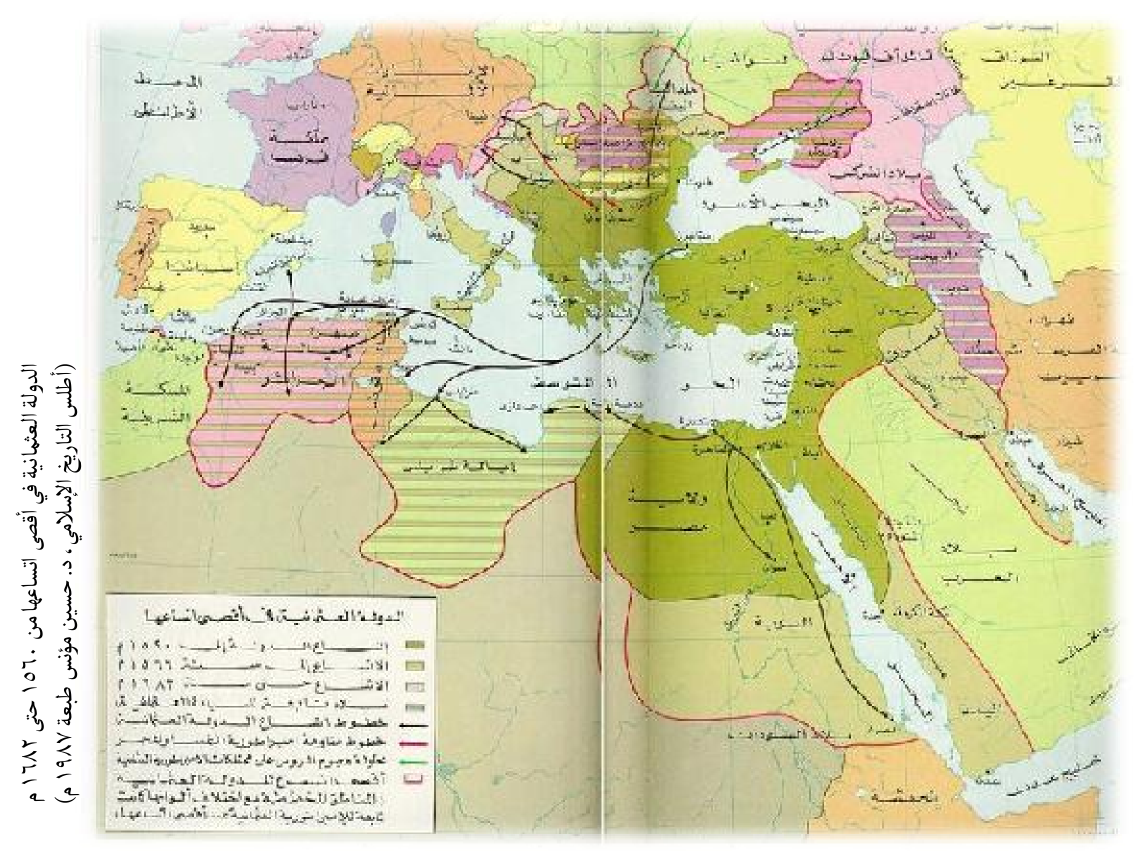
قيام الدولة العثمانية – نظرة أوربا للدولة العثمانية – نمو الإمبراطورية العثمانية - أعداء الإمبراطورية ودور عائلة كوبريللي[الحرب مع النمسا – بولندا – البنادقة]

دخل الأتراك العثمانيون آسيا الصغرى في الثلث الأول من القرن الثالث عشر الميلادي كقبيلة من القبائل التركية التي كانت تنزح من حين لآخر من مناطق الاستبس في آسيا متجهة غرباً نحو الأناضول. أما التاريخ المبكر للعثمانيين فهو يضم روايات أدنى إلى الأساطير منها إلى الحقائق، وعلى أية حال نسمع عن أرطغرل رئيس إحدى القبائل التركية والذي كان عاملاً لدى علاء الدين سلطان دولة الروم السلاجقة. وكان أرطغرل مسئولاً عن المحافظة على حدود الدولة من ناحية الأناضول، إلا أنه لم يقتنع بذلك، بل شرع يهاجم باسم السلطان علاء الدين الأول ممتلكات الدولة البيزنطية في الأناضول، ولما مات أرطغرل في ١٢٨٨ خلفه في حكم الإمارة ابنه عثمان الذي سميت باسمه الدولة والأمة. وسرعان ما نمت هذه الإمارة حتى أصبحت إمبراطورية مترامية الأطراف امتدت أقاليمها في آسيا وأوربا وأفريقيا، وغدت من أكبر الدول الإسلامية التي شهدها التاريخ.

ويهمنا هنا أن نوضح أنه على عهد الأمير عثمان تحدد الوضع الديني والعسكري والسياسي للأتراك العثمانيين، فقد اعتنق هذا الأمير الدين الإسلامي وتبعه الأتراك العثمانيون، وكانت عقيدتهم الدينية قبل ذلك غير واضحة تماماً، ويبدو أن صلاتهم الوثيقة بدولة الروم السلاجقة في الأناضول – وهي دولة إسلامية– كانت عاملاً هاماً ساعد على اعتناقهم الدين الإسلامي في سرعة وسهولة، وقد أظهر الأمير عثمان مقدرة فائقة في وضع النظم الإدارية لإمارته بحيث قطع العثمانيون على عهده شوطاً بعيداً على طريق التحول من نظام القبيلة المتجولة إلى نظام الإدارة المستقرة بما ساعدها على توطيد مركزها وتطورها تطوراً سريعاً إلى دولة كبرى وإعدادها للدور الضخم الذي قامت به بعد ذلك.[١]

(١) عن أصل الأتراك ومواطنهم وقيام الدولة العثمانية، راجع:
علي محمد الصلابي، الدولة العثمانية: عوامل النهوض وأسباب السقوط.- الطبعة الأولى.- بيروت: دار البيارق، ١٩٩٩. ص ٢٥ – ٥٣.
عزلو يوسف بك أصاف، تاريخ سلاطين بني عثمان: من أول نشأتهم حتى الآن/ تقديم محمد زينهم.- الطبعة الأولى.- القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٩٥. ص ٢٩.

وبصفة عامة؛ إن التحركات الحربية التي قام بها العثمانيون في هذه المرحلة الأولى من تاريخهم كانت نتاج عدة عوامل هي الروح الدينية الجياشة، والطبيعة العسكرية الصارمة، والموقع الجغرافي لإمارتهم، والأوضاع السياسية في المنطقة المحيطة بهم. وكانت هذه التحركات الحربية بداية لسياسة حربية نشيطة حرصوا على الالتزام بها، وانتشروا في بقاع آسيا وأوربا وأفريقيا غزاة فاتحين.



الدولة العثمانية في أقصى اتساعها من ١٥٦٠ حتى ١٦٨٢ م
(أطلس التاريخ الإسلامي، د. حسين مؤنس طبعة ١٩٨٧ م)

نظرة أوربا للدولة العثمانية

ومنذ أن عبر المسلمون بقيادة طارق بن زياد بوغاز جبل طارق سنة ٧١١م واجتاحوا بلاد الأندلس في القرن الثامن الميلادي، لم تتعرض المسيحية لمثل هذا الخطر الداهم إلا عندما روعت أوربا ابتداء من القرن الخامس عشر بزحف الأتراك العثمانيين على بلاد البلقان وتوغلهم فيها ثم اتجاههم إلى قلب أوربا.(٢)

وقد نظرت أوربا إلى الفتوح العثمانية على أنها فتوح إسلامية ، وكان الأتراك العثمانيون – في تقدير أوربا – هم الرمز الحي المجسد للإسلام، واختلط الأمر على الأوربيين في ذلك الوقت،

(٢) أحمد ترك، الدولة العثمانية: تاريخ وإنجازات، شبكة الدكتور رأفت عثمان، متاح بتاريخ ١٨ أبريل ٢٠٠٩، على الرابط: (http://www.rafatosman.com/vb/t167434.html)

فكانوا يطلقون على المسلم لفظ تركي، وخلطوا بين العرب والأتراك. وكان هذا الخلط في أذهانهم نتيجة طبيعية، فقد كانت فتوح العثمانيين في البلقان ووسط أوربا فتوحاً إسلامية.

وباسم الإسلام استولى العثمانيون على جزر البحر المتوسط التي كانت قواعد عسكرية صليبية. وباسم الإسلام فتح السلطان محمد الثاني القسطنطينية،(٣) وباسم الإسلام قاد السلطان سليمان المشرع ست عشرة حملة عسكرية في جوف أوربا، ووصل بها إلى أسوار فينا، وباسم الإسلام تقدم العثمانيون لمساعدة العرب في شمالي أفريقيا في كفاحهم ضد الأسبان.

وهكذا زالت فكرة العروبة من أذهان الأوربيين أو كادت، وحلت محلها فكرة الإسلام في عمومه تمثلها قوة الأتراك العثمانيين بعد أن انتقل مشعل الإسلام غلى سواعدهم القوية. ونظر المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها إلى الدولة العثمانية على أنها دولة الإسلام الكبرى يستظلون بظلها الظليل، ونظروا إلى السلطان العثماني وهو يخوض الحروب تباعاً ضد الدول الأوربية على أنه الأمل المرتجى في إعادة مجد الإسلام الغابر، فكانت عواطف المسلمين وآمالهم متعلقة بالدولة العثمانية والسلطان العثماني. ولم تكن العاطفة القومية قد وجدت في نفوس الشعوب الإسلامية في هذا الوقت المبكر من العصور الحديثة.(٤)

نمو الإمبراطورية العثمانية

وهكذا؛ استطاعت تلك القبيلة الشرقية الصغيرة التي جاءت من قلب آسيا أن تسيطر على إمبراطورية امتدت من بغداد إلى حدود المغرب، ومن الخليج العربي إلى شبه جزيرة القرم ونهر الدانوب، إذ مكنهم تفوقهم الحربي من هذا الملك العريض، ومكنتهم حكمتهم من أن يدركوا أن لا بقاء لإمبراطوريتهم إلا بهذا التفوق الحربي، ومن ثم كان الجيش أهم ما عنوا به. وقد بقى السلطان العثماني سنوات طويلة يملك الجيش الثابت النظامي الوحيد الذي له اعتبار في أوربا، وبفضله استطاع الأتراك أن يكونوا قوة رهيبة في أعين رعاياهم وجيرانهم، وكانت منشآت السلاطين العسكرية في المدفعية والشئون الهندسية والإمدادات والتموين فوق مستوى عصرهم. كما لم يكن في وسع أي دولة من دول غرب أوربا أن تقاوم الفرق العثمانية. وظل السلاطين أكثر من قرن من الزمان يجنون ثمار نشاطهم العسكري وانشغالهم بالجيش، وقد قوى من حرارة ولائهم لخليفة المسلمين حماستهم وطاعتهم العمياء لدينهم.

---

(٣) عن حادثة فتح القسطنطينية ابتداء من محاولات المسلمين فتح هذه المدينة منذ العصر الأموي حتى تحقق هذا الحلم في العصر العثماني على يد السلطان محمد الثاني، راجع:

عماد البحراني،"فتح القسطنطينية في عهد السلطان محمد الفاتح ١٤٥٣".- دورية كان التاريخية.- العدد الثالث: مارس ٢٠٠٩. ص ٦٠ – ٦٥ (www.historicalkan.co.nr).

(٤) جاد طه، تاريخ أوربا الحديث، ص ٢٠٢.

وبهذه القيادة وباستغلال الانقسام في العالم المسيحي اطرد نمو الإمبراطورية التركية، ففي عهد السلطان سليمان العظيم (١٥٢٠ – ١٥٦٦)[(٥)] انتزع الأتراك رودس وفرضوا الجزية على ملدافيا، واغتصبوا من النمسا سبعة أعشار المجر، وقد أثارت تلك الانتصارات البحرية والبرية على حراس العقيدة المسيحية القلق في أوربا. وقد بلغت الإمبراطورية العثمانية في عهد السلطان سليمان العظيم أوج قوتها. وكان سليمان يجمع بين الهمة العسكرية وموهبة التنظيم الحكومي والميل الطبيعي للفنون والآداب، وبعده أخذت تظهر نذر الانحلال الأولى، فقد خلفه على العرش عدد من السلاطين الضعفاء، وترتب على حكمهم من المصائب ما كان لا يمكن تجنبه في دولة تعتمد في كل شيء على شخصية حاكم قوي. فاجتاح الفساد الحكومة وعمت الفوضى الجيش وعقدت معاهدة توروك Torok عام ١٦٠٦ وهي المعاهدة التي خلصت النمسا من الجزية المهينة، وعينت الحدود بين الأراضي التركية والنمسوية لتشير إلى النقطة التي توقفت عندها الفتوح التركية في أوربا، وكيف أن الأتراك في مساومتهم مع أعدائهم قد اضطروا إلى قبول التنازل لهم عن بعض المزايا.

وكانت الإمبراطورية قبل الغزو العثماني قد بلغت مبلغاً من البؤس بحيث أن عدداً كبيراً من الرعايا المسيحيين للباب العالي كانوا يعتبرون حكم الأتراك القوي نعمة وخاصة لأنهم كانت لهم حريتهم الدينية، ويمارسون شعائرهم ويحتفظون بعادات أجدادهم.

وقد أبدى الأتراك عدم مبالاة بالمنازعات القائمة بين الكنائس المسيحية، والواقع أن العثمانيين قنعوا بترك القوى المسيحية تتصارع فيما بينها في الحروب الدينية، ولم يكن ثمة مسلك خيراً من هذا ملائمة لمصالح الأتراك، فقد أثر الكثيرون من بروتستنت المجر العيش تحت لواء الإسلام على أن يقعوا في قبضة الجزويت.[(٦)]

أعداء الإمبراطورية ودور عائلة كوبريللي

وكان لهذه الإمبراطورية المتسعة الأرجاء التي نُظمت بدقة لخدمة أغراض الحرب عدوان رئيسيان: شاه فارس، وقوى أوربا المسيحية. وقد اهتم العثمانيون خلال تاريخهم الطويل بإعداد أسباب الدفاع في هاتين الجبهتين المنفصلتين المتباعدتين. وقد يبدو أن الجهد الذي يجب أن تبذله

(٥) عن السلطان سليمان الأول القانوني وأعماله الحربية في أوربا، راجع:

إسماعيل أحمد ياغي، الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث. – الطبعة الثانية. – الرياض: مكتبة العبيكان، ١٩٩٨. ص ٦٢ – ٧١

محمد حرب، الحملات الحربية في عهد سليمان القانوني. – مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة: ع٥٥ –٥٦ (١٩٨٢ – ١٩٨٣). – ص٢٢٨ –٢٣٧.

(٦) جاد طه، تاريخ أوربا الحديث، ص ٢٠٤.

الدولة العثمانية تجاه هاتين الجبهتين هو فوق ما تستطيعه، لولا أن العالم الأوربي كان عاجزاً عن توحيد جهوده، فالانقسام الديني في العالم المسيحي اللاتيني، مضافاً إليه الخصومة بين فرانسوا الأول وشارل الخامس مكن الأتراك من تثبيت مركزهم وتوسيع رقعة فتوحاتهم. كما أن العداء بين أسرتي هابسبورج وبوربون، قد فتح أما العثمانيين في النصف الثاني من القرن السابع عشر مجالاً جديداً لزحف موفق على الأراضي المسيحية.

وكان من سوء حظ الدولة العثمانية أن صادفت نوبة من نوبات الوهن الخلقي – التي كانت تنتاب العثمانيين من وقت لآخر- وذلك أثناء حرب الثلاثين عاماً التي كانت تعد فرصة سانحة للتوسع العثماني في أوربا. وكان آل عثمان إحدى الأسر العظيمة ولكن حلت بها فترات من الوهن باعدت بينها وبين التفوق. وقد امتدت إحدى هذه الفترات حتى شملت النصف الأول من القرن السابع عشر.

على أن الأتراك كان لديهم معين من القوة يستمدون منه ما يعينهم على تخطي تلك الفترات، مما أذهل أعداءهم المرة تلو الأخرى. وهكذا أعقب نصف القرن من الفساد والفوضى عصر من الانتعاش الواضح في قوة الدولة ونظامها. وقد استدعى أحد الألبانيين ليصبح صدراً أعظم في عام ١٦٥٦ وقد استطاع محمد كوبريللى الألباني بصرامته العنيفة أن يوثق عرى الإمبراطورية من جديد.[٧] وفي خلال فترو تربو على العشرين عاماً أثناء تواجد وزراء من أسرة كوبريللى تمكن العثمانيين مرة أخرى من القيام بدور عنيف هدد دول جنوب شرق أوربا، وأنهك خطوط دفاع العالم الغربي.

وقد وقع عبء الدفاع عن أوربا إزاء الخطر العثماني على عاتق أسرة هابسبورج الكاثوليكية، وأن دور النمسا الخطير في التاريخ الأوربي وهو أحد المبررات الرئيسية لوجود الإمبراطورية النمسوية ليتمثل بالذات في صمود هذه الإمبراطورية قروناً عدة وراء الحدود الجنوبية الشرقية لأوربا تدافع عن أوربا في مواجهة الغزو العثماني.

على أنه بينما كانت قوات السلطان موحدة ومتماسكة كان ليبولد إمبراطور النمسا عاجزاً حتى عن السيطرة على ممتلكاته الموروثة. وكان سلطانه يلقى في المجر خاصة أشد مقاومة من جانب هيئة النبلاء الذين كانوا يكرهون الجيوش الألمانية، ويخشون توقع الضرائب الألمانية، وأكثر من ذلك يستنكرون تعصب الكنيسة الكاثوليكية. وإذا كانت النمسا قد أخمدت فعلاً أنفاس بوهيميا، فإن جمع قوات من ألمانيا لا يكون إلا بعد موافقة أمراء الدايت ومواجهة سياسة

(٧) مقال بعنوان " العثمانيون في وسط أوربا"، إسلام أون لاين.نت/ ثقافة وفن، متاح بتاريخ أول يناير ٢٠٠٠، على الرابط: (http://www.islamonline.net/servlet/Satellite?c=ArticleA)

فرنسا العدائية. ومع ذلك فقد كان لعواطف العصور الوسطى بعض اعتبارها حتى في منتصف القرن السابع عشر، ففي الوقت الذي تعرضت فيه العقيدة الكاثوليكية لأزمة حقيقية، استطاع أشيدوق النمسا – باعتباره إمبراطور للإمبراطورية الرومانية المقدسة – أن يستنجد بما تبقى من الروح الصليبية في أوربا باعتباره رأس العالم المسيحي اللاتيني، وكان له لأن يتوقع الحصول على معونة الفاتيكان، ومساعدة جيش صغير مختلط جمع ارتجالاً.

وكانت جمهورية بولندا الشاسعة الأرجاء والمضطربة الأحوال أقرب حليف للهابسبورج، ومنذ عام ١٥٧٢ أصبحت هذه الجمهورية في حالة تفكك تام عندما رفض النبلاء البولنديون الخضوع لحكومة قوية، وأصروا على أن لا يتقلد التاج إلا ملك منتخب، وبذلك فقد الملك كل نفوذه، فلم تعد له أداة لجباية الضرائب ولا جيش قائم. ولما كان من حق أي عضو في الدايت البولندي أن يعطل تماماً أي إجراء الدايت (حق الفيتو) بأي حجة مهما كانت تافهة، لم يعد الملك يملك أي وسيلة لإحداث تغيير دستوري ناجح أو تزويد بلاده بأي تشريعات جديدة. وكانت مدة انعقاد الدايت سنتين، إلا أنه كان يفتقد الخصائص التي تجعل منه برلماناً قوياً إذ كان النبلاء يتقاضى بعضهم أجور من النمسا، والبعض الآخر من فرنسا، ولا يكاد ينفض لهم اجتماع دون اضطراب أو إراقة دماء.

على أن المظاهر كانت براقة، ولكن النظام كاد أن يكون منعدماً، فقد كان الجيش البولندي يعتمد في تشكيله في أي وقت على استعداد النبلاء. وكان مبدأ التطوع هذا هو الذي هدم قوة الجيش البولندي وكفاءته، بل كان مقياس الطاعة في أثناء المعركة هو الهوى، فقد يجد أنجح القواد نفسه ضعيفاً بسبب انسحاب الجند من تلقاء أنفسهم. وعلى الرغم من كثرة جيران الجمهورية البولندية المتطلعين لاقتسامها، فقد كان بما يتفق ومصلحة العالم المسيحي في ذلك الوقت أن تبقى بولندا، طالما كانت من الضعف لا تسبب أي متاعب للنمسا، ومن الفساد بحيث تباع وتشترى خدمة أغراض فرنسا.

وهناك مساحة واسعة من الأرض معروفة باسم بودوليا Podolia على امتداد خط تقسيم مياه الدينستر Deniester والبوج Bog. ولم يكن في وسع جيش بولندا أن يسير متجهاً جنوباً بشرق لمهاجمة الأتراك إلا إذا اخترق بودليا. وكذلك كان العثمانيون يتقدمون فوق خيولهم لمهاجمة البولنديين على امتداد ذلك الشريط من التربة السوداء التي تخترق سهل بودليا الشاسع. وفي هذا الميدان المألوف للقتال حيث لا تزال تقوم حصون مبعثرة منذ أيام حروب التتار في القرن السابع عشر، قفز فجأة إلى الشهرة كقائد عظيم جون سوبيسكى Joan Sopieske وهو

نبيل بولندي ينتمي لأحدى الأسر القديمة.[٨] وقد تمكن سوبيسكى من الانتصار في واقعة كزيم Khoezim - من أعمال بودليا – على جيش كان يقوده أحمد كوبريللى[٩]، ففي لحظة حرجة من تاريخ البولنديين، نفضوا عن أنفسهم دسائس الفرنسيين واختاروا أفضل رجل ليقود الدولة، أي أنه منذ ١٦٧٤ صار سوبيسكى ملكاً على بولندا بناء على انتصاره اللامع في العام السابق.

وتمكن سوبيسكى في ١٦٧٥ من إلزام الأتراك بالتنازل لبولندا عن بودليا كلها – فيما عدا قلعة كامينيك Kameniec وعن ثلثي أوكرانيا. ولكن هدفه كان أعظم بكثير من فوز يحرزه في بودوليا، إذ كان يحلم بحرب صليبية لطرد الأتراك من أوربا. إلا أن الخصومة التقليدية بين باريس وفينا في ١٦٨٣ ليؤرخ بداية ذلك العهد الطويل من الضعف الذي ألم بتركيا. وقد مهدت الضربات الأولى لسوبيسكى السبيل لحرب كان الغرض منها التحكم في أواسط الدانوب، وتميزت بسلسة من الانتصارات أحرزتها قوات الإمبراطورة النمسوية العجوز – باستخدامها لقوات من ألمانيا وسافوى – في إلزام الأتراك بالارتداد عبر الدانوب. ووفي هذه المعارك بزغت شهرة الأمير يوجين Eugene الذي أدى انتصاره في زنطة Zanta والذي توج به سلسلة إنتصاراته إلى صلح كارلوفتز Carlowitz ١٦٩٩ والذي بمقتضاه نزل الأتراك للنمسا عن كل المجر وترنسلفانيا وعن كل بودوليا وأوكرانيا.[١٠] حيث نص الصلح على ما يلي:

١ - تتخلى السلطنة عن المجر و إقليم" ترانسلفانيا" للنمسا.

٢ - تتنازل السلطنة عن ميناء "آزوف" لروسيا .

٣- تتنازل السلطنة عن إقليم المورة (اليونان) و"دلماسيا" للبندقية .

٤ - تتنازل السلطنة عن "كاميتج"و"بودوليا"و"أوكرانيا"لبولندة .

٥ - تتوقف كل دول أوربا عن دفع أي مبالغ للدولة العثمانية.

٦ - تستمر الهدنة بين الطرفين لمدة عشرين عاماً.

---

(٨) جون الثالث سوبيسكي (١٦٢٤ - ١٦٩٦): ولد سوبيسكي في أوليسكو بجاليسيا، أصبح ملك بولندا خلال الفترة (١٦٧٤ - ١٦٩٦م). عقد تحالفًا مع رأس الإمبراطورية الرومانية عام ١٦٨٣م ودخل حربًا مع الأتراك العثمانيين. وأعاق تقدمهم نحو فيينا.

(٩) أحمد تمام، أحمد باشا كوبريلي وإعادة أمجاد الدولة العثمانية، إسلام أون لاين، متاح بتاريخ ١٢ أبريل ٢٠٠٩، على الرابط: (http://www.islamonline.net/Arabic/history/1422/08/article15.shtml)

(١٠) محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية العثمانية / تحقيق إحسان حقي.- الطبعة الأولى.- بيروت: دار النفائس، ١٩٨١. ص٣١٠

Robert Bideleux, Ian Jeffries, A History of Eastern Europe: Crisis and Change.- New York: Routledge, 1998.p 86.

وكان البنادقة قد شجعهم ارتداد الأتراك، وقد بدئوا حرباً لاسترداد بلاد اليونان، وبمساعدة بعض الأمراء الألمان أمكنهم طرد العثمانيين من الموره. وقد سمح لهم صلح كارلوفتز بان يحتفظوا بما حصلوا عليه من أسلاب، ولكن لم تبق اليونان طويلاً مستعمرة البنادقة، فبعد تسعة عشر عاما (١٦٩٩ - ١٧١٨) استعاد الأتراك حكم الموره لأن البنادقة لم يمكنهم الاحتفاظ بها.

فالواقع أنه طبقاً لروح العصر لم يكن هناك من اليونانيين من يحب الايطاليين، كما أنه ليس هناك يوناني أرثوذكسي يحب كاثوليكياً رومانياً، وكذلك لم يرحب تجار بحر إيجة بقواعد الاحتكار الصارمة التي فرضها البنادقة، وانتهى حكم جمهورية البندقية الضعيف في اليونان غير مأسوف عليه.

ولم تكن دعوة الفاتيكان هي التي ردت الجيوش العثمانية في القرن الثامن عشر والتاسع عشر، فقد كان سوبيكى هو آخر من نادى بالتجمع المسيحي ضد القوى الإسلامية العثمانية. أما القوة الحقيقية التي فجرت الإمبراطورية العثمانية العجوز، فلم تكن قوة رومانية بل يونانية، ولم تكن قوة عالمية بل قومية، كانت هذه القوة في تصميم الشعوب المغلوبة على أمرها في شبه جزيرة البلقان من صرب وبلغار ورومانيين على خلع الحكم التركي والتمتع بحياة قومية مستقلة.(١١)

(١١) جاد طه، تاريخ أوربا الحديث، ص ٢٠٩.



حكم أسرة التيودور في إنجلترا والثورة المجيدة

تيودور ، عائلة. تيودور اسم العائلة التي حكمت إنجلترا من ١٤٨٥م حتى ١٦٠٣م. تولى هنري السابع ، أول حكامها، عرش الحكم بعد معركة بوزورث فيلد التي هزم فيها ريتشارد الثالث وأنهى بالتالي الحروب الأهلية التي عرفت بحروب الوردتين. طالب هنري بالعرش لأن أمه مارجريت بيوفورت ، كانت من أسلاف إدوارد الثالث. واستطاع هنري أن يعيد النظام إلى إنجلترا بعد ثلاثين عامًا من الحروب الأهلية. وبدأت الدولة خطواتها الأولى لتصبح قوة عالمية عظمى. ظل ابنه هنري الثامن على نهجه ، حيث قطع جميع الروابط بين إنجلترا والكنيسة الرومانية الكاثوليكية. وقد خلفه ابنه إدوارد السادس ثم ابنتاه: ماري الأولى وإليزابيث الأولى على التوالي. وكانت فترتا إدوارد وماري قصيرتين نتيجة للاضطرابات المدنية ، والحروب الخارجية والاضطرابات الدينية. ولكن إنجلترا استمتعت مرة أخرى بحكم آل تيودور القوي وذلك في فترة حكم إليزابيث. تحول العرش بعد موت إليزابيث الأولى عام ١٦٠٣م إلى الملك جيمس السادس ملك أسكتلندا ، الحفيد الأكبر لكبرى بنات هنري السابع وهو أول ملك من أفراد أسرة ستيوارت التي حكمت إنجلترا.

الثورة المجيدة: تسمى هكذا في تاريخ بريطانيا ، وتسمى أيضًا الثورة البيضاء. وهي ثورة أطاحت بملك إنجلترا جيمس الثاني ، واعتلى العرش بعده وليم الثالث وماري الثانية ، وكان ذلك عام ١٦٨٨م. أرست هذه الثورة دعائم حق البرلمان في تنظيم وراثة العرش وتحديد سلطة الملك. أقر البرلمان عام ١٦٨٩م إعلان الحقوق الذي أقصى الرومان الكاثوليك عن العرش ، وحظر على الملك تعليق القوانين وإبقاء الجيش زمن السلم ، أو جباية الضرائب دون موافقة البرلمان. أصبح جيمس ، وهو من الرومان الكاثوليك ، ملكًا على بريطانيا عام ١٦٨٥م ، فحابى الكاثوليك في المناصب وقربهم إليه في سياسة الدولة. أنكر كثير من المواطنين على الملك خطته السياسية ، لكنهم تريثوا أملاً أن تخلفه على العرش ابنته البروتستانتية. لكن ولادة ابن له من زوجته ماري في يونيو عام ١٦٨٨م عزّزت المخاوف من استمرار الحكم الكاثوليكي مما حدا بالقادة السياسيين إلى استدعاء وليم ـ حاكم ولاية أورانج وزوج ماري وحاكم هولندا ـ لغزو بريطانيا بقوات هولندية. دعا الإنجليز وليم للمساعدة في استعادة حرياتهم ، فقام وليم بغزو بريطانيا في شهر نوفمبر ، مما اضطر جيمس إلى اللّجوء إلى فرنسا. أعلن البرلمان تنصيب وليم وماري حاكمين على بريطانيا وأيرلندا ، كما قبلا عرش أسكتلندا بعد عدة شهور. وقوبلت الثورة بمقاومة محدودة ، وتركّزت مهمة وليم في إخماد الثورة في كل من أيرلندا وأسكتلندا.

حكم أسرة التيودور في إنجلترا والثورة المجيدة

أسـرة تيـودور (١٤٨٥ - ١٦٠٣) – مميـزات حكـم أسـرة تيـودور – امتـزاج الـدماء الملكيـة وتـداخل العـروش – ظهـور حركـة الإصـلاح الـديني – تغـير في السياسـات والتوجهـات – إنجلـترا والثـورة العظمـى ١٦٨٨ [الثـورة المجيـدة – إعـلان الحقـوق – أثـر الثـورة] - الثـورة الجليلة : قراءة في قصة الحضارة

أسرة تيودر Tudorمن أصول ويلزية "نسبة لـويلز أو بـلاد الغـال في بريطانيـا" حكمـت في إنكلـترا منـذ ١٤٨٥ وحتـى ١٦٠٣ م.[١] ترجـع الأسـرة في أصـولها إلى أويـن تيـودر (wen والذي أصبح من رجال البلاط أثناء حكم الملك هنري الخامس. بعد وفاة الأخير سنة ١٤٢٩م تزوج أوين من أرملته كاترين من فالوا "الأسـرة الـتي كانـت تحكـم فرنسـا وهـي فـرع مـن عائلـة الكيبيسـين الكـبيرة". وقـد تـزوج أكـبر أبنائهمـا إدمونـد مـن مارغريـت "مـن بوفـور" ابنـة دوق لانكستر جون من غنت (وهي مدينة في بلجيكا ولد فيها فنسـب إليهـا)، والـذي كـان بـدوره مـن أبناء الملك إدوارد الثالث. وطدت هذه الزيجات العلاقة التي كانت تجمـع بـين بـيتي أو أسـرتي الــ لانكاستر والـ تيودر، فقـد كانـت العائلـة الحاكمـة بحاجـة إلى حلفـاء أقويـاء أثنـاء الحـرب القائمـة "حرب الوردتين" مع بيت الـ"يورك" من أقربائهم.



هنري السابع





هنري الثامن

(١) نبيل عبد الحميد، محاضرات في تاريخ إنجلترا الحديث والمعاصر.- دمياط: كلية آداب دمياط، (منشورة بالموسوعة الحرة: ويكيبيديا)

لاقى أوين حتفه عام ١٤٦١ م أثناء إحدى المعارك ضد الـ يورك وحلفائهم. سنة ١٤٨٥م خاض هنري تيودر – من أبناء إدموند تيودر و مارغريت – معركة بوزورث (Bosworth)، واستطاع أن يتخلص من ريتشارد الثالث، زعيم بيت الـ يورك. وبذلك أصبح الطريق ممهدا أمامه للجلوس على العرش، فقد كان الوريث الشرعي لبيت الـ لانكاستر. توج هنري في نفس السنة ملكا على إنكلترا وأصبح لقبه هنري السابع، وبذلك أصبح أول الملوك من أسرة الـ تيودر. حاول أن يصلح بين الأسرتين، الـ لانكستر والـ يورك، وكان زواجه من ابنة إدوارد الرابع زعيم بيت الـ يورك في سبيل تحقيق هذا الهدف.

انتهت أحداث حرب الوردتين، فأخذ الحكام من أسرة الـتيودور يعملون على بسط السلطة الملكية على أرجاء البلاد بعد أن عطلتها الحروب الأهلية. ركز الملوك الذين تعاقبوا بعد هنري السابع، "هنري الثامن، إدوارد السادس، ماري الأولى وإليزابيث الأولى" جهدهم على تطوير القوة البحرية والاقتصادية لإنكلترا. أثناء عهد الملك هنري الثامن انفصلت كنيسة البلاد المحلية عن كنسية روما. حاول أفراد الأسرة التقرب من اسكتلندا، فتزوجت مارغريت تيودر ابنة هنري السابع من جيمس الرابع ملك اسكتلندا، كان ذلك عام ١٥٠٢ م. بعد وفاة آخر الحكام من الأسرة، الملكة إليزابيث الأولى، حيث انتقل العرش إلى أسرة الـ ستيورات (ملوك إسكتلندا). وفي عام ١٦٠٣ م، أصبح جيمس السادس من اسكتلندا، ملكاً على إنكلترا أيضا أصبح يلقب بـ "جيمس الأول" (حسب تسلسل ملوك إنكلترا) وقد حكم خمسة (٥) من أحفاده على المملكتين معاً.



إدوارد السادس



ماري الأولى "الدموية"

حكم إنجلترا في الفترة من نهاية القرن الخامس عشر وطوال القرن السادس عشر خمسة ملوك من أسرة التيودور.

- الأول هو الملك هنري السابع حكم من ١٥٠٩- ١٤٨٥
- الثاني هو الملك هنري الثامن حكم من ١٥٤٧- ١٥٠٩
- الثالث هو الملك إدوارد السادس حكم من ١٥٥٣- ١٥٤٧
- الرابع هي الملكة ماري تيودور حكمت من ١٥٥٨- ١٥٥٣
- الخامس هي الملكة إليزابيث الأولى حكمت من ١٦٠٣- ١٥٥٨

مميزات حكم أسرة التيودور



جاء حكم أسرة التيودور إلى إنجلترا بعد حربين كبيرتين الأولى خارجية مع فرنسا حرب المائة عام والثانية حرب داخلية أهلية حرب الوردتين والخيرة من أهم ميزاتها أنها طورت إنجلترا اقتصاديا واجتماعيا ذلك أن حرب الأسر العريقة بين بعضها أسرة لنكستر وأسرة يورك كسر شوكتهم وأعطى فرصة أمام الطبقات المتوسطة للظهور والثراء. كما أعطى الفرصة للملك هنري السابع كي تقوى شكيمته ويسيطر بقبضة من حديد على زمام المُلك وساعد الشعب الملك وأعطاه الفرصة لتطوير انجلترا نحو السلام الاجتماعي. وقد ساعدت الكثير من العوامل والمؤثرات أسرة التيودور في أن أكسبتها ميزات هامة تركت بصمتها وتأثيرها على التاريخ فيما يلي من سنوات.

امتزاج الدماء الملكية وتداخل العروش

اتجه أمراء وملوك إنجلترا إلى الزواج من الأسر المالكة والبيوتات الحاكمة في اسكتلندا وفرنسا وأسبانيا وغيرهم، ومن تلك ازواج مارى تيودور من فيليب الثاني ملك اسبانيا عام ١٥٥٤، وزواج مارجريت ابنة الملك هنري السابع من جيمس الرابع ملك اسكتلندا، وجاء ثمرة هذا الزواج الأخير جيمس الخامس الذي أصبح ملكاً على اسكتلندا وتزوج بدوره من أسرة دى جير الفرنسية وأنجب ابنة عرفت باسم ماري الاسكتلندية، وأصبحت ملكة على اسكتلندا وتزوجت من ملك فرنسا فرانسوا الثاني عام ١٥٥٩وأصبحت بدورها ملكة على فرنسا.

هذا الزواج والمصاهرة الملكية جعلت العلاقات تتشابك والعروش والتيجان تتداخل من دولة أوروبية لأخرى بعد امتزاج الدماء الملكية تداخلت المشاكل وتعقدت وكثرت المطالبة بالوراثة والأطماع وأصبحت كثير من الوحدات السياسية في غرب أوروبا وكأنها وحدة سياسية واحدة.

ظهور حركة الإصلاح الديني

ظهرت في إنجلترا حركة إصلاح ديني تختلف عن مثيلاتها في غرب أوروبا حيث أن مثيلاتها في غرب أوروبا كانت تسبقها في الزمن، كما أن الحركة الجديدة ولدت وانتهت في عصر أسرة التيودور وأهم ملامحها أنها أدت إلى ظهور مذهب جديد مستقل منفصل عن الكنيسة الأم في روما وكنيستها وتلك كانت الكنيسة الإنجليكانية.

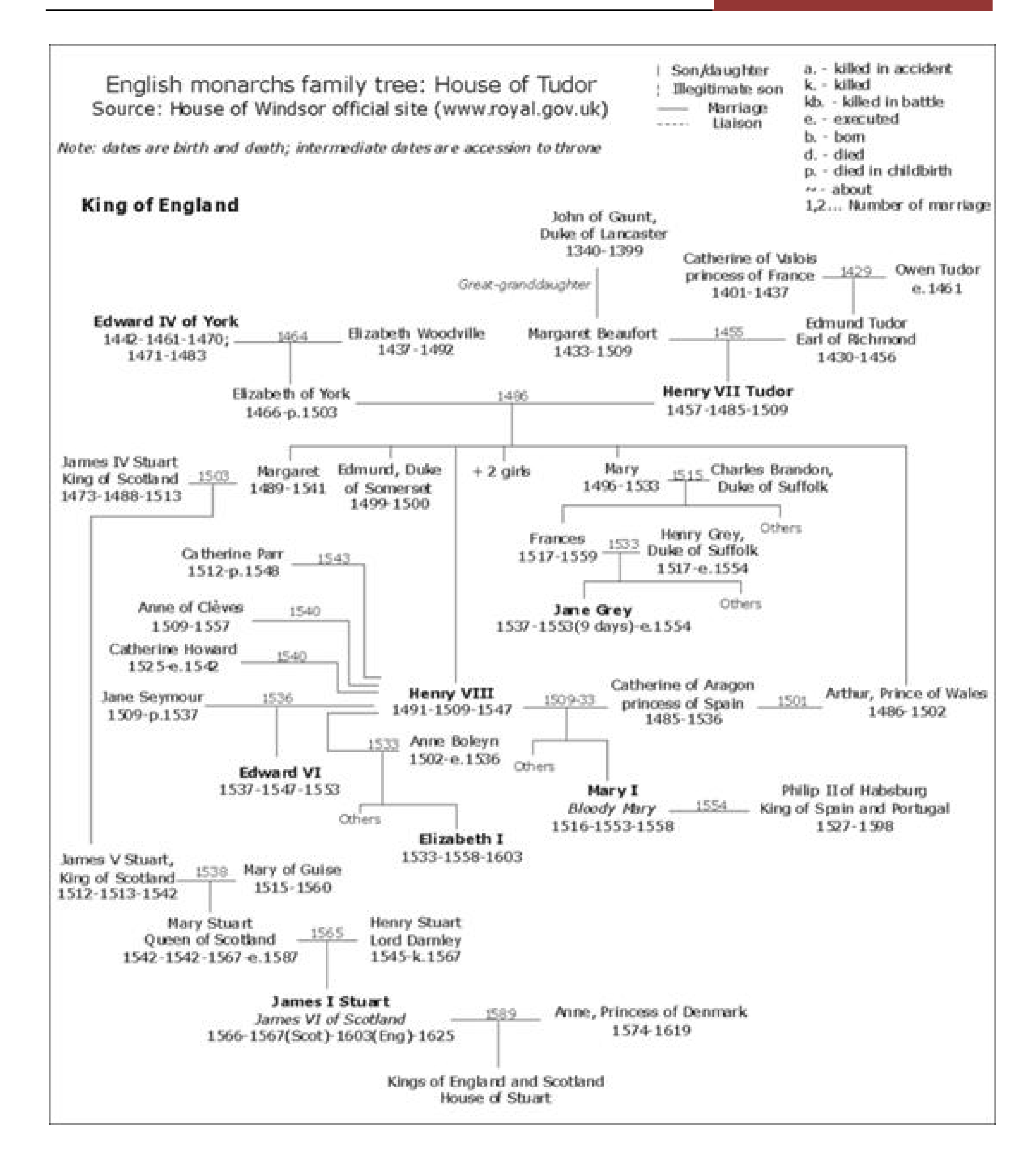
فبينما أنهكت الحروب الدينية القارة الأوربية، مرت إنجلترا بأزمة الإصلاح الديني دون أن تزعجها غارة خارجية أو اضطرابات خطيرة. فقبل أن يصل حكم إليزابيث إلى نهايته كانت الأغلبية العظمى من الشعب الإنجليزي قد رضيت بالكنيسة التي صنعتها الدولة.[٢]

تغير في السياسات والتوجهات

في عهد أسرة التيودور غيرت إنجلترا من فكرها الاستعماري نحو فرنسا واتجهت التوسع للغرب في أعالي البحار بعد أن ذاعت فكرة الكشوف الجغرافية والتي سبق إليها إنجلترا كلا من اسبانيا والبرتغال والبحارة الإيطاليين المهرة في ركوب البحر، وبالرغم من تأخر إنجلترا في عالم الكشف إلا أنها اتجهت في عهد أسرة التيودور إليه بخطى ثابتة وفتحت أمامها أفاق استعمار جديدة. وكانت البداية مع رحلة الملاح جون كابوت الذي أرسله الملك إدوارد السابع عام ١٤٩٦ إلى نيوفوندلاند للاستعمار والاستكشاف الإنجليزي شرق أمريكا الشمالية.

وفي عهد أسرة التيودور انتشرت في إنجلترا وشاعت الروح الجديدة التي كانت قد بدأت في أوروبا وبالذات في إيطاليا، إلا أن إنجلترا أخذت بتلك الثقافة الجديدة مع الازدهار والتقدم المصاحب لأسرة التيودور فانتشرت الأفكار التي تدعوا للحرية والأخذ بالأسلوب العلمي، وساعد على ذلك اختراع الطباعة وحروفها وطبع الكتب العلمية والثقافية والأدبية وتلك التي تنبش في التاريخ والآثار ونهضة الأقدمين، وظهرت في إنجلترا تيارات وأفكار سياسية واقتصادية وثقافية تدعو جميعها لاحترام الإنسان وقيمة حريته وخصوصيته، والاستمتاع بمباهج الحياة، واقتباس كل جديد ومفيد من حضارات الشعوب القديمة والبناء عليها بما يدعوا للتحديث والانطلاق للمستقبل.

(٢) جاد طه، تاريخ إنجلترا الحديث، ص ٢١٠.



إنجلترا والثورة العظمى ١٦٨٨م

قامت الثورة الإنجليزية وهي المعروفة باسم الثورة المجيدة (Glorious Revolution) في القرن السابع عشر ضد طُغيان الملَكية، وقد تمثّل نجاحها في عزل الملك جيمس الثاني وتنصيب ابنته ماري وزوجها وليم اورانج ملكين على إنجلترا. كما تمثّل ذلك النجاح بشكل واضح في "إعلان الحقوق" الذي أصدره البرلمان الإنجليزي عام ١٦٨٩، وقد استعرض إعلان الحقوق المظالم التي ارتكبها الملك جيمس الثاني في حقِّ الشعب، واشترط على الملك الجديد عدم القيام بأي عمل يؤدي إلى الانتقاص من حقوق الشعب.

كان من أهم ما تضمنّه إعلان الحقوق (قانون الحقوق الانجليزي) بالإضافة إلى ذلك:

- حقِّ الملك في التاج مستمد من الشعب الممثل في البرلمان، وليس من الله.
- ليس للملك إلغاء القوانين أو وقف تنفيذها أو إصدار قوانين جديدة، إلا بموافقة البرلمان.
- لا تُفرض ضرائب جديدة، ولا يُشكّل جيش جديد إلا بموافقة البرلمان.
- حرية الرأي والتعبير في البرلمان مكفولة ومُصانة.

من حروب اسكتلندا كان لهذه الثورة أثر كبير في الحياة في إنجلترا، حيث أنها قضت نظرياً وعملياً على فكرة حقّ الملوك الإلهي، كما أصبح البرلمان هو صاحب الكلمة العليا في شئون الحكم، كما كان لها أثر كبير خارج إنجلترا، حيث تطلّعت الشعوب في أوربا إلى تحقيق نظام الحكم البرلماني كما شاهدوه في النموذج الإنجليزي. وقد نتج عن الثورة الإنجليزية في عام ١٦٨٨سيادة البرلمان على التاج و فوق كل شيء حق التطور.

وقد كان جون لوك الملهم الرئيسي لليبرالية الغربية، لأنه قرر منح بعضاً من حقوقه الأساسية في الدولة الطبيعية "الحقوق الطبيعية" للصالح العام، فقد وضع الفرد بعضاً من حقوقه في عهدة الحكومة. ودخل الناس عقداً اجتماعيا مع صاحبة السيادة " أو بمعنى آخر الحكومة" تضمن بنوداً لحماية هذه الحقوق الفردية نيابةً عن الناس حسبما كتبه جون لوك في كتابه إتفاقيتا الحكومة.

كان لدى إنكلترا ولغاية العام ١٦٩٤ نظاماً مفصلاً لمنح الإجازات، ولم يكن بالإمكان نشر أي منشور بدون رخصة من الحكومة، وقبل خمسين عاماً أثناء الحرب الأهلية كتب جون ميلتون كراسه المعنون Areopagitica ، وقد أنتقد ميلتون في كراسه ذاك نظام الرقابة الذي تفرضه الحكومة وسخر من تلك الفكرة حينما كتب يقول: "فيما يمكن للمدينين و الجانحين أن يسافروا إلى خارج البلاد من دون وصي، فأن الكتب غير المسيئة لو أرادت أن تمشي خطوات فإنها لا يمكنها ذلك من دون سجان مرئي فوق عناوينها".

ورغم أن المقالة تلك لم يكن لها تأثير كبير حينها في وقف ممارسة منح التراخيص الحكومية للمنشورات، إلا أنها ستُعد فيما بعد من الأعمدة الرئيسية لحرية الصحافة. حجة ميلتون القوية تمثلت في قوله بأن الفرد قادر على التعامل المنطقي وتمييز الخطأ من الصواب و السيئ من الجيد. و لكي يكون من الممكن ممارسة هذا الحق المنطقي ينبغي أن تكون للمرء الحرية الكاملة للإطلاع على آراء في "مواجهة حرة و مفتوحة". وقد نشأت عن كتابات ميلتون مفهوم "السوق المفتوحة للآراء": "حينما يتجادل الناس مع بعض فإن الحجج الجيدة هي التي تسود".

من أنواع التعبير الذي كان مقيداً في إنكلترا ذلك الذي يحظره قانون التشهير التحريضي والذي جعل من مسألة انتقاد الحكومة جريمة يحاسب عليها القانون. وكان الملك فوق كل

الانتقادات وكانت التصريحات التي تنتقد الحكومة محظورة بقانون محكمة Star Camber وهي محكمة قانونية في القصر الملكي في ويستمنستر بدأت أولى جلساتها عام ١٤٨٧ وقد انتهت أعمالها في ١٦٤١ حينما ألغيت المحكمة. لم تكن الحقيقة المجردة دفاعاً قوياً أمام قانون التشهير التحريضي، لأن هدف القانون كان منع ومعاقبة كل انتقاد يوجه إلى الحكومة. تعاطي "ستيوارت مل" مع إشكالية السلطة في مواجهة الحرية كان ينبع من وجهة نظر القرن التاسع عشر النفعية: أي للفرد حق التعبير عن نفسه طالما أنه لا يؤذي الآخرين. والمجتمع الجيد هو المجتمع الذي يتمتع فيه أكبر عدد من أفراده بأكبر قدر من السعادة.

بتطبيق المبادئ العائمة لحرية الفرد يقول "ستيوارت مل" بأننا لو أسكتنا رأياً واحداً فإننا نكون بذلك قد أسكتنا حقيقة. ولهذا فإن حرية الفرد في التعبير من هذا المنطلق أمر صحي وفي صالح المجتمع. وفي كتابه (حول الحرية) عبّر مل عن تطبيق المبادئ العامة لحرية التعبير حين كتب قائلاً: "إذا كانت البشرية جمعاء متفقين على رأي معين و هناك شخص واحد له رأي مغاير فليس بيد البشرية أي مبرر لإسكات رأي هذا الفرد، بالضبط كما أنه ليس من حق ذلك الفرد و ليس مبرراً له إسكات البشرية جمعاء".[٣]

الثورة الجليلة: قراءة في قصة الحضارة

من ذا الذي كان يستطيع أن يتخيل حين يقع بصره على الصورة التي رسمها فانديك في اللونين الأزرق والذهبي لدوق يورك وهو في الثانية من عمره أن هذا الطفل البريء الحي سيقضي قضاء مبرماً على أسرة ستيوارت ويكمل آخر الأمر، وفي الثورة الجليلة انتقال السلطة من الملك إلى البرلمان، وهو ما كان أبوه قد بدأه بشكل محز من قبل؟ ولكن في الصورة التي رسمها ريلي للشخص عينه تحت اسم جيمس الثاني، نجد أن الحياء قد انقلب إلى ذهول وارتباك. وأن الحساسية تغيرت إلى عناد وتصلب، وأن البراءة تحولت بين أعضاء العشيقات المذعنات الطيعات إلى لاهوت جامد لا ينثني. فما كان إلا أن حدد هذا الخلق لصاحبه مصيراً كان كل فريق يناضل من أجل ما يبدو له هو أنه حق، ومن ثم يستحق منا بعض العطف.

لقد أوردنا من قبل ذكر فضائل جيمس الثاني، فكم من مرة عرض نفسه لخطر الموت في عمله في البحرية. ووازن الناس بينه وبين أخيه، موازنة مرضية، في النشاط الحكومي والإداري، والاعتدال في الإنفاق، وفي ارتباطه بكلمته. أنه استمسك بما أوصاه به شارل وهو يحتضر، من العناية بأمر نل جوين، فسدد ديونها، وخصص لها ضيعة تكفل لها رغد العيش. وبعد ارتقائه

(٣)الثورة الإنجليزية، متاح بتاريخ ٦ مايو ٢٠٠٩، على الرابط: (http://ghoroubnet.jeun.fr)
شبكة النبأ المعلوماتية، متاح بتاريخ ٥ شباط ٢٠٠٨، على الرابط: (http://www.annabaa.org)

العرش ظل لبعض الوقت على علاقته مع آخر عشيقاته كاترين سدلي. ولكنه بناء على اعتراضات الأب بنز أجزل لها العطاء على خدماتها وأقنعها بمغادرة إنجلترا، لأنه اعترف بأنه إذا وقع بصره عليها ثانية فإنه لا يملك فكاكاً من سلطانه عليه. إن الأسقف بيرنت الذي ساعد على خلعه، حكم عليه بأنه صريح مخلص بطبيعته، ولو أنه في بعض الأحيان متلهف محب للانتقام، صديق ثابت على العهد، إلى أن أفسدت عقيدته الدينية مبادئه وميوله الأولى وكان مقتصداً ينمي ثروته بسرعة، ولم يعمد قط إلى غش العملة، كما كان رحيماً بالشعب في موضوع الضرائب.

إن ماكولي بعد أن دون ثمانمائة صحيفة عن حكم جيمس الذي لم يدم لأكثر من ثلاثة أعوام، انتهى إلى أنه "تنحى بمناقب كثيرة، إلى حد أنه لو كان بروتستانتياً، لا بل كاثوليكيا معتدلاً، لكان عصره عصراً زاهراً مجيداً". وتفاقمت أخطاؤه بنمو سلطانه. وكان مغروراً متعجرفاً حتى قبل اعتلائه العرش، ينظر إلى معظم الناس باحتقار، لا يفتح قلبه إلا لقلة منهم، وتمسك تمسكاً حرفياً بنظرية أبيه، وهي أنه ينبغي أن يكون للملك مطلق السلطة، ولم يكن له المزاج الواقعي الذي كان لأخيه والذي أدرك به الحدود العملية لهذه السلطة المطلقة.

ويجدر بنا أن نقدر حق التقدير غيرته الدينية، ورغبته في منح إخوانه الكاثوليك في إنجلترا حرية العبادة والمساواة في الحقوق السياسية. وكان مخلصاً لأمه وأخته الكاثوليكيتين، وكان طوال الخمسة عشر عاماً السابقة محاطاً بالكاثوليك في بيته، وكان موضع استغراب عنده أن الديانة التي أنجبت مثل هذا العدد الكبير من أفاضل الرجال وفضليات النساء، يضع الإنجليز أمامها العراقيل ويبغضونها ويحدون من انتشارها. ولم يشاطر البروتستانت ما تناقلوه من ذكريات حية في أذهانهم عن مؤامرة البارود، أو خوفهم من أن يولي عليهم ملك كاثوليكي، يميل عاجلاً أو آجلاً ويقتنع، بانتهاج سياسة ترضي البابا الإيطالي. أن إنجلترا البروتستانتية كانت تشعر بأن أي ملك كاثوليكي لا بد أن يعرض للخطر استقلالها الديني والفكري والسياسي.

إن تصرفات جيمس الأول بعد ارتقائه العرش خفضت من هذه المخاوف شيئاً قليلاً: أنه عين هاليفاكس رئيساً لمجلس الملك، وسندرلند وزيراً، وهنري هايد (أرل كلارونـدن الثاني) حاملاً لأختام الملك، وكل هؤلاء من البروتستانت. وفي أول خطاب له في هذا المجلس وعد بالإبقاء على نظم الكنيسة والدولة، وعبر عن تقديره لتأييد كنيسة إنجلترا لاعتلائه العرش، ووعد بأن يوليها عناية خاصة. وعند تتويجه أدى اليمين المألوفة لدى ملوك إنجلترا الحديثين، بالمحافظة على الكنيسة الرسمية وحمايتها.

وحظي الملك جيمس الثاني لعدة شهور بشعبية لم تكن متوقعة. وأول إجراء مؤيد للكاثوليكية اتخذه جيمس، لم يكن يحمل عدواناً مباشراً على البروتستانت. أنه أمر بالإفراج عن

كل المسجونين بسبب رفضهم تأدية قسم الولاء والسيادة. وبهذا أفرج عن آلاف من الكاثوليك، بل أخلى معهم سبيل ألف ومائتين من الكويكرز وكثير من المنشقين غيرهم. ومنع إقامة الدعوى بعد ذلك في المسائل الدينية. وأطلق سراح دانبي واللوردات الكاثوليك الذين أودعوا السجن بناء على اتهامات تيتسي أوتس. وحوكم أوتس من جديد وأدين بتهمة الإيمان الكاذبة التي أدت إلى إعدام عدد من الأبرياء، وأعربت المحكمة عن أسفها لأنها لم تستطع الحكم عليه بالإعدام، وحكمت عليه بغرامة قدرها ألفان من الماركات، وأن يربط خلف عربة ويجلد بالسياط مرتين علانية، والأولى من أولدجيت إلى نيوجيت، والمرة الثانية بعد الأولى بيومين، من نيوجيت إلى تايبيرن، وأن يوضع على آلة التعذيب، المشهرة، خمس مرات سنوياً طيلة بقائه على قيد الحياة. وعاش أوتس بعد هذا التعذيب، وأعيد إلى السجن (مايو ١٦٨٥) وطلبوا إلى الملك إعفاءه من الجلد للمرة الثانية، ولكنه رفض.

وتحطمت الهدنة المزعزعة بين الشيع الدينية بثورة مزدوجة. ذلك أنه في مايو نزل أرشيبالد كامبل، إرل أرجيل التاسع، في اسكتلنده، وفي يونيه رسا جيمس ودوق مونموث على الشاطئ الجنوبي الغربي لإنجلترا، وفي مسعى مشترك لخلع الملك الكاثوليكي. وأصدر مونموث بلاغاً وصم فيه الملك جيمس بأنه غاصب طاغية سفاح، كما اتهمه بإحراق لندن والمؤامرة البابوية،ودرس السم لشارل الثاني، وتعهد الغزاة ألا يضعوا السلاح أو يكفوا عن القتال حتى يخلصوا البروتستانتية وحريات الشعب والبرلمان.

ومني أرجيل بالهزيمة في ١٧ يونية، وأعدم في ٣٠ يونية، وبذلك أخفق الجناح الشمالي للثورة. ولكن أهالي دورستشير -وهم بيوريتانيون شديدو التمسك بمذهبهم- رحبوا بمونموث وحيوه مخلصاً ومنقذاً لهم. وانضم تحت لوائه عدد كبير جداً من الناس، إلى حد أنه في ثقة وجلال ومهابة، اتخذ لقب جيمس الثاني ملك إنجلترا. ولم يقدم له الأشراف والطبقات الغنية أي عون أو تأييد. وهزم جيشه المختل النظام على يد القوات الملكية في سدجمور (٦ يولية ١٦٨٥) وهذا آخر حرب جرى فيها القتال على تراب إنجلترا قبل الحرب العالمية. ولاذ مونمورث بالهرب، وتوسل إلى الملك أن يعفو عنه فأبى، وضرب عنقه.

وتعقب جيش الملك، بقيادة برس كيرك، فلول الثوار، وشنق الأسرى دون محاكمة. وشكل جيمس لجنة يرأسها قاضي القضاة جفريز، لتذهب إلى المنطقة الغربية لتحاكم الأشخاص المتهمين بالانضمام إلى الثورة أو التحريض عليها. وسمح للمحلفين بالاشتراك في المحاكمات، باعتبار أن هذا من حق المتهمين، ولكن جفريز قذف المحلفين الرعب، حتى أن قلة قليلة من المتهمين هي التي أصابت شيئاً من الرحمة لدى هذه المحكمة الدموية (سبتمبر ١٦٨٥) . وشنق نحو أربعمائة، وحكم على ثمانمائة بالعمل الإجباري في مزارع جزر الهند الغربية(٧).

وكانت اليزابيث في ١٥٦٩ وكرومل في ١٦٤٨، وقد اتهما قبل ذلك هذه الأعمال الوحشية، ولكن جفريز تفوق عليهما في إرهاب المتهمين والمحلفين والتجهم والعبوس، وصب اللعنات على ضحاياه، والتحديق في وجوههم في كثير من الخبث، والإدانة لمجرد الشك، إلا إذا ساعدت رشوة مجزية على إقناعه بالبراءة. وبذل جيمس جهوداً متواضعة ليضع حداً للوحشية، ولكن ما أن تمت الإبادة الكاملة وخمدت النار المحرقة حتى رفع جفريز إلى مرتبة النبلاء، وعينه رئيساً لمجلس اللوردات (٦ سبتمبر ١٦٨٦).

وأسهم هذا الإجراء الانتقامي في إبعاد النبلاء عن الملك. وعندما كلب من البرلمان إلغاء "قانون الاختيار" (الذي يقضي بإقصاء الكاثوليك عن الوظائف ومقاعد البرلمان) وتعديل قانون"حق التحقيق في قانونية الاعتقال"وإنشاء جيش تحت إمرة الملك، لم يستجب البرلمان لشيء من هذا. فعطله جيمس (٢٠ نوفمبر) وأخذ يعين الكاثوليك في الوظائف العامة. ولما أعترض هاليفاكس على امتهان البرلمان على هذا النحو، عزله جيمس من المجلس. وأحل محله، رئيساً للمجلس، سندرلند الذي أعلن تحوله إلى الكاثوليكية على الفور (١٦٨٧). وحين امتدح جيمس إلغاء لويس الرابع لرسوم نانت استنتجت إنجلترا أنه لو تمتع جيمس بمثل هذه السلطة المطلقة التي يتمتع بها البوربون، لما تردد في اتخاذ خطوات مماثلة ضد البروتستانت في إنجلترا. ولم يخف جيمس اعتقاده بأن سلطته الآن باتت مطلقة بالفعل، وأن لويس الرابع عشر في نظره هو لمثل الأعلى للملك. وقبل الإعانات من لويس لفترة من الزمن، ولكنه أبى عليه أن يملي سياسة الحكومة الإنجليزية. فتوقفت الإعانات.

وكان لويس أكثر تعقلاً فيما يتعلق بإنجلترا منه بالنسبة لبلاده. وعلى حين أنه أضعف فرنسا باضطهاده الهيجونوت، نراه يحذر جيمس من مغبة التسرع في تحويل إنجلترا إلى الكاثوليكية. كما أن البابا إنوسنت الحادي عشر زود جيمس بمثل هذه النصيحة. وعندما أرسل إليه الملك الإنجليزي يعده بقرب انضواء إنجلترا تحت راية الكنيسة الكاثوليكية في رومة، نصحه الباب بأن يقنع بالحصول على التسامح الديني للكاثوليك الإنجليز، كما حذر هؤلاء أن يكفوا عن الأطماع السياسية، ووجه رئيس الجزويت لتعنيف الأب بنزولومه على القيام بمثل هذا الدور الخطير في الحكومة.

إن البابا أنوسنت لم يخفف من غيرته الكاثوليكية، ولكنه كان يخشى قوة لويس الرابع عشر التي تبتغي التطويق والسيطرة، كما كان يأمل في إمكان تحويل إنجلترا من مجرد تابع أو خادم ذليل للسياسة الفرنسية ومشروعاتها إلى قوة متوازنة ضدها. وأوفد البابا مبعوثاً بابوياً -للمرة الأولى منذ عهد ماري تيودور- ليوضح لجيمس أن أي تصدع في العلاقة بين البرلمان والملك لا بد أن يضر بالكنيسة الكاثوليكية.

ولم يستفد جيمس من هذا النصح. إنه أحس، وكان في الثانية والخمسين حين اعتلى العرش، أنه قد لا يتيسر له فسحة من الأجل لتنفيذ التغييرات الدينية التي ينشدها والتي يجيش بها صدره، ولم يؤمل كثيراً في أن ينجب ابناً، وهنا قد تخلفه ابنته البروتستانتية، وتقلب عمله رأساً على عقب، إلا إذا أقيم هذا العمل على أساس وطيد راسخ قبل موته. وطغت آراء الأب بنز والملكة وسلطانهما على كل نصح بالتروي والتريث. ولم يكتف الملك بالذهاب إلى القداس، تحفه الجلالة والمهابة لملكية، بل طلب كذلك إلى مستشاريه أن يلحقوا به لحضور القداس.

وتكاثر الأساقفة حول الحاشية، وعين الكاثوليك في المناصب العسكرية، وحرض القضاة (الذين كان له حق تعيينهم وعزلهم) على توكيد حقه في إعفاء هؤلاء المعينين من العقوبات التي فرضها عليهم "قانون الاختبار". وجند تحت إمرة ضباط أغلبهم من الكاثوليك، جيشاً قوامه ثلاثة عشر ألف رجل لا يخضعون إلا لأوامره هو، وواضح أن مثل هذا الجيش كان يهدد استقلال البرلمان. وعطل العمل بالقانون الذي يفرض العقوبات على حضور العبادة الكاثوليكية علانية.وأصدر في يونية ١٦٨٦ مرسوماً يحرم على رجال الدين إلقاء عظات في الخلافات المذهبية.

ولما خطب الدكتور جون شارب في "دوافع المرتدين" أمر جيمس بوصفه الرئيس الشرعي للكنيسة الإنجليزية، هنري كمبتون أسقف لندن، بفصل شارب مؤقتاً من سلك رجال الكنيسة الأنجليكانية، فرفض كمبتون. فعين جيمس، متجاهلاً قانوناً صدر في ١٦٧٣،"محكمة كنسية" جديدة، سيطر عليها سندرلند وجفريز، وحاكمت كمبتون بتهمة شق عصا الطاعة على التاج، وعزلته من وظيفته.وبدأت الآن الكنيسة الإنجليكانية التي كانت قد التزمت من قبل بالطاعة المطلقة، نقول بدأت للملك ظهر المجن.

أن الملك جيمس كان يأمل في كسب الكنيسة الإنجليكانية إلى جانب المصالحة والتراضي مع روما، ولكن تصرفه المتهور قضى الآن على هذه السياسة. وبدلاً من ذلك انتهج سياسة التوحيد بين الكاثوليك والمنشقين ضد الكنيسة الرسمية. أن وليم بن الذي وجد طريقه إلى قلب الملك وأحرز ثقته، نصحه بأنه يستطيع أن يظفر بالتأييد الحار من جانب كل البروتستانت الإنجليز، فيما عدا الأنجليكانيين إذا هو بجرة قلم ألغى القوانين التي تحرم العبادة العلنية على فرق المنشقين وفي ٤ أغسطس ١٦٨٧ أصدر جيمس أول "إعلان للتسامح" في عهده.

ومهما تكن دوافع الملك، فإن هذه الوثيقة تحتل مكاناً في تاريخ التسامح الديني. إنه ألغى كل قوانين العقوبات فيما يتعلق بالديانة، وأبطل كل الاختبارات الدينية، ومنح الحرية الدينية للجميع،وحظر التدخل في شئون الاجتماعات الدينية المسالمة. وأخلى سبيل كل المسجونين

بسبب الخلافات الدينية. أن هذا الإعلان ذهب إلى أبعد مما ذهبت إليه إعلانات التسامح في عهد شارل الثاني، التي كانت قد أبقت على الاختبار الديني لمن يتولون الوظائف، وسمحت بالعبادة الكاثوليكية داخل الدور الخاصة فقط. وأكد للكنيسة الرسمية أن الملك سيواصل حمايته لها في كل حقوقها القانونية.ومما يدعو إلى الأسى والأسف أن هذا الإجراء قدر له أن يكون إعلاناً ضمنياً للحرب على البرلمان، الذي كان قد سن من قبل كل القيود وعدم الأهلية التي ألغيت الآن. ولو سلم البرلمان بسلطة الملك في إلغاء التشريعات البرلمانية لكان لزاماً أن تنشب الحرب الأهلية من جديد.

ودخل هاليفاكس الذي كان في هاتيك الأيام ألمع عقلية في إنجلترا، المعركة بكتيب لا يحمل اسم المؤلف بعنوان "رسالة إلى منشق" (أغسطس ١٦٨٧)- أكثر النشرات توفيقاً في هذا العصر- حث فيه البروتستانت أن يكونوا على يقين من أن هذا التسامح الذي قدم إليهم الآن، صدر عن ملك موال لكنيسة تدعي العصمة من الخطأ، وتنكر التسامح صراحة. وهل يمكن أن يكون ثمة انسجام دائم بين حرية الفكر والضمير وبين كنيسة لا تخطئ؟ وكيف يطمئن المخالفون إلى أصدقائهم الجدد الذين دمغوهم بالأمس القريب بأنهم هراطقة؟ "كنتم بالأمس أبناء الشيطان، وأنتم اليوم ملائكة النور".

ومن سوء الحظ أن الكنيسة الإنجليكانية كانت قد اتفقت مع روما فيما يتعلق بأبناء الشيطان، وأنها في السنوات السبع والعشرين الأخيرة أخضعت مخالفيها لألوان من الاضطهاد والتعذيب تعفيهم من قبول الحرية حتى على أيد كاثوليكية. وأسرع رجال الدين الأنجليكانيون إلى التماس التصالح مع المشيخيين والبيورتانيين والكويكرز، وتوسلوا إلى هؤلاء جميعاً أن يرفضوا التسامح الراهن، ووعدوهم على الفور بتسامح يحظى بموافقة كل عن البرلمان والكنيسة الرسمية. وبعث بعض المخالفين بخطابات شكر إلى الملك، ولكن الأغلبية كانت بجانبها في تحفظ. وعندما حانت ساعة الفصل نبذ الجميع الملك. وتابع جيمس خطواته.

لقد تطلبت جامعات إنجلترا لعدة سنوات مضت من أساتذتها وطلبتها الالتزام بمذهب الكنيسة الإنجليكانية، ولم يستثن من ذلك إلا منح درجة لطالب لوثري، ومنح درجة فخرية لدبلوماسي مسلم، على أن القساوسة الأنجليكانيين رأوا في أكسفورد وكمبردج هيئات وظيفتها الرئيسية إعداد الرجال لقبول المذهب الأنجليكاني، وتقرر ألا يلتحق بهما أي كاثوليكي. ورغبة في كسر هذا القيد أرسل جيمس، إلى نائب رئيس جامعة كامبردج رسالة يلزمه فيها بأن يستثني من الأنجليكاني راهباً بندكتياً يعي للحصول على درجة الأستاذية. ورفض نائب رئيس الجامعة ففصل بأمر من لجنة المحكمة الكنسية. فأرسلت الجامعة وفداً من بين أعضائه ايزاك نيوتن، ليشرح للملك موقف لجامعة. ولكن الراهب حل المشكلة بالانسحاب (١٦٨٧).

وفي نفس العام رشح الملك لرياسة كلية مجدلن في أكسفورد، رجلاً لا يتمتع بغزارة العلم، ولكنه ذو ميول كاثوليكية،فرفض الزملاء انتخابه، وبعد نزاع طويل اقترح الملك مرشحاً ليس عليه إلا اعتراض أيسر من سابقه، وهو باركر أسقف أكسفورد الأنجليكاني، ولكن الزملاء الذين يشكلون الهيئة الانتخابية رفضوه كذلك، ففصلوا بأمر من الملك، وعين الأسقف باركر قسراً.

واشتدت وطأة الاستياء عندما ارتمى الملك أكثر فأكثر في أحضان مستشاريه الكاثوليك. وكان إعجابه بالأب بتر شديداً إلى حد الإلحاف على البابا برسمه أسقفاً، بل كاردينالاً، ولكن أنوسنت أبى. وفي يوليه ١٦٨٧ عين جيمس الجزويتي القدير، ولكن المستهتر، عضواً في المجلس المخصوص (الملكي)، فاحتج كثير من الكاثوليك الإنجليز بأن هذا تصرف طائش، ولكن جيمس كان في عجلة من أمره ليصل بالنضال إلى غايته. وكان في هذا المجلس الآن ستة من الكاثوليك، مكنت لهم حظوتهم لدى الملك من السيطرة والغلبة. وفي ١٦٨٨ عين أربعة من الأساقفة الكاثوليك لإدارة شئون الكنيسة الكاثوليكية في إنجلترا، وخصص جيمس لكل منهم راتباً سنوياً قدره ألف جنيه، والواقع أن الكاثوليك شاركوا الآن الأنجليكانيين في أنه أصبح لكل من الفريقين كنيسة تساندها وتعاونها الدولة.

ووفي ٢٥ أبريل ١٦٨٨ جدد جيمس نشر "إعلان التسامح" الذي مضى على صدوره عام واحد، وأكد فيه من جديد عزمه على توفير حرية الفكر والضمير" لكل الإنجليز إلى الأبد. فمن الآن فصاعداً لا بد أن يعتمد التعيين في الوظائف والترقي فيها على الجدارة الشخصية لا المذهب الديني. وتنبأ بأن الإقلال من الخلافات الدينية لا بد أن يفتح أسواقاً جديدة للتجارة الإنجليزية، ويزيد من ازدهار الأمة ورخائها.وتوسل إلى رعاياه أن يطرحوا جانباً كل الأحقاد، وينتخبوا البرلمان الجديد دون تمييز بين المذاهب الدينية، والتحقق من انتشار هذا الإعلان الموسع على أوسع نطاق ممكن، أصدر مجلس الملك توجيهاتها إلى كل الأساقفة ليرتبوا مع كل رجال الدين أمر تلاوته في كل كنيسة في الأقاليم في إنجلترا، يوم ٢٠ أو ٢٧ مايو.

واستخدم رجال الدين على هذا النحو، وسيلة للاتصال بالجماهير، أمر له سوابقه الكثيرة في إنجلترا. ولكن لم تكن الرسالة قط يوماً بغيضة إلى الكنيسة الرسمية إلى مثل هذا الحد. وفي ١٨ مايو رفع سبعة أساقفة أنجليكانيين إلى الملك ظلامة أو ضحوا فيها أنهم لم ترتض ضمائرهم أن يوصوا قساوستهم بتلاوة الإعلان، لأنه يخرق قرار البرلمان بأنه لا يجوز إلغاء تشريع برلماني إلا بموافقة البرلمان نفسه، فأجاب جيمس بأن رجال اللاهوت هم الذين كانوا يلحون على عظاتهم وخطبهم دوماً على ضرورة الامتثال للملك وطاعته بوصفه رئيساً

للكنيسة، وأنه ليس في الإعلان ما يخدش أو يسيء إلى كرامة أحد.ووعد بأنه سوف ينظر في ظلامتهم، ولكنهم إن يتلقوا منه رداً في الغد فعليهم أن يذعنوا لأمره.

وفي صبيحة اليوم التالي بيعت آلاف النسخ من هذه الظلامة في شوارع لندن، في الوقت التي ما زالت فيه قيد البحث عند الملك. وأحس جيمس بأن هذا يجافي قواعد اللياقة، وعرض الظلامة على القضاة الاثنى عشر في المحكمة الملكية، فأشاروا بأنه تصرف في حدود حقوقه المشروعية. ومن ثم أغفل الرد على الظلامة. وفي ٢٠ مايو تليت الظلامة في أربع كنائس في لندن، وتجاهلوها في الكنائس الست والتسعين الباقية. وشعر الملك بأن سلطته قد امتهنت، وأمر الأساقفة السبعة بالمثول أمام المجلس. فلما جاءوا أبلغهم بأن عليهم أن يخضعوا للمحاكمة بتهمة نشر طعن أو قذف فيه تحريض على الفتنة، وعلى أية حال فإنهم لكي يتفادوا السجن في الحال، يمكن أن يقبل الملك منهم وعداً كتابياً بالحضور عند استدعائهم. فأجابوه بأنهم بوصفهم من أشراف المملكة، ليسوا في حاجة إلى تقديم أي ضمان سوى كلمتهم. وأحالهم المجلس إلى برج لندن (السجن) وحياهم الأهالي وهتفوا لهم على الجانبيين عند نقلهم عبر نهر التيمز.

وفي يومي ٢٩ و٣٠ يونيه حاكم الأساقفة السبعة -أمام محكمة الملك- أربعة قضاة مع هيئة المحلفين. وبعد يومين من مناقشات حادة في قاعه يحيط بها عشرة آلاف من أهالي لندن المهتاجين، أصدر المحلفون حكماً بعدم الإدانة. وابتهجت كل إنجلترا البروتستانتية، وقال أحد النبلاء الكاثوليك "لن تع ذاكرة الإنسان قط مثل هذه الصيحات والهتافات ودموع الفرح التي حدثت اليوم"وتوجهت الشوارع بالمشاعل والنيران التي أضرمت في الهواء الطلق.

وسار الناس في موكب خلف شخوص من الشمع تمثل البابا والكاردينالات والجزويت، أحرقت وسط احتفالات صاخبة. إن هذا الحكم كان يعني عند البسطاء من الناس أنه لا ينبغي التسامح مع الكاثوليكية، وعند ذوي الإدراك الأوسع أو العقل الأنضج كان يعني تثبيت حق البرلمان في سن قوانين ليس للملك أن يبطلها،وأن إنجلترا، في الواقع، وحتى ولو لم تكن من الناحية النظرية، ملكية دستورية، لا ملكية مطلقة. على أن جيمس الذي عراه الاكتئاب والحزن بسبب الهزيمة، أخذ يتعزى بالطفل الذي وضعته له الملكة في ١٠ يونيه، بل الموعد المتوقع للولادة بشهر، وفي مقدوره أن ينشئ هذا الولد النفيس تنشئة قوامها الولاء والإخلاص للكاثوليكية،وكان يمكن لوالد والولد، في وجه أية معارضة أو معوقات، أن يقتربا يوماً بعد يوم خطوة من الهدف المقدس-ألا وهو الملكية القديمة، تعيش في وئام ووفاق مع الكنيسة، وفي إنجلترا يسودها الهدوء والسلام والتراضي، في أوربا نادمة على ارتدادها عن عقيدتها، موحدة في ظل هذه العقيدة الحقه وحيدة العالمية.

ربما كانت هذه الولادة لتي جاءت قبل الأوان هي التي جلبت الكارثة على رأس الملك المتهور. واتفقت إنجلترا البروتستانتية مع جيمس في أن هذا الولد قد يواصل السعي لإعادة الكثلكة، ومن ثم يمكن القول بأنها خشيته لنفس السبب الذي أحبه الملك من أجله وأنكرت إنجلترا البروتستانتية في أول الأمر، بنوة الطفل الملك. واتهمت الجزويت بأنهم دسوا إلى مخدع الملكة وليداً اشتروه، كجزء من مؤامرة أرادوا منها إبعاد الابنة البروتستانتية ماري عن وراثة العرش. وانعطفت إنجلترا أكثر فأكثر نحو ماري، على أنها أمل البروتستانتية الإنجليزية، ووطنت النفس على القيام بثورة أخرى لإجلاس ماري على العرش لتكون ملكة إنجلترا. ولكن ماري كان آنذاك زوجة وليم أورانج الثالث، رئيس الدولة في المقاطعات المتحدة. ماذا يقول وليم المزهو بنفسه في أنه مجرد زوج الملكة؟ لماذا لا يعرض عليه الاشتراك في الحكم مع ماري؟وفوق كل شيء، انه هو أيضاً يجري في عروقه الدم الملكي الإنجليزي. أن أمه كانت ماري أخرى، وكانت ابنة شارل الأول.

ليس في نية وليم على أية حال أن يلعب دور الزوج للزوجة الملكة. ومن الجائز أن الأسقف بيرت–الذي كان قد اتخذ سبياه إلى القارة هرباً، عند ارتقاء جيمس العرش–أقنع ماري، بإيعاز من وليم، أن تتعهد بالطاعة التامة لوليم في كل الأمور أياً كانت السلطة التي تخولها التصرف فيها، فوافقت على أن يكون الحكم والسلطة في يديه هو، لأنها لا ترغب إلا في أن يعمل هو بالوصية التي تقول: "أيها الأزواج أحبو زوجاتكم، كما تعمل بالوصية التي تقول:أيها الزوجات أطعن أزواجكن في كل شيء" وتقبل وليم الطاعة،ولكنه تجاهل التلميح الرقيق إلى علاقته بعشيقته السيدة فلير، فإن الحكام البروتستانت أيضاً، يجوز لهم فوق كل شيء، أن يخدعوا أو يخونوا زوجاتهم.

إن وليم الذي يحارب لويس الرابع عشر حفاظاً على استقلال هولندا والبروتستانتية، راوده الأمل لبعض الوقت في كسب والد زوجته (جيمس) في تحالف ضد ملك فرنسا الذي كان يحطم توازن القوى والحريات في أوربا، ولما خاب فأله، عمد إلى التفاوض مع الإنجليز الذين تزعموا حركة المقاومة ضد جيمس. إنه تغاضى من قبل عن الحملة التي نظمها مونمورث على الأرض الهولندية ضد الملك جيمس، وسمح لها بالإقلاع من أحد الثغور الهولندية دون عائق، وخشي بحق أن يكون جيمس قد دبر خطة لإعلان عدم أهليته لوراثة عرش إنجلترا.ومتى ولد الملك ابن فمن الواضح أن يسقط حق ماري في العرش.وفي أوائل ١٦٨٧ أوفد وليم افرهارد فان ديكفلت إلى إنجلترا ليقيم علاقات ودية مع زعماء البروتستانت. وعادت البعثة برسائل مبشرة من مركيز هاليفاكس، وأرسل شروزبري وأرل كلارندن (ابن رئيس اللوردات السابق) ومن دانبي،

والأسقف كمبتون وغيرهم. وكانت الرسائل غامضة مبهمة إلى حد لا يئم عن خيانة صريحة، ولكنه انطوت على تأييد حار لوليم في نضاله من أجل العرش.

وفي يونية ١٦٨٧ أصدر كاسبار فاجل، الحاكم العام، رسالة أوضح فيها بصورة آراء وليم في التسامح. إن وليم يريد حرية العبادة للجميع ولكنه يعارض إلغاء قانون الاختبار الذي يقصر حق تولي الوظائف العامة على أتباع المذهب الأنجليكياني. إن هذا البيان الرسمي للتحفظ أكسب وليم تأييد الأنجليكانيين البارزين. ولما قضى مولد ابن لجيمس على فرض وليم في أن يخلفه (جيمس) قرر زعماء البروتستانت دعوة وليم للقدوم والاستيلاء على العرش عنوة. ووقع الدعوة (٣٠ يونية ١٦٨٨) إرل سروزبري الثاني عشر، ودوق ديفونشير الأول، إرل دانبي، إرل سكاربره، وأمير البحر أدوارد رسل (ابن عم وليم رسل الذي أعدم في ١٦٨٣)، هنري سدني (أخو الجرنون)، والأسقف كمبتون. أما هاليفاكس فإنه لم يوقع متذرعاً بأنه يؤثر المعارضة الدستورية. ولكن كثيرين غير هؤلاء، من بينهم سندرلند وجون تشرشل، وكلاهما آنذاك في خدمة جيمس) بعثوا إلى وليم يؤكدون مساندتهم له(٢٢). وكان الموقعون يعلمون علم اليقين أن دعوتهم للمغامرة، من ذلك أق شروزبري الكاثوليكي السابق الذي تحول إلى البروتستانتية، رهن ضياعه نظير أربعين ألف جنيه، وعبر البحر إلى هولنده ليساعد فيتوجه الغزو.

ولم يكن في مقدور وليم أن يتخذ أي إجراء فوري. لأنه لم يكن على ثقة من شعبه. كما كان يخشى أن يجدد لويس الرابع عشر هجومه على هولندا في أية لحظة. وخشيت الولايات الألمانية كذلك مهاجمة فرنسا لها، ومع ذلك لم تبد هذه الولايات اعتراضاً على غزو وليم لإنجلترا، ولعلمها بأن الهدف الأسمى لوليم هو كبح جماح ملك البوربون. أما حكومتا آل هبسبرج في النمسا وأسبانيا فقد نسيتا كثلكيتهما في بغضهما للملك لويس الرابع عشر، وأقرتا خلع ملك كاثوليكي يصادق فرنسا بل أن البابا نفسه منح الحملة بركته ورضاءه السامي. ومن ثم أصبح بإذن من الدول لكاثوليكية أن يأخذ وليم البروتستانتي على عاتقه الإطاحة بجيمس الكاثوليكي. وتعجل لويس وجيمس كلاهما الغزو، وأعلن لويس أن روابط الصداقة والتحالف القائمة بين إنجلترا وفرنسا تحتم عليه أن يعلن الحرب على كل من يغزو وإنجلترا. ولكن جيمس الذي خشي أن يؤدي هذا البيان إلى توحيد صفوف رعاياه البروتستانت ضده بشكل أقوى، نفي وجود مثل هذا التحالف،ورفض مساعد فرنسا له. وانتصر غضب لويس الرابع عشر على استراتيجيته، فأمر جيوشه بمهاجمة ألمانيا، لا هولندة (٢٥ سبتمبر ١٦٨٨)، ووافقت الجمعية العمومية للمقاطعات المتحدة، التي حررت لبعض الوقت من الخوف من فرنسا، على أن يقود وليم حملة قد تؤدي بإنجلترا إلى الدخول في تحالف ضد فرنسا.

وفي ١٩ أكتوبر تحرك الأسطول -خمسين سفينة حربية،وخمسمائة سفينة نقل، وخمسمائة فارس، واحد عشر ألفاً من المشاة، بما فيهم عدد كبير من الهيجونوت اللاجئين من الاضطهاد في فرنسا. وصدت الرياح الأسطول، فانتظر حتى يهب نسيم بروتستانتي (مؤات)، وأقلع ثانية في أول نوفمبر.وخرج أسطول إنجليزي ليعترض سبيله، ولكن مزقته العاصفة.وفي ٥ نوفمبر، وهو عطلة وطنية احتفالاً بذكرى مؤامرة البارود ألقى الغزاة مراسيهم في توربay، وهو منفذ على المانش على شاطئ دورستشير. ولم يلق الغزاة أية مقاومة، ولكنهم كذلك لم يلقوا أي ترحيب. فأن الناس لم يكونوا قد نسوا جفريز وكيرك.

وأصدر جيمس أوامره إلى جيشه بالتجمع في سالسبوري تحت إمرة لورد جون تشرشل، ولحق الملك به هناك، ولكنه وجد القوات يعزوها الولاء والإخلاص، يخيم عليها الفتور إلى حد الارتياب في اشتراكهم في معركة، فأمر بالتقهقر، وفي تلك الليلة (٢٣ نوفمبر) انحاز لتشرشل واثنان من كبار الضباط فيجيش الملك إلى وليم مع أربعمائة رجل.وبعد ذلك بأيام قلائل انضم جورج الدنمركي، زوج الأميرة آن ابنة جيمس، إلى جماعة الخارجين على الملك،والذين يتزايد عددهم،ووجد الملك التعس، لدى عودته إلى لندن، أن ابنته آنوسارا جنجز زوجة تشرشل قد هربتا إلى نوتنجهام. وتحطمت روح الملك الذي كان يوماً مزهواً مختالاً، حين وجد أن ابنتيه كلتيهما قد انقلبتا ضده. فأوفد هاليفاكس للتفاوض مع وليم وفي ١١ ديسمبر غادر الملك نفسه عاصمة ملكه، ولما عاد هاليفاكس من الجبهة، وجد الأمة بلا رئيس ولا زعيم، فعمد جماعة من النبلاء إلى تنصيبه رئيساً لحكومة مؤقتة.

وفي يوم ١٣ تسلموا من جيمس رسالة تقول بأنه وقع في أيدي الأعداء، في فافرشام في كنت. فأنفذوا بعض القوات لإنقاذه، وفي يوم ١٦ عاد الملك الذليل إلى قصر هويتهول وأرسل وليم أثناء تقدمه نحو لندن، وبعض حراس هولنديين زودهم بتعليمات بأن يحملوا جيمس إلى روشستر، وهناك يسهلون له طريق الفرار. وقد كان، ووقع جيمس في الفخ الذي نصب له، وغادر إنجلترا إلى فرنسا (٢٣ ديسمبر).وعمر ثلاثة عشر عاماً بعد سقوطه، ولكنه لم ير إنجلترا ثانية قط. ووصل وليم إلى لندن في التاسع عشر من ديسمبر. واستغل انتصاره في حزم وحذر واعتدال ممتاز، ووضع حداً للشغب الذي آثاره البروتستانت في لندن وسلبوا فيه منازل الكاثوليك وأحرقوها. وبناء على طلب الحكومة المؤقتة، ودعا اللوردات والأساقفة وأعضاء البرلمان السابقين للاجتماع في كفونتري. وأعلن المؤتمر الذي أنعقد هناك في أول فبراير ١٦٨٩ أن جيمس اعتزل العرش بفراره. وعرض المجتمعون أن يتوجوا ماري ملكة، ويرتضوا وليم نائباً لها. فقبلا (١٣ فبراير).

ولكن المؤتمر قرن هذا العرض بإعلان الحقوق الذي سنه وأصدره البرلمان من جديد في ١٦ ديسمبر على أنه وثيقة الحقوق، وأصبح (بالرغم من عدم موافقة وليم عليه صراحة) جزءاً حيوياً أساسياً في قوانين المملكة: حيث أن الملك السابق جيمس الثاني.. سعى جهده أن يدمر ويستأصل العقيدة البروتستانتية وقوانين وحريات هذه المملكة من جذورها:

- بانتحاله لنفسه وممارسته سلطة التحلل من القوانين وإلغائها، أو تنفيذها دون موافقة البرلمان..
- بإنشاء محكمة خاصة بالقضايا الدينية.
- بجباية أموال من أجل الملك وليستخدمها هو، بحجة الامتيازات والحقوق الملكية، في غير الوقت ولغير الغرض اللذين أقرهما البرلمان.
- بتجنيد جيش ثابت والاحتفاظ به دون موافقة البرلمان.
- بإقامة الدعوى أمام محكمة الملك في مسائل وقضايا هي من اختصاص البرلمان وحده.

وكل هذا يتعارض تماماً، وبطريق مباشر، مع قوانين هذه المملكة وشرائعها المعروفة. ولما كانوا (أعضاء البرلمان-المجتمعون) على ثقة تامة من أن.. أمير أورانج.. سوف يحميهم من إهدار حقوقهم التي أثبتوها هنا، ومن أية محاولات أخرى للاعتداء على حقوقهم المدنية وحرياتهم، فإن اللوردات والآباء الروحيين والنواب المجتمعين في وستمنستر، يقررون أن يعينوا وليم وماري، أمير وأميرة أورانج، ملكاً وملكة على إنجلترا وفرنسا وإيرلندة، وأن يقسم اليمين المذكورة بعد، كل الأشخاص الذين يتطلب القانون منهم أن يقسموا يمين الولاء.. أقسم أنا (س من الناس) أن أمقت وأبغض وأنبذ من كل قلبي على أنها كفر وهرطقة، تلك النظرية الدنسة اللعينة.. التي تقول بأنه يجب أن يخلع أو يقتل، بيد رعاياه أو غيرهم أياً كانوا، كل أمير يصدر ضده البابا أو أية هيئة في المقر البابوي في روما، قراراً بالحرمان من الكنيسة أو من العرش.. كما أعلن أنه ليس، ولا ينبغي أن يكون. لأي حاكم أو فرد أو مطران أو دولة أو عاهل أجنبي، أية ولاية أو سلطة أو سيادة أو سلطان.. في هذه المملكة. أسألك العون على هذا يا رب.

وحيث ثبت بالتجربة أنه لا يتفق مع سلامة هذه المملكة ولا مع مصلحتها أن يحكمها أمير مناصر للبابا، أو ملك أو ملكة متزوجة من أحد أشياع البابا، فإن اللوردات والآباء الروحيين والنواب المذكورين يرجون فوق ذلك أن يسن تشريع يقضي بأن كل شخص أو أشخاص يذعنون أو سيذعنون للبابا أو الكنيسة في روما، أو تكون أو ستكون لهم علاقة بهما، أو سيدينون بالمذهب البابوي، أو يتزوجون من نصيرات البابا والمشيعات له، يجب استبعادهم وحرمانهم إلى الأبد من وراثة أو أملاك أو التمتع بتاج وحكومة هذه المملكة.

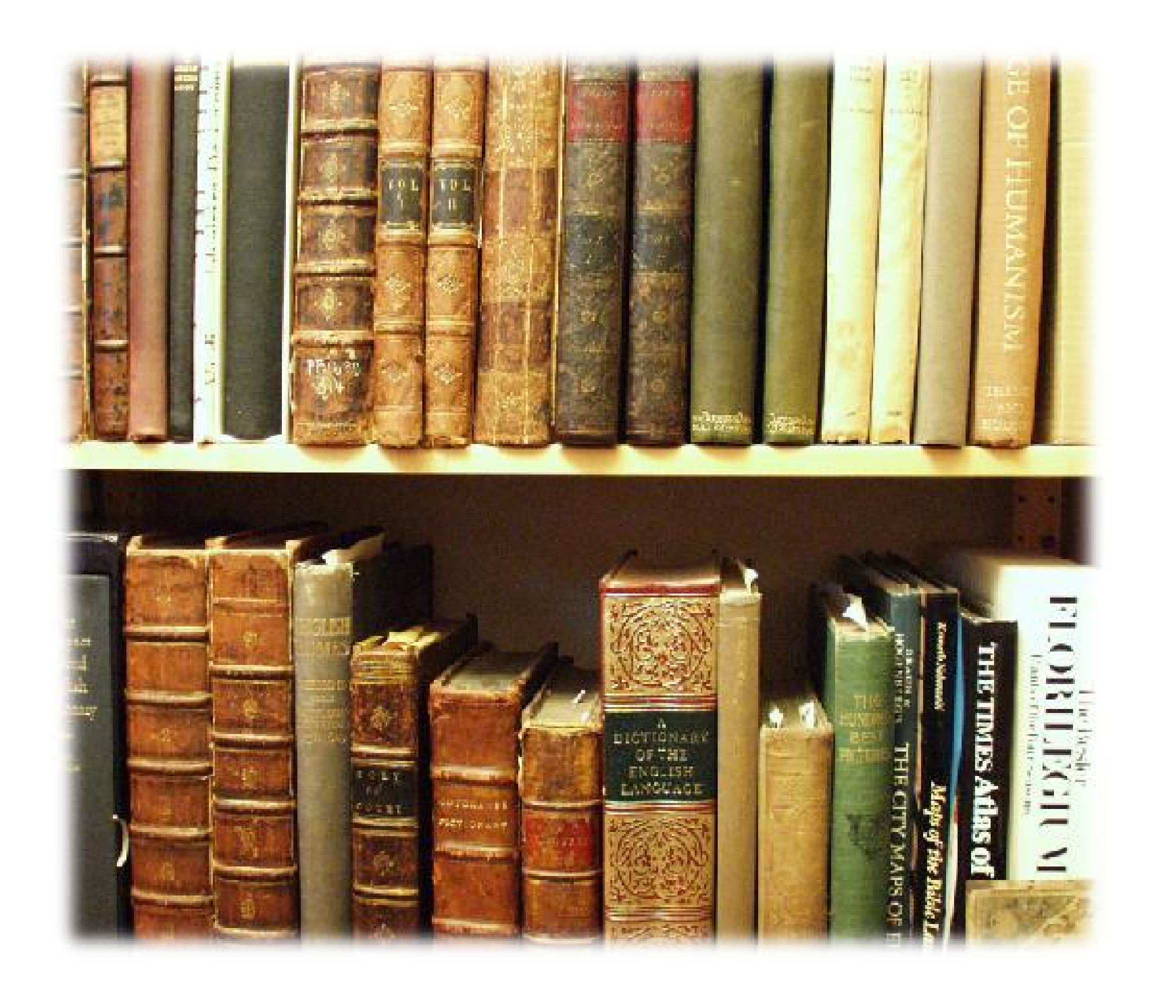
أن هذا الإعلان التاريخي عبر من النتائج الجوهرية لما أسمته إنجلترا البروتستانتية الثورة الجلية: وهي الاعتراف الصريح بالسيادة التشريعية للبرلمان، التي طالما نازع فيها أربعة ملوك من آل ستيوارت، وحماية المواطن ضد السلطة للتعسفية للحكومة، واستبعاد الكاثوليك من تولي عرش إنجلترا أو المشاركة فيه. ويلي هذه النتائج في الأهمية، وهو إدماج سلطة الحكومة في الأرستقراطية مالكة الأرض، لأن الثورة بدأها كبار النبلاء،وسار بها إلى غايتها صغار الملاك الممثلون في مجلس العموم.

وواقع الأمر أن الملكية المطلقة المتمسكة بحق الملك الإلهي تحولت إلى أوجاركية إقليمية أو ذات علاقة بالملكية الخاصة للأرض. وهي أوجاركية تميزت بالاعتدال والجد والبراعة في إدارة دفة الحكم، متعاونة مع ملوك الصناعة والتجارة والمال، كما أهملت بصفة عامة أمر الحرفيين والفلاحين. إن الطبقات المتوسطة العليا أفادت من الثورة بصورة فعلية. واستردت مدن إنجلترا حريتها، لتحكمها أوليجاركيات التجار المستغلين. أن تجار لندن الذين أحجموا من قبل عن مساعدة جيمس، أقرضوا وليم مائتي ألف جنيه فيما بين وصوله إلى العاصمة، وتسلمه اعتمادات البرلمان لأول مرة.

إن هذا القرض عزز اتفاقية غير مسطورة: فالتجار يتركون لملاك الأرض حكم إنجلترا، على توجه الأرستقراطية الحاكمة سياسة البلاد الخارجية نحو المصالح التجارية، وتحرر التجار أكثر فأكثر من النظم الرسمية. وثمة عناصر مخزية غير كريمة كانت في الثورة الجلية. فيما يبدو أنه مدعاة للأسف أن تضطر إنجلترا إلى استدعاء جيش من هولندا ليصلح من أخطاء الإنجليز أنفسهم، وأن تساعد الابنة على خلع أبيها عن عرشه، وأن ينحاز قائد جيشه إلى الغزاة،وأن تشارك الكنيسة الوطنية في الإطاحة بملك سبق لهذه الكنيسة أن بررت وقدست سلطته الإلهية المطلقة في وجه أية ثورة أو أي عصيان. كما كان مدعاة للأسف أن يكون تثبيت سيادة البرلمان على حساب مناهضة حرية العبادة. ولكن السيئات التي اقترفها هؤلاء الرجال والنساء طويت في الأحداث مع رفاتهم، أما حسنتاهم التي أدوها فقد بقيت بعدهم وآتت أكلها. أنهم حتى في إقامة الأوليجاركية وضعوا أسس ديموقراطية كان لا بد أن تنشأ مع توسيع القاعدة الانتخابية.

وجعلوا من دار الرجل الإنجليزي قلعته، آمناً نسبياً من عجرفة الحكم وأخطاء الظلم وأسهموا إلى حد ما في هذا التوفيق الذي يدعوا إلى الإعجاب بين لنظام والحرية، وهذا هو قوام الحكومة الإنجليزية اليوم.إنهم فعلوا هذا كله دون إراقة قطرة من الدم، اللهم إلا ما نزف من أنف الملك المنزعج المنهوك الأخرق الذي تخلى عنه الجميع في ساعة العسرة. (٤)

(٤) نقلاً عن: ول ديورانت، قصة الحضارة.- ص ١٠٩١٢ – ١٠٩٣١ (نسخة إلكترونية)



قائمة المصادر والمراجع

تم إعداد قائمة المصادر والمراجع وفق قواعد الفهرسة الأنجلو –أمريكية ، وتحتوي هذه القائمة على المصادر والمراجع العربية والأجنبية التي تم الاعتماد عليها في مقدمة الكتاب ، والمباحث ، والهوامش ، بالإضافة إلى مجموعة من المراجع والمقالات والمواقع الإلكترونية التي تتعلق بالموضوع محل الدراسة لتكن عوناً للقارئ المتخصص.

- المقالات والأبحاث والدراسات العربية (المطبوعة)
- المراجع العربية (المطبوعة)
- المراجع المشتركة (أكثر من مؤلف)
- المراجع المترجمة
- المصادر والمراجع والمقالات الأجنبية
- الموسوعات العربية
- المقالات والأبحاث والدراسات العربية (الإلكترونية)
- المراجع العربية (الإلكترونية)
- المصادر والمراجع والمقالات الأجنبية (الإلكترونية)
- المدونات والمواقع الإلكترونية
- الموسوعات العربية (الإلكترونية)

المقالات والأبحاث والدراسات العربية "المطبوعة"

١. أحمد محمد الأصبحي، مقال بعنوان "تأثير الثقافة العربية وإنجازاتها على الثقافات الأخرى".- صحيفة ٢٦ سبتمبر.- العدد ١١٦٧، الخميس ٢٣ ديسمبر- كانون الأول ٢٠٠٤. (صحيفة يمنية، أسبوعية، سياسية، عامة).
٢. أشرف صالح محمد سيد، مقال بعنوان " الأندلس المجد الزائل".- مجلة نسمات.- العدد الثاني ابريل ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.- القاهرة ٢٠٠٠.
٣. رأفت عبد الحميد،"السمو البابوي بين النظرية والتطبيق".- بحث منشور في مجلة ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط.- المجلد الثالث.- القاهرة ١٩٨٥.
٤. محمد حرب، الحملات الحربية في عهد سليمان القانونى.- مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.- ع٥٥-٥٦.- المدينة المنورة (١٩٨٢-١٩٨٣).
٥. مقال بعنوان "معرض لإحياء ذكرى خروج العرب والمسلمين من غرناطة".- صحيفة "الشرق الأوسط".- العدد ١١٠٤٠، الأربعاء ٢٣ صفر ١٤٣٠ هـ ١٨ فبراير ٢٠٠٩.

المقالات والأبحاث والدراسات العربية "الإلكترونية"

١. أحمد ترك، الدولة العثمانية: تاريخ وإنجازات.- شبكة الدكتور رأفت عثمان.- متاح بتاريخ ١٨ أبريل ٢٠٠٩ على الرابط: (http://www.rafatosman.com/vb/t167434.html)
٢. أحمد تمام، مقال بعنوان "أحمد باشا كوبريلي وإعادة أمجاد الدولة العثمانية".- إسلام أون لاين.- متاح بتاريخ ١٢ أبريل ٢٠٠٩ على الرابط: (http://www.islamonline.net/Arabic/history/1422/08/article15.shtml)
٣. الأستاذ زينو، النهضة الأوربية.- متاح بتاريخ ١٠ مارس ٢٠٠٩ على الرابط:(http://www.madariss.fr/HG/1ere/zino/h2.htm#d)
٤. أشرف صالح، مقال بعنوان " القسطنطينية:عاصمة الإمبراطورية الرومانية وعاصمة الدولة البيزنطية".- مجلة العرب (الكترونية- أسبوعية- شاملة): دراسات وبحوث.- متاح بتاريخ ٢٨/ ٤/ ٢٠٠٨ على الرابط: (http://arabmag.blogspot.com/search/label/Edu)
٥. بكر بن محمد برناوي، مقال بعنوان "المفهوم المتحفي في العالم العربي".- مجلة الثقافة العربية: مجلة شهرية.- العدد (٣٨٧) إبريل ٢٠٠٩ م.- متاح بتاريخ ٢٥/ ٤/ ٢٠٠٩على الرابط:(http://www.arabicmagazine.com/ArtDetails.aspx?id=468)
٦. خالد أبو بكر، مقال بعنوان "اكتشاف أمريكا.. مراحل ورجال وآثار".- إسلام أون لاين.- متاح بتاريخ ٢٠ أبريل ٢٠٠٩ على الرابط: (http://www.islamonline.net/Arabic/history/1422/03/article07.SHTML)

٧. خالد عبد العزيز الفرج، بحث بعنوان "تحول الفكر في أوروبا".- متاح بتاريخ ١٠أبريل٢٠٠٩ على الرابط: (www.cba.edu.kw/hasan/EuropeIdeology.doc)

٨. خليف مصطفى غرايبة، "الرحلات الجغرافية في التراث العربي الإسلامي في القرنين الرابع والخامس الهجريين".- دورية كان التاريخية.- العدد الثالث، مارس ٢٠٠٩.(www.historicalkan.co.nr)

٩. سامي الشيخ محمد، مقال بعنوان "حركة الإصلاح البروتستانتي" لوثر ، زونجلي ، كالفن.- دنيا الرأي: كتب ودراسات.- متاح بتاريخ ٨ يناير ٢٠٠٦ على الرابط:(http://pulpit.alwatanvoice.com/content-35520.html)

١٠. سعود الزيتون الخالدي ،"المقاومة الخليجية ضد التنصير".- مجلة الواحة .- العدد الثامن.- متاح بتاريخ ٢٦ ابريل ٢٠٠٩ على الرابط: (http://195.173.191.171/issue8/is08sb13.htm)

١١. شمس الدين الكيلاني، مقال بعنوان "تلمّس ابن خلدون للنهضة الأوروبية".- موقع مرافئ: صفحة دراسات في المجتمع المدني.- متاح بتاريخ ديسمبر ٢٠٠٢على الرابط: (http://www.marafea.org/paper.php?source=akbar&mlf=copy&sid=17677)

١٢. الشيخ التيجاني ندوي، مقال بعنوان "الإسلام في ظل المستعمرات الفرنسية في غرب أفريقيا"، مجلة الأمة، العدد(٤٩)، المجلد الخامس ١٤٠٥هجرية؛ متاح بمجلة الفسطاط التاريخية بتاريخ ٣٠/ ١٢/ ٢٠٠٨ على الرابط: (http://www.fustat.com/C_hist/w_africa.shtml)

١٣. عبد الجليل شلبي، مقال بعنوان "حضارة العرب في صقلية وأثرها في النهضة الأوروبية" منشور بمجلة الأمة، العدد ٢٧، ربيع الأول ١٤٠٣هـ ؛ ومتاح بالفسطاط: المجلة التاريخية بتاريخ ٨ يناير ٢٠٠٩ على الرابط: (http://www.fustat.com/I_hist/sicily.shtml).

١٤. عبد الرحمن كيلاني، مقال بعنوان "لمحة تاريخية عن الدولة العبيدية".- الفسطاط: المجلة التاريخية.- متاح بتاريخ ٨ يناير ٢٠٠٩ على الرابط (http://www.fustat.com/I_hist/ubaidiyah.shtml)

١٥. علي النشمي، مقال بعنوان "أثر الإسراء والمعراج في النهضة الأوربية".- جريدة الصباح: يومية-سياسية-عامة.- تصدر عن شبكة الإعلام العراقي.- متاح بتاريخ ٢٠ أبريل ٢٠٠٩ على الرابط:(http://www.alsabaah.com/paper.php?source=akbar&mlf=interpage&sid=3175)

١٦. عماد البحراني، دراسة بعنوان "فتح القسطنطينية في عهد السلطان محمد الفاتح ١٤٥٣".- دورية كان التاريخية.- العدد الثالث، مارس ٢٠٠٩. (www.historicalkan.co.nr).

١٧. غانم العبد الله،"حركة الكشوف الجغرافية والاستعمار الأوروبي".- مدونة هاتف من الصحراء (الكويت).- متاح بتاريخ ٢٩/ ٢/ ٢٠٠٨ على الرابط: (http://gdm-85.maktoobblog.com)

١٨. القس حنا جرجس الخضري، المصلح مارتن لوثر حياته وتعاليمه: بحث تاريخي عقائدي لاهوتي.- دار الثقافة: القاهرة.- متاح بتاريخ ١١ مارس ٢٠٠٩ على الموقع العربي الأول والوحيد عن المصلح مارتن لوثر: (http://www.lutherinarabic.org)

١٩. مجدي إبراهيم محرم، مقال بعنوان "وفاء سلطان بين الضلال والإضلال ".- جريدة شباب مصر.- منشور بتاريخ ١٧ أغسطس ٢٠٠٥ على الرابط:
(http://shbabmisr.com/?xpage=view&EgyxpID=931)

٢٠. محمد خليفة، مقال بعنوان "أوروبا من الإمبراطورية البرتغالية إلى المجهول".- جريدة إيلاف (لندن).- بتاريخ ١٢ يونيو ٢٠٠٥ على الرابط:
(http://www.elaph.com/ElaphWeb/NewsPapers/2005/6/68679.htm)

٢١. محمود بيومي، مقال بعنوان "المسلمون في الفلبين".- متاح بتاريخ ٢٥مارس٢٠٠٩ على الرابط:(www.al-mahmoud.net/pro1/art/wrd/27145)

٢٢. محمود شاكر، مقال بعنوان "المنطلق الأساسي في التاريخ الإسلامي": خطبة طارق بن زياد، الفسطاط: المجلة التاريخية.- متاح بتاريخ ٨ يناير ٢٠٠٩ على الرابط:(http://www.fustat.com/I_hist/muntalaq.shtml)

٢٣. محمود مسعود، مقال بعنوان" مارتن لوثر: المتهم البريء والمصلح الجريء".- السويداء نت.-متاح بتاريخ ٣يناير ٢٠٠٩ على الرابط:
(http://www.swaidanet.com/modules.php?name=News&file=article&sid=495)

٢٤. مشروع "لا أصل لمن ليس له تاريخ": نتائج الكشوف الجغرافية.- متاح بتاريخ ٣٠ أبريل ٢٠٠٩ على الرابط: (http://www.history11.jeeran.com)

٢٥. المطران داود حداد، "حركة الإصلاح الديني في ألمانيا": مارتن لوثر/ القسم الرابع/الفصل الثامن.- متاح بتاريخ ١٠ مارس ٢٠٠٩ على الموقع العربي الأول والوحيد عن المصلح مارتن لوثر:(http://www.lutherinarabic.org)

٢٦. مقال بعنوان "الثورة الإنجليزية".- متاح بتاريخ ٦ مايو ٢٠٠٩ على الرابط:(http://ghoroubnet.jeun.fr)

٢٧. مقال بعنوان "العثمانيون في وسط أوربا".- إسلام أون لاين.نت/ ثقافة وفن.- متاح بتاريخ أول يناير ٢٠٠٠ على الرابط: (http://www.islamonline.net/servlet/Satellite?c=ArticleA)

٢٨. مقال بعنوان "أوربا وحركة الكشوف الجغرافية".- المنتدى العلمي الثقافي.- متاح بتاريخ ١١ مارس ٢٠٠٧ على الرابط: (http://www.3rbsc.com/vb/showthread.php?t=490)

٢٩. مقال بعنوان "أوروبا لا تدين بتطورها للمسلمين"، شبكة الإعلام العربية.- متاح بتاريخ ٢٦ أبريل ٢٠٠٨ على الرابط: (http://www.moheet.com/show_news.aspx)

٣٠. مقال بعنوان "حركة الكشوف الجغرافية"، الشبكة الوطنية الكويتية.- متاح بتاريخ ٢٣ فبراير ٢٠٠٨ على الرابط:
(http://www.nationalkuwait.com/vb/archive/index.php/t-21272.html)

٣١. منصور الجمري، دراسة بعنوان"مقدمات في الفكر السياسي الأوربي".- مجلة ديوان العرب.- منشور بتاريخ ١٩ يونيو ٢٠٠٦ على الرابط:
(http://www.diwanalarab.com/spip.php?article4823)

٣٢. ناجح العبيدي، "حرب الثلاثين عاماً وإضعاف القيصرية"، ضمن تاريخ ألمانيا: من شارلمان الكبير إلى صعود بروسيا (الحلقة ١).- مؤسسة دويتشه فيله (DW).- متاح بتاريخ ١٠ يونيو ٢٠٠٧ على الرابط: (http://www.dw-world.org/dw/article/0,,2375000,00.html)

٣٣. يواقيم رزق مرقص، محاضرات في تاريخ الكنيسة الغربية: مارتن لوثر.- متاح بتاريخ ٦ مارس ٢٠٠٩ على الرابط:
(http://st-takla.org/Coptic-History/005-History-of-The-Western-Churches.html)

المراجع العربية "المطبوعة"

١. أحمد رمضان أحمد، الرحلة والرحالة المسلمون، جدة.- دار البيان العربي (بدون تاريخ).

٢. أحمد علي الملا، أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوربية.- الطبعة الثانية .- دمشق: دار الفكر، ١٩٨١.

٣. إسماعيل أحمد ياغي، الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث.- الطبعة الثانية.- الرياض: مكتبة العبيكان، ١٩٩٨.

٤. أيمن أبو الروس، الكشوف الجغرافية: القصص المثيرة لاكتشاف القارات والأراضي المجهولة.- القاهرة: دار الطلائع، ٢٠٠٣. (١١٢ صفحة)

٥. توفيق الطويل، الحضارة الإسلامية والحضارة الأوربية: دراسة مقارنة.- القاهرة: مكتبه التراث الإسلامي، ١٩٩٠.

٦. جاد طه، محاضرات في تاريخ أوربا الحديث.- القاهرة: كلية الآداب - جامعة عين شمس، ١٩٩٧. (غير منشورة، ٤٠٣ صفحة)

٧. حسين مؤنس، تاريخ الجغرافيا والجغرافيين في الأندلس.- القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٨٦.

٨. حنا جرجس الخضري، المصلح مارتن لوثر: حياته وتعاليمه.- القاهرة: دار الثقافة، (بدون تاريخ).

٩. حنا جرجس الخضري، تاريخ الفكر المسيحي.- القاهرة: دار الثقافة، (بدون تاريخ).

١٠. حنا جرجس الخضري، جون كلفن: حياته وتعاليمه (١٥٠٩-١٥٦٤م)._ القاهرة: دار الثقافة، ١٩٨٩. (٢٦٥ صفحة)

١١. رأفت عبد الحميد ،الفكر السياسي الأوربي في العصور الوسطى.- الطبعة الأولى.- القاهرة: دار قباء للطباعة والنشر ٢٠٠١.

١٢. زاهر رياض، الاستعمار الأوربي لأفريقيا في العصر الحديث.- القاهرة : مكتبه الجامعة،١٩٦٠.

١٣. زينب عصمت راشد، تاريخ أوروبا الحديث، القاهرة.- دار الفكر العربي، ١٩٩٨.

١٤. سعود بن عبد العزيز الخلف، دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية.- الطبعة الأولى.- الرياض: مكتبة أضواء السلف، ١٩٩٧.

١٥. سيمون الحايك، والعرب شاركوا في الاكتشاف: أو كريستوف كولومبوس.- جونيه: المطبعة البولسية،١٩٩١. (٣٠٨ صفحة)

١٦. شوقي عطا الله الجمل، تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها.- الطبعة الثانية.- القاهرة : مكتبة الأنجلو، ١٩٨٠.

١٧. عبد الحميد البطريق، التيارات السياسية المعاصرة (١٨١٥ - ١٩٦٠).- القاهرة: دار النهضة العربية، ١٩٧٤.

١٨. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، التاريخ الأوروبي الحديث والمعاصر.- القاهرة، ١٩٨٦.

١٩. عبد العزيز محمد الشناوي، أوروبا في مطلع العصور الحديثة.- الطبعة الرابعة.- القاهرة: مكتبة الأنجلو، ١٩٨٢. (الجزء الأول)

٢٠. عبد الفتاح حسن أبو علية، تاريخ الأمريكتين.- الطبعة الثالثة.- الرياض: دار المريخ للنشر، ٢٠٠٧. (الفصل الأول: الكشوف الجغرافية الأوربية في الأمريكتين)

٢١. عبد الفتاح حسن أبو علية، تاريخ أوروبا وأمريكا الحديث.- الرياض: دار المريخ ،١٩٧٩.

٢٢. عبد الفتاح مصطفى غنيمة، المتاحف والمعارض والقصور: وسائل تعليمية.- المنوفية: كلية الآداب—جامعة المنوفية، ١٩٩٠. (سلسلة المعرفة الحضارية، ٢).

٢٣. عبد الفتاح مصطفى غنيمة، نحو فلسفة السياسة: النظم والنظريات والمذاهب السياسية: أصولها وتطورها التاريخي.- ١٩٨٩.

٢٤. عزلو يوسف بك أصاف، تاريخ سلاطين بني عثمان: من أول نشأتهم حتى الآن/ تقديم محمد زينهم.- الطبعة الأولى.- القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٩٥.

٢٥. علي محمد الصلابي، الدولة العثمانية: عوامل النهوض وأسباب السقوط.- الطبعة الأولى.- بيروت: دار البيارق، ١٩٩٩.

٢٦. فتحي علي يونس، أثر العرب والمسلمين في الحضارة الأوربية.- الطبعة الأولى.- القاهرة: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ١٩٩٦. (الكتب الثقافية للراشدين، ٢٧)

٢٧. لبيب مشرقي، حديث مع جون كلفن.- القاهرة: دار نوبار،(بدون تاريخ).

٢٨. لويس عوض، ثورة الفكر في عصر النهضة الأوربية.- الطبعة الأولى.- القاهرة: مركز الأهرام للترجمة والنشر، ١٩٨٧.

٢٩. محمد عوض محمد، الاستعمار والمذاهب الاستعمارية.- الطبعة الأولى.- القاهرة: مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٥٣.

٣٠. محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية العثمانية / تحقيق إحسان حقي.- الطبعة الأولى.- بيروت: دار النفائس، ١٩٨١.

٣١. محمد مخزوم، مدخل لدراسة التاريخ الأوروبي (عصر النهضة).– الطبعة الأولى.– بيروت: دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨٣. (٣٦٠ صفحة)
٣٢. محمود شاكر، الكشوف الجغرافية: دوافعها– حقيقتها.– المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، ١٩٨٨.(٦٨ صفحة).
٣٣. مرقس البراموسى، محاضرة بعنوان"انشقاق الكنيسة وظهور الطوائف"، دراسات صيف ٢٠٠٧ / المحاضرة الثانية، الإسكندرية : بطريركية الأقباط الأرثوذكس ٢٠٠٧.
٣٤. ميلاد القرحي، تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر من عصر النهضة إلى الحرب العالمية الثانية.– الطبعة الثانية.– طرابلس: جامعة قاريونس، ١٩٩٥.
٣٥. نور الدين حاطوم، تاريخ عصر النهضة الأوربية.– بيروت: دار الفكر الحديث، ١٩٦٨.
٣٦. يسري عبد الرازق الجوهري، الكشوف الجغرافية : دراسة لتاريخ الكشوف الجغرافية ولتطور التفكير الجغرافي.– القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٥.
٣٧. يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط.– القاهرة: دار المعارف،١٩٦٥.
٣٨. عباس محمود العقاد، أثر العرب في الحضارة الأوربية.– الطبعة الثانية.– القاهرة: دار نهضة مصر للطباعة والنشر، ١٩٩٨. (الأعمال الفكرية، مشروع مكتبة الأسرة)

المراجع العربية (الإلكترونية)

١. أشرف صالح محمد سيد، قراءة في تاريخ وحضارة أوربا العصور الوسطى.– الطبعة الالكترونية الأولى .– بيروت: شركة الكتاب الإلكتروني العربي، ٢٠٠٨. (سلسلة المؤرخ الصغير، ٤).
عبارة عن كتاب جيب يتضمن أحدث المعلومات الموثقة عن ألمانيا، كُتاب وكاتبات معروفون يتحدثون في عشرة أجزاء، عن مختلف نواحي الحياة المعاصرة في ألمانيا، من الاقتصاد إلى الثقافة، بالإضافة إلى أرقام وحقائق، مع رسوم بيانية ممتعة لتطوراتها الزمنية.
٢. كتاب حقائق عن ألمانيا: عشرة أجزاء.– متاح بتاريخ ١٦/ ٤/ ٢٠٠٩ على الرابط: (http://www.tatsachen-ueber-deutschland.de/ar/home1.html).
٣. نبيل عبد الحميد، محاضرات في تاريخ إنجلترا الحديث والمعاصر.– دمياط: كلية آداب دمياط، (منشورة بالموسوعة الحرة: ويكيبيديا http://ar.wikipedia.org)
٤. ويل ديورانت، قصة الحضارة: ماجلان وكشف الأرض .– متاح بتاريخ ٢٤ أبريل ٢٠٠٩ على الرابط: (http://islamport.com/w/amm/Web/2482/10096.htm)

المراجع المشتركة "أكثر من مؤلف"

١. أحمد عبد الرحيم مصطفى، محمد أحمد حسونة، أصول العالم الحديث.- القاهرة: مطبعة جريدة الصباح، ١٩٥٨.
٢. أحمد يوسف، محمد زبارة ، مقدمة في العلاقات الدولية.- القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٨٩.
٣. إسماعيل ياغي، عبد الفتاح أبو عُليه، تاريخ أوربا الحديث والمعاصر.- الرياض: دار المريخ للنشر، ١٩٨٤.
٤. جلال يحيى، جاد طه، معالم التاريخ الأوربي الحديث: دراسة لتطور الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية في القارة الأوربية وعلاقاتها مع العالم.- الإسكندرية: منشأة المعارف، ١٩٧٤.
٥. شوقي أبو خليل، هاني المبارك، دور الحضارة العربية الإسلامية في النهضة الأوربية.- الطبعة الأولى.- دمشق: دار الفكر، ١٩٩٦.
٦. شوقي عطا الله الجمل، عبد الله عبد الرازق إبراهيم، تاريخ أوروبا من النهضة حتى الحرب الباردة.- القاهرة: المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، ٢٠٠٠.
٧. عبد الحميد البطريق، عبد العزيز نوار، التاريخ الأوربي الحديث من عصر النهضة إلى مؤتمر فيينا.- القاهرة: دار النهضة العربية، ١٩٧٤.
٨. عبد العزيز سليمان نوار، عبد المجيد نعنعي، التاريخ المعاصر: أوروبا من الثورة الفرنسية إلى الحرب العالمية.- دار النهضة العربية للطباعة والنشر، ٢٠٠٤.
٩. عبد العزيز سليمان نوار، محمود محمد جمال الدين، التاريخ الأوروبي الحديث من عصر النهضة إلى الحرب العالمية الأولى.- القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٩٩.
١٠. عبد العزيز سليمان نوار، محمود محمد جمال الدين، التاريخ الأوروبي الحديث من عصر النهضة إلى الحرب العالمية الأولى.- القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٩٩.
١١. مجموعة باحثين، أثر العرب والإسلام في النهضة الأوربية/ دراسة بإشراف مركز تبادل القيم الثقافية بالتعاون مع منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (يونسكو).- القاهرة: الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٩٧٠. (٤٦٦ صفحة)
١٢. محمد أنيس، محمد فوزي شكري، أوربا في العصور الحديثة.- الطبعة الأولى.- القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٥٧. (الجزء الأول)

المراجع المترجمة

١. آن جرانت ، هارولد تمبرلي، أوربا في القرنين التاسع عشر والعشرين (١٧٨٩-١٩٥٠)/ ترجمة بهاء فهمي ، أحمد عزت عبد الكريم.- القاهرة ، ١٩٨٥.

٢. بيير رنوفان، تاريخ العلاقات الدولية :أزمات القرن العشرين (١٩١٤ – ١٩٤٥)/ تعريب جلال يحيى.- القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٠.

٣. بيير رنوفان، تاريخ العلاقات الدولية :القرن التاسع عشر (١٨١٥-١٩١٤)/ ترجمة جلال يحيى.- القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٨.

٤. ج.ج. كولستون، عالم العصور الوسطى/ ترجمة جوزيف نسيم.- الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٨٣.

٥. جفري برون، تاريخ أوربا الحديث/ ترجمة علي المزروقي .- الطبعة الأولى.- عمان: الأهلية للنشر والتوزيع، ٢٠٠٦. (٥٩٦ صفحة)

٦. جورج هارب، الموجز في تاريخ الكشف الجغرافي/ تعريب عبد العزيز طريح.- الإسكندرية: مؤسسة الثقافية الجامعية، ١٩٩٣.

٧. جون هامرتن ، تاريخ العالم/ ترجمه إدارة الترجمة بوزارة المعارف.- القاهرة، (بدون تاريخ).

٨. جيمس وستفال تومسون، وآخرون، حضارة عصر النهضة/ ترجمة عبد الرحمن زكى.- القاهرة: دار النهضة العربية، ١٩٦١.

٩. دانتي أليجييرى، الكوميديا الإلهية/ ترجمة وتقديم حسن عثمان.- الطبعة الأولى.- القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١. (مكتبة الأسرة – أمهات الكتب).

١٠. روبرت بالمر، تاريخ العالم الحديث/ الجزء الأول: ترجمة محمود أمين؛ الجزء الثاني: ترجمة حسن علي ذنون.- بغداد: مكتبة دار المتنبي، ١٩٦٤.

١١. رولان موسنييه، تاريخ الحضارات العام/ تعريب يوسف أسعد داغر وفريد م. داغر.- الطبعة الأولى.- بيروت : منشورات عويدات، ١٩٦٩. (الجزء الرابع: القرنان السادس عشر والسابع عشر: التحول الفكري العظيم الذي طرأ علي البشرية طلوع الحركة العلمية الحديثة سيطرة أوروبا).

١٢. شارل أندرى جوليان، تاريخ أفريقيا / ترجمه طلعت عوضي أباظة، مراجعة عبد المنعم ماجد.- القاهرة : دار نهضة مصر، ١٩٦٨.

١٣. شارل اندرى جوليان، تاريخ أفريقيا/ ترجمة طلعت عوضي أباظة؛ مراجعة عبد المنعم ماجد.- القاهرة : دار نهضة مصر، ١٩٦٨. (١٦٧صفحة)

١٤. غوستاف لوبون، روح الثورات والثورة الفرنسية/ ترجمة محمد عادل زعيتر.- القاهرة: المطبعة العصرية، ١٩٣٤. (١٨٣ صفحة)

١٥. ك.م.بنيكار، آسيا والسيطرة الغربية/ ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد.- القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٢.
١٦. كريت، برنتون، منشأ الفكر الحديث / ترجمة د.عبد الرحمن مراد.- دمشق: مطبعة مفيد الجديدة، د.ت.
١٧. محمود كامل الناقة، دور الفكر العربي في النهضة العلمية الحديثة/ ترجمة شكري عباس حلمي.- القاهرة: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ١٩٩٦. (الكتب الثقافية للراشدين، ٩)
١٨. ميرل دوبينياه، تاريخ الإصلاح في القرن السادس عشر/ ترجمة الشيخ إبراهيم الحوراني.- الطبعة الثانية .- بيروت: منشورات مكتبة المشعل بإشراف رابطة الكنائس الإنجيلية في الشرق الأوسط، ١٨٧٨.
١٩. هـ.جـ.ويلز، موجز تاريخ العالم / تعريب عبد العزيز توفيق جاويد.- القاهرة: مطبعة السعادة، (بدون تاريخ).
٢٠. هاري إيبرتس، مصلح في المنفى جوف كلفن: موجز عن حياته ومبادئه/ ترجمة وليم وهبة بباوي.
٢١. هاينكه زودهوف، معذرةً كولومبوس: لست أول مَن اكتشف أمريكا / تعريب حسين عمران.- الطبعة الأولى.- الرياض: مكتبة العبيكان، ٢٠٠١. (٣١٢ صفحة)
٢٢. هربرت ا. ل. فيشر، أصول التاريخ الأوربي الحديث من النهضة الأوربية إلى الثورة الفرنسية / ترجمه زينب راشد، أحمد عبد الرحيم مصطفى.- القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٥.
٢٣. هربرت ا. ل. فيشر، تاريخ أوربا الحديث/ تعريب أحمد نجيب هاشم، وديع الضبع.- القاهرة: دار المعارف، ١٩٥٨.
٢٤. يوميات رحلة فاسكو داجاما وتقرير رحلة دوز سانتوس/ ترجمة ودراسة عبد الرحمن عبد الله الشيخ.- الطبعة الأولى.- القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٥. (١١٥ صفحة)، (الألف كتاب الثاني؛ ١٧٠).

الندوات والمؤتمرات

١.شوقي ضيف، محاضرة بعنوان "تأثير الثقافة العربية في الثقافة الغربية الحديثة".- مؤتمر مجمع اللغة العربية: الدورة الثامنة والستين.- القاهرة، مارس ٢٠٠٢.
ألقيت هذه المحاضرة في الجلسة الثانية لمؤتمر مجمع اللغة العربية في دورته الثامنة والستين مساء يوم الاثنين ١١ محرم سنة ١٤٢٣هـ الموافق ٢٥ من مارس (آذار) سنة ٢٠٠٢م.
٢.عبد العزيز بن عثمان التويجري، بحث بعنوان "أثر الثقافة العربية في النهضة الأوربية".- ندوة الثقافة العربية والثقافات الأخرى.- الرياض، مارس ١٩٩٨.
ندوة "الثقافة العربية" في إطار المهرجان الوطني للتراث والثقافة في السعودية الفترة ما بين ٤ - ١٩ مارس ١٩٩٨م.

المصادر والمراجع والمقالات الأجنبية "المطبوعة"

1. **Althaus Paul**, The Ethics of Martin Luther / Translated by Robert C. Schultz.- Philadelphia: Fortress Press, 1972.
2. **Bernard Guillemain**, Les papes d'Avignon (1309-1376).- du Cerf, Paris, 2000.
3. **CAROCCIOLI and BROMATO**; VON RANKE, Hist. of the Popes in the XVI-XVIII Centuries; REUMONT, Gesch. der Stadt Rom; ARTAUD DE MONTOR, New York, 1867.
4. **CHARLES AUGUSTUS BRIGGS**, History of the Study of Theology.-NEW YORK: CHARLES SCRIBNER'S SONS, 1916. (2 volume).
5. **Charles de Tolnay**, Michel-Ange, Flammarion, 1970.
6. **Charles Sala**, Michel-Ange : Sculpteur, peintre, architecte.- Pierre Terrail, 2001.
7. **Clifford J. Rogers**, Readings on the Military Transformation of Early Modern Europe.- San Francisco :Westview Press, 1995.
8. **Daniel Arasse**, Leonardo da Vinci.- Konecky & Konecky, 1997.
9. **Frances Wood**, Did Marco Polo Go to China?.- Westview Press, 1995.
10. **G.R. Evans**, Law and Theology in the Middle Ages.-London: Taylor & Francis, 2001.(272 pages).
11. **Gerhard Ebeling**, Luther: An Introduction to His Thought/ Translated by R. A. Wilson.- Philadelphia: Fortress Press, 1970.
12. **Glenn J. Ames**, The Globe Encompassed: The Age of European Discovery (1500-1700).- University of Toledo: Prentice Hall Copyright, 2008.
13. **Justo L. González**, The History of Christianity, Volume I: "The Early Church to the Dawn of the Reformation".- San Francisco: Harper, 1984.
14. **Henry Yule**, The Travels of Marco Polo.- New York :Dover Publications , 1983.
15. **Henry H. Hart**, Marco Polo: Venetian Adventurer.- University of Oklahoma Press, 1967.
16. **J. P. Oliveira Martins**, The golden age of Prince Henry the Navigator.- London: Chapman and Hall. 1914.
17. **Jack Wasserman**, Leonardo da Vinci.- Abrams, 1975.
18. **Jesse Couenhoven**, Grace as Pardon and Power: Pictures of the Christian Life in Luther, Calvin, and Barth.- The Journal of Religious Ethics, Vol. 28, No. 1.- Blackwell Publishing: (Spring, 2000).
19. **John Calvin**, Institutes Of The Christian Religion/ Translated by Henry Bevridge, WM.B. Eerdmans.- Michigan : Publishing Company, Grand Rapids, 1995.
20. **John Dillenberger**, Martin Luther: Selections from His Writings.- New York: Doubleday, 1951.
21. **John Larner**, Marco Polo and the Discovery of the World.- Yale University Press, 1999.
22. **R.J. Knecht**, Renaissance Warrior and Patron: The Reign of Francis I. Cambridge: Cambridge University Press, 1994.
23. **Laurence Bergreen**, Marco Polo, Alfred A. Knopf.- New York, 2007.
24. **Liana Bortolon**, The Life and Times of Leonardo.-London: Paul Hamlyn , 1967.

25. **Linda Murray**, Michel-Ange.-London: Thames & Hudson, 2003.
26. **Mackinnon Vide**, Luther & The Reformation.- London: Longmans ,Green Co. 1929. (Vol. III)
27. **Marco Polo**, Travels in the Land of Kubilai Khan.- Penguin Books, 2005.
28. **Myron P. Gutmann**, "The Origins of the Thirty Years' War".- Journal of Interdisciplinary History, Vol. 18, No. 4. (Spring, 1988).
29. **Paul**, "What is Anglicanism?": in The Study of Anglicanism, ed. S. Sykes and J. Booty (London: SPCK,1988).
30. **Peter E. Russell**, Prince Henry "the Navigator": a life.- New Haven: Yale University Press, 2000.
31. **R.H Bainton**, The Age of the Reformation.- New York: Van Noster and Company Inc .Princeton, 1965.
32. **Richard Henry Major**, The discoveries of Prince Henry, the Navigator, and their results.- London: Sampson, 1877.
33. **Robert Bideleux**, Ian Jeffries, A History of Eastern Europe: Crisis and Change.- New York: Routledge, 1998.
34. **Russell-Wood, A.J.R.**- The Portuguese Empire 1415-1825.- John Hopkins: University Press, 1998.
35. **Desmond. Seward**, François I: Prince of the Renaissance.- New York: MacMillan Publishing Co., 1973.
36. **Michel Simonin**, Dictionnaire des lettres françaises - Le XVIe siècle. Paris: Fayard, 2001.
37. **Sonia M. Zaide**, The Philippines: A Unique Nation.- Philippines : All Nations Publishing Co, 1994.
38. **Edward Dwight Salmon**, Imperial Spain: The Rise of the Empire and the Dawn of Modern Sea-power.- Greenwood Press ,1971.
39. **Edward John Payne**, History of the New World Called America.-Oxford: Clarendon Press, 1899.
40. **David Ogg**, Europe in the Seventeenth Century.- Oxford: Adam & Charles Black, 1954.

المصادر والمراجع والمقالات الأجنبية "الإلكترونية"

1. "**The Death of Magellan 1521**", Eye Witness to History.- available in march 2001 at: (http://www.eyewitnesstohistory.com/magellan.htm).
2. "**historical overview of the inquisition**".- available in 5 December 2008 at: (http://galileo.rice.edu/lib/student_work/trial96/loftis/overview.html)
3. "**Pope Paul IV Biography**", in Biography Base, Available in 20 March 2009 at: (http://www.biographybase.com/biography/Paul_IV_Pope.html)
4. "**The Twelve Articles of the Black Forest**", available in 16 April 2009, at: (http://en.wikipedia.org/wiki/Twelve_Articles_of_the_Black_Forest)
5. "**Thirty Years' War - Casualties and disease**".- available in 20 January 2009 at: (http://www.experiencefestival.com/a/Thirty_Years_War/id/385103).
6. "**Thirty Years' War - Danish intervention**".- available in 20 January 2009 at: (http://www.experiencefestival.com/a/Thirty_Years_War/id/385103).
7. "**Thirty Years' War - Political consequences**".- available in 20 January 2009 at: (http://www.experiencefestival.com/a/Thirty_Years_War/id/385103).

8. “**Thirty Years' War - Swedish intervention**”.- available in 20 January 2009 at: (http://www.experiencefestival.com/a/Thirty_Years_War/id/385103)
9. “**Thirty Years' War - Swedish-French intervention**”.- available in 20 January 2009 at: (http://www.experiencefestival.com/a/Thirty_Years_War/id/385103).
10. “**Thirty Years' War - Swedish-French intervention**”.- available in 20 January 2009 at: (http://www.experiencefestival.com/a/Thirty_Years_War/id/385103).
11. “**Thirty Years' War - The Peace of Westphalia**”.- available in 20 January 2009 at: (http://www.experiencefestival.com/a/Thirty_Years_War/id/385103).
12. **Alexander Ganse**, The Bohemian Lands in the 30 Years War, part of World History at KMLA.- available in 12/11/2004 at: (http://www.zum.de/whkmla/region/germany/30yearsczech.html).
13. **David Burr**, “INQUISITION: INTRODUCTION”.- available in 15 February 2009 at: (http://www.fordham.edu/halsall/source/inquisition1.html).
14. **J. A. Wylie LL.D.**, History of the Jesuits: Excerpted from the massive, 2 vol. History of Protestantism, Chapter 1.- available in 30 October 2008 at: (http://reformation.org/jesuits1.html)
15. **Josiah C. Ang**, PM, Historical Timeline of the Royal Sultanate of Sulu Including Related Events of Neighboring People.- Center for Southeast Asian Studies.- available in 25 April 2009 at: (http://www.seasite.niu.edu/Tagalog/Muslim/historical_timeline)
16. **Leopold von Ranke**, “Portrait of Pope Paul IV”.- available in 1 August 2004 at: (http://www.umass.edu/wsp/methodology/ranke/paul.html).
17. **Pierre de Nolhac** , Petrarque et l'humanism.- available in 15 April 2009 at: (http://jhir.library.jhu.edu/handle/1774.2/181)
18. **Robert Green Ingersoll**, “Spain And Spaniard”.- available in 20 March 2009at:(http://www.infidels.org/library/historical/robert_ingersoll/spain_and_spaniard.html)

الموسوعات العربية "المطبوعة"

١. الموسوعة الثقافية/ مدير التحرير فايزة حكيم رزق الله .- القاهرة: دار الشعب، (بدون تاريخ).
٢. الموسوعة العربية الميسرة/ إشراف محمد شفيق غربال.- القاهرة: الدار القومية النشر، ١٩٥٩.
٣. موسوعة الفلسفة/ عبد الرحمن بدوي.- الطبعة الأولى.- بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٤. (الجزء الثاني).
٤. الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة / إشراف وتخطيط ومراجعة مانع بن حماد الجهني.- الطبعة الثالثة منقحة وموسعة.
٥. موسوعة تاريخ العالم/ وليام لانجر؛ أشرف على الترجمة محمد مصطفى زيادة.- القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٩. (الجزء الخامس)
٦. موسوعة تاريخ أوربا الحديث والمعاصر/ مفيد الزيدي.- الطبعة الأول.- عمان: دار أسامة للنشر والتوزيع، ٢٠٠٤. (٢ ج، ١١٨٤ صفحة).

الموسوعات العربية "الإلكترونية"

١. الموسوعة الثقافية: (http://www.almaoso3a.com)

٢. الموسوعة الحرة ويكيبيديا: (www.wikipedia.org)

٣. موسوعة الدول، بوابة عمان: (http://www.omanss.com/book/data/data6/7499.html)

٤. الموسوعة العربية العالمية/ رئيس التحرير أحمد مهدي الشويخات.- الرياض: مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، ٢٠٠٤. (الإصدار الرقمي)

٥. الموسوعة العربية: بوابة عربية إسلامية شاملة: (http://aarabiah.isoc.ae)

٦. موسوعة المعرفة: (http://www.marefa.org)

٧. موسوعة الواحة: (http://www.coptreal.com)

٨. موسوعة فنون عصر النهضة: (http://www.civilizationstory.com/tharwat)

دوائر المعارف الأجنبية "الإلكترونية"

1. **The Catholic Encyclopedia**: Heinrich Wallau, “Johann Gutenberg”.- New York: Robert Appleton Company, 1910 (Vol.7).- Available in 18 Apr. 2009 (http://www.newadvent.org/cathen/07090a.htm).
2. **The Catholic Encyclopedia**: Otto Hartig, “John & Sebastian Cabot”.– New York: Robert Appleton Company, 1908.(Vol. 3).- Available in 2 May 2009, at: (http://www.newadvent.org/cathen/03126d.htm).
3. **The Catholic Encyclopedia**: J. Loughlin, “Pope Paul IV.”.- New York: Robert Appleton Company. Retrieved March 20, 2009 from New Advent: (http://www.newadvent.org/cathen/11581a.htm).
4. **The Columbia Encyclopedia**.- Sixth Edition.- New York : Columbia University Press, 2007. available in 03/04/2009 at: (http://www.bartleby.com/65/th/ThirtyYe.html).

المواقع الإلكترونية

١. شبكة الفيصل نت، مقالات: أديان ومعتقدات: (http://www.fesal.net/articles)

٢. شبكة النبأ المعلوماتية: (http://www.annabaa.org)

٣. موقع مجمع ترنت على شبكة الإنترنت: (http://www.thecounciloftrent.com/index.htm)

٤. النسخة التجريبية من (NNDB): (http://www.nndb.com/people)

